المركز القومى للترجمة
الإبداع القصصى





كان يا ما كان.. وقصص أخرى

للأديب البوسنى: نجاد إبريشيموفيتش
ترجمة وتقديم: جمال الدين سيد محمد

1111



فى هذه المجموعة "كان يا ما كان" وقصص أخرى تأثُّر كبير، وتقليد بشكل أو بآخر لأساليب الحكايات الشعبية المعروفة بما فيها من رؤى خيالية ومضامين فلسفية ودروس وعظ وإرشاد. إلا أن الكاتب يفرض فى كثير من الأحيان نظامه الشخصى المتعلق بالقيم ويحطم المسار التقليدى لمثل هذه الحكايات. وفى هذا العالم العجيب، بالضبط كما فى عالم الأساطير، كل شىء ممكن وجائز ومحتمل. وتحفل هذه الأقاصيص، مثل الحكايات الشعبية وحكايات ألف ليلة وليلة بالتقنيات والعفاريت والجنيات والمسوخ وأعمال السحر. ويضفى الكاتب على أقاصيصه وحكاياته ألوانًا من البهجة والفكاهة عن طريق الأعمال والتصرفات المتناقضة وغير المنطقية والانقلابات المفاجئة.

تصميم الغلاف / نسرين

كان ياما كان
وقصص أخرى

المركز القومى للترجمة
المشروع القومى للترجمة
إشراف : جابر عصفور

- سلسلة الإبداع القصصى
- محرر السلسلة : خيرى دومة
- العدد : ١١١١
- كان ياما كان وقصص أخرى
- نجاد إبريشيموفيتش
- جمال الدين سيد محمد
- الطبعة الأولى ٢٠٠٧

هذه ترجمة مختارات قصصية من :

NAKAZA I VILA
SEDAMDESET SEDAM PRIČA
NEDŽAD IBRIŠIMOVIĆ

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة .

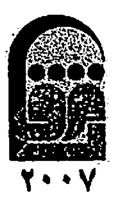
El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo
e.mail:egyptcouncil@yahoo.com

كان ياما كان

وقصص أخرى

للأديب البوسنى : نجاد إبريشيموفيتش

ترجمة وتقديم : جمال الدين سيد محمد



٢٠٠٧

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إبريشيموڤيتش ، نجاد
كان ياما كان وقصص أخرى / لنجاد إبريشيموڤيتش ؛
ترجمة وتقديم جمال الدين سيد محمد - ط١ - القاهرة :
المركز القومى للترجمة ، ٢٠٠٧
٣٣٦ ص، ٢٠ سم (المشروع القومى للترجمة)
١ - القصص البوسنية
أ - محمد ، جمال الدين سيد (مترجم ومقدم)
ب - العنوان ٨٩١,٨٢٣

رقم الإيداع ٢٠٠٧/٥٠٨٥
الترقيم الدولى I.S.B.N. 977-437-234-4
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات

قصص أخرى

تقديم المترجم

الإبداع الأدبى للأديب نجاد إبريشيموڤيتش

قدم التراث الثقافى والتاريخ المديد لجمهورية البوسنة والهرسك العديد من الأفكار والموضوعات المتنوعة والمتباينة لنشأة أدب خصب وثرى على هذه الأرض التى تلاقت عليها وانتشرت وتشابكت بها واندمجت فى نسيجها ثقافات الشرق والغرب وحضاراتهما . وعلى هذه الأرض أيضًا ترك الكثير من الأجناس والشعوب آثارهم وإبداعاتهم المختلفة . ومما لا شك فيه أن الحروف والكلمات لم تكن غريبة عن هذا الرصيد الهائل من الثقافتين المادية والروحية .

وإذا أضفنا إلى كل هذا أنه ازدهرت على هذه الأرض الطيبة ألوان وأشكال وفنون من الأدب الشعبى الشفاهى ، كان يتم نسج خيوط ثرائها ووفرتها وتشعبها بجانب دفء النيران المتقدة فى المواقد والمدافئ بالاستراحات والحانات . ويقوم بتغذية هذا النسيج وتدعيمه ، خيال منطلق ومتعطش من جانب الرواة الشعبيين الذين كان لهم دور مهم وريادى فى

ظهور البدايات الحقيقية للقصة . ومن المؤكد أن هذا المناخ الإبداعى الخلاق سمح للمبدعين على هذه الأرض بالانطلاق نحو العديد من المسائل والقضايا والمشكلات العالمية للوجود الإنسانى فى الزمان والمكان.

وعلى هذه الأرض أيضًا قام أصحاب القلم والإبداع بتسجيل كل مايخطر على بال المرء من مكاتبات وحاشيات ونصوص تاريخية ومواثيق ورسائل متبادلة وكتابات دينية ونقوش على القبور، هذا بالإضافة إلى مجموعات القوانين والأساطير والسير الذاتية وسلاسل الأنساب والتعويذات والأحاجى والحوارات وألوان الأدب الأعجمى(*).

وكان المبدعون فى مجال الأقصوصة بالبوسنة والهرسك خلال حقبة القرون الوسطى يجتهدون فى أن تكون إبداعاتهم ومؤلفاتهم - فى المقام الأول - شهادة لها احترامها وقدسيتها. ويفعلون هذا سواء أكانوا يريدون بها الحفاظ على حدث حقيقى مهم من النسيان ، أو أرادوا أن يعلقوا عليه . ويقومون بهذا سواء أكانوا يرغبون عن طريق الأسطورة التأثير على وعى الإنسان ، أو عن طريق التعويذة والأحجية إبعاد عيون الحاسدين والحاقدين، أو شاءوا تقديم هدايا إلى الحكام عن طريق سرد

(*) مؤلفات باللغة البوسنية ومسجلة بالحروف العربية، وتشتمل على فكرة وقصة معينة، وتستخدم شكلاً أو أسلوبًا من أساليب السرد.

سلسلة النسب أو التأريخ لحقبة معينة أو تسجيل مجموعة من القوانين أو السير الذاتية .

وهكذا فمع مرور الأعوام وتعاقب الحكام نشأت كمية وفيرة من الكتابات والمخطوطات كانت حافزًا للمبدعين والكتّاب الآخرين على تذكر حدث من أحداث الماضى، الأمر الذى فتح المجال للمعالجة الأسطورية للتاريخ، وهى فى جوهرها معالجة سردية قصصية ، ومع ظهور الطباعة والنشر استكمل الأدب فى البوسنة والهرسك، بما فيه القصة، تطوره الفطرى وازدهاره الطبيعى .

وفى أواخر القرن التاسع عشر ظهر رواد كتابة القصة فى البوسنة والهرسك ، وقاموا بنشر إبداعاتهم المتنوعة على صفحات الصحف اليومية والأسبوعية والمجلات الأدبية التى ازدهرت فى ذلك الحين ، وكان من الجلى تأثر هذه الإبداعات القصصية بالحكايات الشعبية وبالآداب الشرقية وبآداب الشعوب المجاورة. ثم جاء القرن العشرون بأحداثه الزاخرة، ومعه ظهرت البداية الحقيقية للقصة الحديثة فى البوسنة والهرسك .

ومن المؤكد أن الأديب البوسنى نجاد إبرشيموڤيتش من أبرز كتاب القصة بالبوسنة والهرسك، وهو مولود بمدينة سراييڤو فى العشرين من أكتوبر عام ١٩٤٠، وأنهى المدرسة الابتدائية ببلدة چيبتشه، وأنهى دراسته الثانوية بمدرسة الفنون التطبيقية – قسم النحت – بسراييڤو .

وعمل لفترة قصيرة مدرسًا للرسم ببلدة جيبتشه، وفى عام ١٩٦٢ انتظم بالدراسة فى كلية الآداب بسراييڤو وأنهاها فى عام ١٩٧٧، كما عمل لفترة مدرسًا لتاريخ الفن فى بلدة جوارچده، وأقام لفترة فى باريس، وهو عضو اتحاد أدباء البوسنة والهرسك منذ عام ١٩٦٤، ومنذ عام ١٩٩٣ تولى منصب رئيس اتحاد الأدباء حتى عام ٢٠٠٢ ، وعمل منذ عام ١٩٩٥ وحتى عام ١٩٩٨ رئيسًا لتحرير مجلة "جيفوت" التى تعد واحدة من أهم المجلات الأدبية .

وهو كاتب القصة والرواية والمسرحية ، ويقرض الشعر أيضًا وبالتوازى مع اشتغاله بالكتابة والعمل الأدبى فقد استمر فى عمله فى مجال الرسم والنحت والفنون التشكيلية، ولذا فهو عضو اتحاد الفنانين التشكيليين منذ عام ١٩٨٢ . وجدير بالذكر أنه حتى عام ٢٠٠٤ أقام مايزيد عن أحد عشر معرضًا خاصًا بلوحاته ورسوماته وتماثيله وأعماله التشكيلية المتنوعة .

وإذا أردنا أن نرصد البيانات الأولى للأديب نجاد إبريشيموڤيتش فيمكننا القول بأنه نشر أول أقصوصة بصحيفة "أوسلوبوچينى" فى عام ١٩٥٨، وفى العام نفسه أذيعت له ثلاث تمثيليات إذاعية وتم نشرها بمجلة "چيفوت" . وبعد ذلك توالى تعاونه مع مختلف الصحف والمجلات الأدبية وأخذ ينشر مؤلفاته تباعًا، ومن أهمها ما يلى :

١- منزل مغلق الأبواب ، مجموعة قصصية فى عام ١٩٦٤.

٢ – الشقى ، رواية فى عام ١٩٦٨.

٣ – قرة بك ، رواية فى عام ١٩٧١.

٤ – الحى والميت ، مجموعة قصصية فى عام ١٩٧٨.

٥ – تنين البوسنة ، رواية فى عام ١٩٨٠.

٦ – أنت الإله هذا الأسبوع ، سيرة ذاتية فى عام ١٩٨٠.

٧ – المسخ والجنية ، مجموعة قصصية فى عام ١٩٨٦.

٨ – مسرحيات فى عام ١٩٨٨.

٩ – الأخوة والوزراء ، رواية فى عام ١٩٨٩.

١٠– يومان فى العقار ، رواية فى عام ١٩٩١.

١١ – كتاب أدم قهرمان مكتوب بقلم نجاد إبريشيموفيتش ، رواية فى عام ١٩٩٢.

١٢ – زنابق روحى ، ديوان شعر فى عام ١٩٩٤.

١٣ – إلهام روحى وشيطانى ، مجموعة من المقالات واللقاءات الصحفية فى عام ١٩٩٦.

١٤ – البوسنة مفروشة ببساط ، ديوان شعر فى عام ١٩٩٦.

١٥– دولاند فى سرايفو ، مسرحية فى عام ٢٠٠٠.

١٦ - الخالد ، رواية فى عام ٢٠٠٥.

وبالإضافة إلى ماكتبه من مسرحيات فقد تم إعداد كثير من مؤلفاته للعرض على المسرح، وتم عرضها على كثير من المسارح ، كما تمت ترجمة مؤلفاته إلى اللغات التشيكية والتركية والألبانية والإنجليزية والألمانية والفرنسية والإيطالية والعربية وغيرها من اللغات، وحصل على كثير من الجوائز الأدبية الرفيعة .

وفى محاولة من جانبنا لاستعراض وإبراز الخطوط العريضة للإبداع الأدبى للأديب البوسنى نجاد إبريشيموڤيتش، يمكننا بداية أن نشير إلى أنه من اللافت للنظر بشكل حاد فى تفاصيل سيرته الذاتية اشتغاله بالكتابة الأدبية بألوانها المختلفة بالإضافة إلى ممارسته للفنون التشكيلية بأطيافها المتنوعة وخاصة الرسم والنحت فى الوقت نفسه، وفى معرض حديثه عن العلاقة بينه وبين الكتابة الأدبية ممارسته للنحت، يقول نجاد إنه لم يقرر أن يكون كاتبًا ، وهو ليس كاتبًا لأنه يكتب ، وليس كل ما يكتبه ملكًا له وخاصًا به . لقد اختارته الكتابة الأدبية لكى يشتغل بها ، أما هو فقد اختار النحت لكى يمارسه . فقد بدأ الكتابة الأدبية فى السابعة من عمره ، وشرع فى نشر أعماله الأدبية فى الثالثة عشرة ، وبدأ فى ممارسة النحت وقد بلغ من العمر الثامنة عشرة.

وكان نجاد قد شرع فى كتابة أقاصيص مجموعته القصصية الأولى بعد انتهائه من دراسته بالمدرسة الثانوية للفنون التطبيقية. وفى

الواقع لقد كانت هذه نقطة فاصلة وحاسمة فى حياته الإبداعية الأدبية . إذ إن الفنان التشكيلى الموهوب كشف حينذاك بكل الوضوح عن ميله الشديد نحو الأدب، ويمكن القول بعبارة أدق إنه كشف عن نزوعه الحاد تجاه التفكير والتأمل والتدبر سعيًا وأملاً منه فى الوصول إلى استنتاج حياتى نهائى .

وهذا القرار المهم سيقوده إلى الانتظام فى الدراسة بكلية الآداب، ويصف نجاد فى كتابه " أنت الإله هذا الأسبوع" وصفًا مفصلاً لقاءه بالعلوم الفلسفية ، وهو اللقاء الذى لم يكن – حسبما يبدو – طيبًا ولا حميداً على الإطلاق . فهذه المؤسسة التعليمية التى تربى وتعد – فى المقام الأول – مدرسين لتدريس مادة الفلسفة ولاتعد فلاسفة أو مفكرين يتطلعون إلى الخروج عن نطاق الهياكل والأشكال الثابتة بالكلية كانت لابد أن تثير الحيرة والاضطراب فى نفس الكاتب نجاد . وسيخرج منها بعد فترة طويلة حاملاً دوافع أخرى مختلفة ؛ فالدراسة الجامعية التى انتظم بها لم تساعده مساعدة كبيرة فى تشكيل وإعداد تصور لأبطاله البؤساء وغير الواقعيين من أفراد عائلة شاميل (بمجموعته القصصية : منزل مغلق الأبواب) ولا فى التنبؤ بأقدارهم ومصائرهم . ولكن من المؤكد أن دراسة العلوم الفلسفية قد تركت تأثيرات واضحة على مؤلفاته بشكل عام .

وقد لوحظ كذلك أن أديبنا البوسنى نشأ وترعرع إبداعيًا وأدبيًا مع حلول عصر جديد فى بلاده ومع حدوث نقطة تحول فاصلة فى المنطقة

المحيطة، الأمر الذى كان له تأثيرات متنوعة وتداعيات متباينة على الأدب .
كما أشار الباحثون والنقاد البوسنيون إلى أن حقبة العشر سنوات من عام ١٩٦٠ وحتى عام ١٩٧٠ مثلت الفترة الذهبية للأدب عامة وللقصة على وجه الخصوص، فى البوسنة والهرسك . فقد لمعت أسماء عديدة وبرزت مؤلفات قصصية كثيرة ومتنوعة ، وساد تنوع للاتجاهات والتيارات الأدبية . وفى مثل هذا المناخ الخلاق وفى ظل هذا التنوع المبدع برز نجاد كأديب متميز ومتمكن .

ولكن الحقيقة التى سرعان ما أطلت بوجهها وبزغت أمام أعين القراء والنقاد، تفيد بأن الكاتب نجاد إبريشيموفيتش أدار ظهره لعصره فقد أخذ بقصصه ورواياته يغوص فى أحداث الماضى ويقلب صفحاتها وينهل من ينابيعها . وبالاستناد إلى مثل هذه الحقيقة بمضمونها هذا يمكن أن تقودنا بسهولة إلى نتيجة خاطئة مفاداها أن الكاتب نجاد ، على النقيض من كثير من معاصريه الذين ارتبطوا بعصرهم من حيث مؤلفاتهم ، بموضوعاتها وأشكالها الأدبية ، راح ينضج كمبدع أدبى فى إطار يخرج عن عصره ، أى أنه بعبارة أدق يبتعد عن مضامين الموضوعات السائدة آنذاك ويخرج عن نطاق الأشكال الأدبية المعاصرة فى ذلك الحين ، وأنه يمضى - على الصعيد الإبداعى - متطابقًا مع مضامين الأدب القصصى البوسنى التقليدى وأشكاله، الأدب الذى يخاطب الماضى باعتباره أصلاً للوجودين القومى والثقافى ولكل كيان آخر للإنسان الذى يستظل بهذه السماء ويتنسم هواء هذه الأرض .

وفى هذا الصدد يرصد النقاد أن الأديب نجاد قطع قطعًا عنيفًا الروابط والصلات بين التاريخ الماضى، بين الجوهر الحقيقى والإطار الظاهرى لأحداث أعماله. وباستخدامه الإطار التاريخى كمجال عام مرن يتيح بمعاييره المطاطية تحركًا أوسع لحرية الانطلاق الإبداعى فإن الأديب نجاد جعل الزمن الماضى الموضوعى لايشكل فحسب زمنًا لمؤلفاته . لقد قطع بقوة الزمن الموضوعى وشطره لكى يبرز فى مكانه زمن جديد، إنه زمن العمل الأدبى الذى يضع حدوداً دون أن يؤثر على العمل تأثيرًا حاسماً .

إن زمن العمل الأدبى لدى نجاد إبريشيموفيتش ليس بينه وبين زمن التسلسل التاريخى شىء مشترك، فإنه موجود بشكل معين بالكاد فى الحدود القصوى للإطار لأنه لا يتم تحديده بالوقت وإنما بالحالات . ويتم إدخال الزمن الموضوعى ، كزمن إطارى ، فى العمل الأدبى عن طريق مادية التفاصيل المعروضة حتى تنجح نجاحًا مؤكدًا عملية المراوغة بشأن تجميل الزمن الموضوعى للعمل الأدبى، والماضى الذى يتم بجاذبيته وضعه فى المرتبة الأولى له فى الواقع معنى الزمن الميت المحدد تحديداً فظًا بالمضمون والمعنى نفسهما اللذين يتم بهما فى الشكل السردى الشعبى تحديد زمن الحكاية بتعبير : كان ياما كان ...

وفى كلتا الحالتين ، فى الحكاية الشعبية وفى أعمال إبريشيموفيتش تتم إماتة الزمن الموضوعى ، وذلك بأن يتم وضعه فى زمن ماضٍ بعيد يصعب تحديده، إنه يخدم كمقدمة يتم عن طريقها التمكين من الوضع

الحر غير الملزم لسمات العمل الأدبى . وفى الحين نفسه يخدم كتحديد حقيقى لوقوع الحدث الذى بواسطته يتم بشكل ضرورى للغاية - بالنسبة للمبدع وللقارئ كذلك - التخيل بأن الحدث قد وقع حقيقة على الرغم من ذلك ، وبأن الاحتمال قوى للغاية بتصور الخيال على أنه كان فيما سبق حقيقة أيضًا . إنها لعبة مع النفس ومع القارئ ، وفى هذه اللعبة يتم قبول واقعية الحكاية لأنها حقيقية ولأنها كانت موجودة فى أحد الأماكن فى الواقع .

وبناءً عليه فالماضى كنز ثرى من الآثار البشرية التى عن طريق انفصالها العميق عن لحظتنا الراهنة أصبحت عالمية، إنها - أى الآثار البشرية - مستخدمة فى مؤلفات إبريشيموفيتش فى خدمة هذه العالمية فحسب ، وليس من أجل الموضوعية التى تكفى لنفسها، وهكذا فإن وقوع الأحداث بتحدياتها التاريخية فى روايات نجاد ليست إلا مجرد قناع وزمن ميت يتم فيه وضع نسيج متفرد من الزمان والمكان .

ومن الملاحظات الطريفة التى لابد وأن نشير إليها ونحن نستعرض فى هذه العجالة الخطوط العريضة للإبداع الأدبى لدى الأديب البوسنى نجاد إبريشيموفيتش، أن الأقصوصة تمثل لديه البنية الأساسية والوحدة النوعية، والجنس الأدبى الذى ينطلق منه الأديب نحو شاعرتيه المتشعبة . ففى البداية يسجل الكاتب نجاد أفكاره وخواطره فى شكل أدبى قصير موجز وهو الأقصوصة ، وبعد أن يتيقن من سلاسة أفكاره ومن يسر معالجته للموضوع من خلال التعبيرات الموجزة البليغة التى

استخدمها فى الأقصوصة فإنه ينتقل إلى إعادة صياغتها ومعالجتها معالجة أكثر تفصيلاً فى شكل رواية أو مسرحية . وهكذا نجد لدى نجاد أقاصيص مثل قرة بك، وحسين بك والشقى وغيرها من الأقاصيص وقد تحولت فى فترة لاحقة إلى روايات وبعد ذلك إلى مسرحيات بالعناوين نفسها أو مع تغييرها .

وبالإضافة إلى تنمية الفكرة أو الموضوع من جنس أدبى إلى جنس آخر فإن الشاعرية الأدبية لدى إبريشيموڤيتش تتميز بسمة فريدة أخرى وهى أنه يحاول باستمرار وعلى الدوام تحسين النص الأدبى المكتوب واستكماله وإلحاق إضافات أو تعديلات إليه . وكنموذج لمثل هذا التدخل النوعى الفريد من جانب الأديب نجد إضافاته لرواية " الشقى " والتى برزت فى الطبعة الثانية لهذه الرواية فى عام ١٩٨٢ ، حيث أضاف إليها ما يقرب من ست وستين صفحة جديدة .

وعلاوة على البحث المحموم من جانب الأديب نجاد للوصول إلى صيغة أدبية متكاملة وإلى شكل أدبى يعبر بأسلوب إيحائى ومثالى عن رؤيته الفنية ذات المستويات المتعددة ، ينبغى أيضًا إيجاز وتأكيد الأساس الفلسفى للعمل الأدبى، ذلك الجوهر الثابت الذى يتخضب به عمله الأدبى ابتداءً من الأقصوصة والرواية ومرورًا بالمسرحية واعترافات السيرة الذاتية وانتهاءً بالأساطير الأدبية ، ويمكننا توضيح هذا الأساس الفلسفى وتحديده بصفته سعيًا من جانب الأديب إلى أن يتم عن طريق النصوص الأدبية المتنوعة التغلب على الموت والاقتراب من الخلود.

وفى عـام ١٩٦٤ تم نشـر المجـموعـة القـصـصـيـة الأولى للأديب إبريشـيـموڤـيـتش بعنوان "منزل مـغلق الأبواب "، ولكن من الطريف أن هذا لم يكن هو العنوان الحقيقى الذى أراده الكاتب لمجموعتـه ، وإنما كـان عنوانـهـا "منزل بـلا أبواب " . ويبـدو أن هـذا العنوان الأصلى للمجموعة كان عنوانا كئيبًا وغير مناسب على الصعيد الأيديولوجى عند نشـرها، ولذلك فـإن المشـرف على هـذه السلسلة من الإصـدارات أقنع الأديب الشـاب لأسبـاب ومبررات لايعرف كنهها ولا حقيقتها أحد حتى الآن بأن يطلق على مجـموعتـه القـصـصـيـة العنوان الآخـر. وذلك لأن الأبواب المغلقة يمكن فتحها على نحو ما ولكن ينبغى فقط إيجاد المفتاح المناسب لها .

وعلى الرغم من نشـر المؤلف لعـديد من أقـاصـيص تلك المجـموعـة القـصـصـيـة فى إصـدارات أخـرى فـإنه لم يسـتـخـدم عنوانـهـا الأول ولاعنوانها الأصـلى، واضطر الأديب نجاد إلى الانتظار خمسة وعشرين عـامًا لكى ينـشـر (فى عـام ١٩٨٩) مجـمـوعتـه القـصـصـيـة بعنوانها الأصلى الذى أراده وهـو "منزل بلا أبواب " . وأيًا كـان الحـال فـهـذا التغيير الذى ليس له مثيل على الصعيد الأدبى لم يـأت من فراغ، وتكمن أسـبـابه ودوافـعـه الفـعليـة لدى الأديب الذى لايريد حـتـى هذه اللحظة الإفصاح عنها .

والأديب نجاد بهذه المجموعة القصصية وارب الباب ، ثم فى مرحلة تالية فتحه على مصـراعيه أمام عالم أدبى جديد ، غير معروف حتى ذلك

الحين ، عالم متكامل يشتمل على العديد من عناصر الخيال ويمتلك نظرة جديدة تجاه الحياة تقوم على كثرة من الخبرات والتجارب . إنه عالم أفراد عائلة شاميل التى كانت فى الماضى عائلة بارزة صاحبة نفوذ واسع ، ولكن فى الوقت الذى بدأ الأديب نجاد ينشغل بها كانت قد فقدت ثروتها وتبدد نفوذها وتعرضت إلى تدهور شديد وانهيار عنيف، وبالتالى فقدت تأثيرها وبريقها . وخلال الفترة التالية من عمله الأدبى الإبداعى عمّق الأديب هذا العالم وزاد من اتساعه وأضاف إليه تغييرات وألحق به تعديلات، وبذلك أكد المبدأ الأساسى لشاعرتيه النثرية الدرامية بشأن العمل الدائم الدؤوب فى مؤلفه الأدبى .

ويتعرض المؤلف بقلمه فى أقاصيص هذه المجموعة لا لأولئك الفضلاء من أفراد عائلة شاميل وإنما لأسوأهم خَلْقًا وأخلاقًا . وهو هنا يصورهم ويسلط عليهم أضواء عباراته بعد مرور عديد من السنوات على الانهيار الحاسم للأسرة؛ أى أن كل ما يمكن أن يلم بأفراد هذه العائلة من انهيار وتردٍّ قد ألم بهم وأصابهم بالفعل ، وكل ما تم فقدانه ضاع وراح إلى غير عودة . والمؤلف لا يصور مظاهر هذا الانهيار وأشكاله، وإنما يصور نتائجه ويعرض لعواقبه .

ونلاحظ فى هذا الصدد أن هذه المجموعة القصصية تقترب إلى حد كبير من الرواية من ناحية وحدة أفكارها وتوحد مضامينها واتساق أساليب عرض وسرد خيوطها . وعلى صعيد آخر فإن المؤلف لا يتعرض للأصول التاريخية لنشأة أفراد عائلة شاميل ونهضتها ثم سقوطها

وانهيارها، ولكنه يستوعب هذه المراحل ويتفهمها ، وهذا الاستيعاب للماضى من جانب المؤلف فى مقابل عدم اطلاع القارئ على مفرداته وتفاصيله يجعل أقاصيص هذه المجموعة تترك – فى الوهلة الأولى – على القارئ انطباعًا وكأنها نتاج يحفه الغموض ويلفه الخيال، بيد أنه فى المقام الأول خيال الواقع ويعد ذلك واقعية الخيال . وهذا الأسلوب كان يعد – فى حينه – أمرًا جديدًا فى الأدب القصصى بالبوسنة والهرسك، ويعتبر أحد السمات الرئيسية للإبداع الأدبى للأديب إبريشيموفيتش.

وتبرز فى أقاصيص هذه المجموعة العلاقة الإبداعية للمؤلف تجاه الزمان والمكان، إنه يبنى الأقصوصة على مجرد زمن الحدث دون وجود زمان ومكان موضوعيين . والحدث الذى لا يُعرف زمن ومكان وقوعه ، هو فى الواقع علاقة يتم تقديمها وعرضها بأسلوب تحليلى . إن الكاتب هنا لا يتقدم بالأحداث بل يقدمها كل لحظة فى حزمة ضوئية مختلفة . وينسج المؤلف نسقًا حيًا لذلك الذى يحدث فى أضيق مسافة بين نقطتين لدى الناس ، وهو نسق لا يتم أبدًا بالتبعية القيام به حتى نهايته ، إنها سيولة حية متأرجحة بين الأشخاص وتمر فى لحظة واحدة وحيدة عبر كل الألاعيب النفسية من حسد إلى حب وخجل وعدم اكتراث ، إلى مجموعة كاملة محيرة من العلاقات الممكنة ، والمؤلف لايختار فقط مجموعة واحدة، بل يريد أن يتعرض لكل العلاقات ، ومن هنا يأتى هذا التغيير المستمر الذى يضفى فى كل لحظة لونًا ونبرة مختلفة .

وقدم لنا الأديب إبريشيموفيتش فى أقاصيص هذه المجموعة أسلوبًا أدبيًا متميزًا وخاصًا به ، تمكن به – هو وعدد من معاصريه – من أن يغير ويحول المسار الأساسى ، ومن ثم فقد استطاع أن يؤسس طريقه الخاص به فى التطور فى مجال أدب القصة . ولم يتمكن أحد من النقاد آنذاك من التخمين إلى أين سيقود هذا النهير الصغير المنفصل عن النهر الأم والمرفوض منه .

ومن ناحية البنية فهذه الأقاصيص تقدم مواقف ملحمية لايمكن الإمساك بها ، وتعرض لشخصيات لايتوقع أحد تصرفاتها ومسلكها . بينما لغة السرد القصصى هنا مجردة من الوصف ومطرزة باستعارات ومقارنات نادرة بحيث إن هذا مكن من بروز الجسد الحى للغة دون رداء بلاغى زائد وغير ضرورى . وبالإضافة إلى ذلك فلم يتم إجراء الاتصالات عن طريق اللغة فحسب ، بل وتم فى كثير من الأحيان عن طريق الإشارات والحركات والإيماءات والصيحات الأمر الذى جرى به تكثيف الواقع اللغوى الثقافى للنص ولكن نسقه فى الحين نفسه . ونظرًا لأن المواقف الأساسية بالأقاصيص تتغير فى غاية السرعة وعلى غير توقع وبطريقة غير مألوفة فإن أفعال الشخصيات تفتقد إلى الدوافع، ولايمكن فى أغلب الأحوال الإمساك بها ، وليس لها سند مباشر من الموقف الأساسى بالأقاصيص . كما أن نظام وقوع الأحداث مكثف ، وتجرى التغيرات والتحولات ليس داخل الجمل التى تتوالى الواحدة تلو الأخرى فقط بل وفى كل جملة على حدة .

وعلاوة على هذه المميزات فى الأسلوب والبنية فإن السمات المتميزة للأسلوب القصصى للأديب إبريشيموڤيتش تحمل تصوراً خاصًا للشخصيات ، ويتجلى هذا فى تعيين منفذ جماعى للأفعال ، وعادة مايكون فرداً من أفراد العائلة . ومن موقف إلى موقف يتم إبراز فرد يتميز بغرابة تصرفاته . وهكذا يتم فى كل أقصوصة إدخال شخصية جديدة تختلف وتتناقض مع البيئة المحيطة أو تتكيف معها مثل شخصيات : السيدة وتشوتشر وشاميل المعلم وسالمة ولودا فى القصص المترجمة هنا .

ومن السمات البارزة أيضًا فى روايات الأديب إبريشيموڤيتش أنه شيدها داخل إطار تاريخى من الموضوعات والأفكار ، وهو إطار محدد بحقبة تاريخية معينة ، وهى فى أغلب الأحوال حقبة الحكم العثمانى للبوسنة والهرسك وفترة احتلالها فيما بعد من جانب الإمبراطورية النمساوية الهنغارية . وفى هذه الروايات قام المؤلف بتصوير عالم عائلات النبلاء البوسنيين فى القرن التاسع عشر ، أى خلال بعض اللحظات التاريخية الحاسمة والعصيبة . وليس من قبيل المصادفة أن إبريشيموڤيتش اختار الحديث عن عائلات النبلاء وتصوير أحوالهم باعتبارهم ممثلين للنظام القائم وللأحوال السائدة آنذاك مع التركيز مع مضيهم التدريجى نحو نهايتهم المحتومة . وعلى الرغم من أن كل رواية من رواياته لها طابع تاريخى بالمعنى الواسع لهذا التعبير فإن كلاً منها يتضمن أيضًا إشارات وسمات أخرى بحيث يمكن تصنيفها ، وفقًا

لمضمونها ، بأنها رواية اجتماعية أو نفسية أو رواية تيار الوعى . إلا أن قصر تصنيف الرواية على سمة واحدة يعد خطأً كبيرًا .

وليس من نافلة القول التنويه إلى أن القرن التاسع عشر يمثل بالنسبة للبوسنة والهرسك قرن التغيرات الهائلة والانكسارات الضخمة، وهو القرن الذى منذ انطواء البوسنة والهرسك تحت لواء العثمانيين وهو يحفل بأكبر قدر من الأحداث الاجتماعية المتنوعة . ومما لا شك فيه أن قرنًا بهذا الشكل يعد بالنسبة للأديب والمؤرخ قرنًا حافلاً بالاضطرابات العميقة وزاخرًا بالتفاصيل الدامية المثيرة . وهذا القرن بجهوده وآماله وتوقعاته المتناقضة درامى بذاته بدرجة كافية بالنسبة لمصير كل إنسان ، وغامض وغير مستقر بدرجة كبيرة بالنسبة لكل الطبقات الاجتماعية فى البوسنة والهرسك . والهزات العنيفة التى تعرضت لها الإمبراطورية العثمانية وتكرار نشوب الثورات والحروب على أراضيها بالإضافة إلى التغيرات الضخمة ذات المدى البعيد التى وقعت بالعالم الغربى كل هذا كان كافيًا لأن يثير لدى سكان البوسنة والهرسك آنذاك الريبة والمخاوف ، ودفعهم إلى القيام بتصرفات غير منطقية فى بعض الأحيان وأيقظ فى نفوسهم أحاسيس غامضة وهواجس محيرة.

وفى عام ١٩٦٨ نشر نجاد النص الأول لروايته الأولى "الشقى". وفى عام ١٩٨٢ أصدر النص الثانى للرواية بعد أن ألحق بنصها الأول

إضافات كبيرة، وقد أثارت هذه الرواية بنصيبها اهتمامات غير مسبوقة من جانب النقاد والقراء وحازت على عدة جوائز أدبية وتم تصويرها كفيلم وإعدادها للعرض المسرحي والتليفزيوني وتقديمها بالإذاعة ، وترجمتها إلى العديد من اللغات الأجنبية .

وعلى الرغم من أن رواية "الشقى" موضوعة فى إطار "أحداث تاريخية معينة وقعت فى النصف الأول من القرن التاسع عشر وارتبطت بانهيار العائلات البوسنية الأرستقراطية، فإنها تحمل فى طياتها كل تلك السمات البارزة للرواية المعاصرة . وانعكست المعاصرة، فى رأى النقاد، فى لغتها الحية وفى معالجة الموضوع وتركيب الأحداث وعرضها ، وفى رسم مختلف الشخصيات وتصويرها والغوص النفسى فى أغوار العوالم الداخلية للأبطال .

وتابع الكاتب فى روايته هذه مصير البطل الرئيسى ، الشقى مظفر أباظوفيتش . وهو رجل أخرس قبيح المنظر ذو وعى مضطرب ، ومن أجل هذا كان يتعرض للمهانة والاستهزاء، ومع ذلك فقد امتلك مواهب وقدرات فائقة للإدراك والاستيعاب، وارتدى قناع الجنون الذى خدمه كحاجز بينه وبين الناس الذين أنكروا عليه مواهبه وقدراته وتركوه منعزلاً لنفسه ولأحلامه فظل إلى حد ما نقيًا لا تثقل كاهله الهواجس التى كانت تطارد أفراد عائلته وراحت تقضى عليهم فردًا فردًا من كبيرهم إلى صغيرهم .

ويصور لنا الكاتب قوة المصير والقدر الذى يدمر أفراد عائلة أباظوڤيتش ويدفعهم إلى إراقة الدماء فيما بينهم ، كما يصور تقاتلهم من أجل السلطة وأطماعهم من أجل الاستيلاء على المال واندفاعهم إلى البحث عن أصل عائلتهم وشجرتها، والحقيقة أن البحث عن الهوية الذاتية ليس موضوعًا جديدًا إلا أن براعة الكاتب تكمن فى نجاحه فى معالجة هذا الموضوع بأسلوب طريف وشكل حديث ، وفى إجادته تصوير انهيار العائلة المتماسكة المنغلقة التى كانت تعيش فى حالة انفصال عن بيئتها .

بيد أن أفراد عائلة أباظوڤيتش لم يتمكنوا من الإفلات من قدرهم ومصيرهم . وأصاب العائلة الانهيار النهائى الذى كانت تشعر به من البداية وتصطحبه معها كجزء من كيانها ومن حياتها اليومية . أما الشقى مظفر فقد عاد له وعيه وانفكت عقدة لسانه وحصل على المال والنفوذ والسلطة، إلا أنه ناء بعبء الهواجس دون أن يفلح فى التحرر منها ، ودفعه مصيره إلى الموت غرقًا فى النهر بعد عجزه عن مواجهة هذه الأعباء وإصابته بالإحباط من الحياة ومن الناس، ويمثل غرق مظفر فى هذه الرواية الهروب من الشرور لأنه وهو مندمج مع مياه النهر يمكنه الحفاظ على وعيه الذى زعزعه الناس .

ومما لاشك فيه أن الكاتب قد نجح فى هذه الرواية نجاحًا كبيرًا فى توثيق الصلات بين الماضى والحاضر ، وساعدته سلاسة لغته

ووضوحها فى أن يمنح الماضى دمًا ويكسوه لحمًا ويضفى عليه حيوية وحياة بحيث انبثقت منه مواعظ رصينة ورسائل صادقة تصلح للحياة المعاصرة وللبشر المعاصرين . وتمكن الكاتب من تحويل شخصيات الماضى الجافة الميتة إلى شخصيات معاصرة وقوية ومثيرة . وبعد القراءة يدرك القارئ أن الرواية مكتظة وحافلة بالانفعالات والأحاسيس وبالشخصيات والأحداث لدرجة أنها فى إحدى المرات ستنفجر متناثرة إلى مئات القصص التى يمكن أن تكون كل منها قائمة بذاتها بسحرها وقيمتها المتفردة .

وفى عام ١٩٧١ أصدر إبريشيموفيتش روايته الثانية قرة بك، ويشملها أيضًا إطار تاريخى يتزامن مع شروع الإمبراطورية النمساوية الهنغارية فى الاستيلاء على البوسنة والهرسك فى عام ١٨٧٨ ويواصل الكاتب فى روايته هذه أيضًا مهامه البحثية التى بدأها فى مجال العلاقات بين الوعى واللاوعى ، وبين المظهر والجوهر . ويدخل فى نقاش جوهرى وقوى حول عديد من القضايا ذات الصيغة العالمية مثل التصرفات الخاطئة للإنسان ومدى السلامة الأخلاقية لقراراته فى لحظات شديدة الحرج سياسيًا وتاريخيًا . وعلى الرغم من الأحداث والوقائع التاريخية التى تتعرض لها هذه الرواية فإنها تتحدث فى المقام الأول عن الجوانب النفسية لشخصياتها .

وبطل هذه الرواية هو الشاب جلال الدين طيب قرة بك، مفتى مدينة موستار، وهى شخصية حقيقية واقعية . وقد وُجِدَ المفتى قرة بك –

بمحض الصدفة – فى خضم لحظات تاريخية حاسمة فرضت عليه أن يتصرف بشكل مغاير لطبيعته لأنه رجل عاقل ومثقف ومتدين ، وفى ذلك الحين أحاطت به مجموعة من البشر من صغار وكبار الانتهازيين والأذناب ومثيرى الفتن والجهلاء الذين كان سيصطدم بهم – إن آجلا أو عاجلاً – فى صراع حتمى . وحانت الفرصة المناسبة لمثل هذا الصراع عند دخول القوات النمساوية الهنغارية للاستيلاء على الأراضى البوسنية .

ويصف الكاتب تلك الأيام العصيبة من شهر أغسطس عام ١٨٧٨ بمدينة موستار؛ حيث سادتها حالة فريدة من الترقب والانتظار والفوضى وانعدام السلطة، وسيطرت على أهلها حيرة بين الإمساك بالسلاح والدفاع عن مدينتهم على الرغم من صدور فتوى سلطانية بعدم مقاومة الجيش الأجنبى ، أو الخضوع والاستسلام لقرارات الأقوياء وأصحاب النفوذ والسلطة واستقبال جيش الاحتلال القادم فى تسليم وإذعان.

وقد ارتأى أثرياء وأعيان المدينة فى هذا الأمر فقدانًا للامتيازات التى اكتسبوها وتمتعوا بها لقرون طويلة، ولذا أيدوا محاربة القوات القادمة . أما فقراء المدينة وبؤساؤها فقد رأوا فيه شكلاً جديداً من أشكال العبودية والاستعباد من جانب حاكم أجنبى، أما المفتى قرة بك فقد كان يعارض محاربة القوات القادمة الأمر الذى ساهم فى سهولة دخولها إلى المدينة . وراح قرة بك ضحية لتصرفه هذا ، فقد تم قتله ونهب منزله.

وقد قام المؤلف بصياغة روايته هذه فى قالب مسرحى وتم عرضها لأول مرة على المسرح القومى بمدينة زينتا فى عام ١٩٨٣، وتم طبعها كنص مسرحى فى عام ١٩٨٥.

وفى عام ١٩٨٠ تم نشر رواية "تنين البوسنة" ، ويسميها بعض النقاد قصة بسبب صغر حجمها نسبيًا، وقطعت أيضًا الرحلة نفسها التى اجتازتها معظم مؤلفات إبريشيموفيتش السابقة . فقد كانت أقصوصة ثم طورها المؤلف إلى رواية ثم حولها إلى نص مسرحى .

وتتحدث هذه الرواية عن حسين بك جراد اشتشفيتش الذى ترأس الحركة التى ثارت فى عام ١٨٣١-١٨٣٢ بهدف الحصول على الحكم الذاتى للبوسنة . ونجح البوسنيون فى ظل هذه الحركة فى هزيمة الجيش العثمانى على مقربة من مدينة سراييڤو . ونظرًا لشجاعة حسين بك وبطولته فقد اختاره البوسنيون بالإجماع حاكمًا على البوسنة . وكانت هذه هى أول مرة يحاول فيها أهل البوسنة تقرير مصيرهم بأنفسهم . ولكن بفضل الخلافات التى نشبت بين أعيان البوسنة فقد تم إخماد هذه الحركة والقضاء عليها . ونظرًا للجهود التى قام بها حسين بك فقد قدره أفراد الشعب بأن أطلقوا عليه اسم "تنين البوسنة".

ومن الطريف أن إبريشيموفيتش لم يكن هو أول أديب يعالج الموضوع نفسه ، فقد تعرضت عدة أعمال أدبية بوسنية مهمة لهذه الحركة ولزعيمها وملابساتها، ومن الجلى أن هذه الحركة لها مكانة

متميزة بين أحداث البوسنة والهرسك ، ولها كذلك انعكاس عميق فى وجدان أفراد الشعب ولذلك لاقت كل هذا الاهتمام من جانب أدباء البوسنة والهرسك.

ودون التوقف عند الأحداث التاريخية التى سبقت المعركة الأخيرة لحسين بك فإن الكاتب فى هذه الرواية يصور اللحظات الأخيرة لتنين البوسنة ، التى يسوى فيها فى سجنه ، بمفرده بعيداً عن وطنه وأهله ، حساباته مع نفسه ومع حياته ، وينتظر الموت مع إدراكه أن الكلمات المكتوبة هى الوحيدة التى ستتجاوز الموت وتظل حية إلى الأبد .

وفى تلك اللحظات الأخيرة أيضًا يستعرض حسين بك شريط ذكرياته وحياته بدءًا من طفولته التى كان يلقى فيها الرعاية والحماية من أبيه والحب العارم من أمه ، ومروراً بسنوات شبابه حيث جرت أول اللقاءات مع حبيبته وزوجته التى ظلت على الدوام برقتها وحساسيتها سراً منيعًا فى حياته ، وانتهاءً بثورته ضد السلطان من أجل حبه الشديد لوطنه . ومن خلال استعراضه لأحداث حياته يمر كذلك عبر وقائع تاريخ بلاده مصورا فى عبارات موجزة أبرز السمات الذهنية والنفسية لأهل بلده. ويتطرق الكاتب كذلك للعلاقة بين الفرد والسلطات، بين الحرية وعدم الحرية ، وحق المرء فى التفكير والتصرف بشكل مغاير عما يفكر ويتصرف به أصحاب السلطة .

ووفقًا لشهادة الكاتب نفسه فقد شرع فى كتابة مشروعه الأدبى عن تنين البوسنة بحماس شديد وانطلاقة قوية وطموحات كبيرة، ولكنه خرج

منه فى استسلام يائس. إذ إنه رغبة منه فى حذف كل ماليس له أهمية جوهرية بالنسبة للموضوع الأساسى، فقد حذف الكثير من التفصيلات التى بدت فى ظاهرها غير ذات أهمية بحيث فقدت الشخصية الرئيسية سماتها الخاصة واقتصرت الرواية على عدد غير كبير من الصفحات.

وفى المسابقات الأدبية التى أعلنت عنها دار النشر شڤيتولوست بسراييڤو لأفضل عمل نثرى عن مدينة سراييڤو تقدم نجاد إبريشيموڤيتش بكتابه " أنت الإله هذا الأسبوع " ، وتم فى عام ١٩٨٠ نشره، وشكل هذا الكتاب ومضمونه يثيران الحيرة، فبدلاً من تقديمه رواية عن سراييڤو قدم لنا الكاتب رواية عن نفسه وعن أصدقائه وأعدائه ، وعن غرامياته وعن أوقات عزلته ، إنها فى الوقت نفسه رواية عن الحياة الروحية لمدينة سراييڤو خلال العقدين السابقين لكتابة الكتاب ، وفى هذا الصدد تحفل بكثير من المدح الجميل والانتقادات الحادة للمدينة .

وقد تحفظ كثير من النقاد فى تسمية هذا الكتاب بالرواية ، ويؤكدون أن الكاتب يفعل ذلك فى غير رضاء واقتناع . وعلى أية حال فقد تحدث الكاتب بصدق وصراحة، ونزع عن وجهه قناع النفاق والزهو والسمو وتكلم بصوته الطبيعى وأعرب عن نرجسية مفرطة . وأضاف مجموعة من التفاصيل الجذابة والمثيرة التى تساعد فى فهم الظروف والأحوال الثقافية لتلك الحقبة. وبفضل ما تحلى به أسلوب الكاتب من حضور بديهة وفكاهة فإنه تتم قراءة كتابه هذا دفعة واحدة .

وفى عام ١٩٨٦ نشر كاتبنا مجموعته القصصية بعنوان"المسخ والحورية" ، وهى مكونة من سبع وسبعين قصة وأقصوصة وحكاية ذات مغازٍ ومواعظ . ومن الطريف أن هذه الأقاصيص منتقاة بوجه عام من القصص التى كان الأديب نجاد ينشرها بانتظام فى عموده الأسبوعى بمجلة "سڤيت " التى كانت تصدر فى سراييڤو. وفيما بعد قام الكاتب بنشر بعض من هذه الأقاصيص فى عدة مجلات أخرى مع وضع عناوين لها وإضفاء قدر من التغييرات عليها. وفى عام ٢٠٠٥ أعاد نشر هذه المجموعة القصصية بشكلها الجديد فى إطار نشر أعماله المختارة تحت عنوان : " كان ياما كان ....." ومن هذه المجموعة انتقينا كل أقاصيص الجزء الأول من هذه المختارات .

لم ينكر النقاد والباحثون عليه فى هذه المجموعة القصصية تأثره الكبير وتقليده بشكل أو بآخر لأساليب الحكايات الشعبية المعروفة بما فيها من رؤًى خيالية ومضامين فلسفية ودروس وعظٍ وإرشاد. إلا أن الكاتب يفرض فى كثير من الأحيان نظامه الشخصي المتعلق بالقيم ويحطم المسار التقليدى لمثل هذه الحكايات . وفى هذا العالم العجيب – بالضبط كما فى عالم الأساطير – كل شيء ممكن وجائز ومحتمل . وتحفل هذه الأقاصيص، مثل الحكايات الشعبية وحكايات ألف ليلة وليلة بالتقنيات والعفاريت والجنيات والمسوخ وأعمال السحر. ويضفى الكاتب على أقاصيصه وحكاياته ألوانًا من البهجة والفكاهة عن طريق الأعمال والتصرفات المتناقضة وغير المنطقية والانقلابات المفاجئة فى مسار

الأحداث، كما تشع من هذه الأقاصيص خبرات معرفية هائلة وتحفل بنماذج بشرية ثرية ومتنوعة .

وتتمثل القيم الاستثنائية لهذه المجموعة القصصية الفريدة فى أمرين: فى المعانى والموضوعات ، وفى اللغة والأسلوب . وعلى صعيد المعانى والموضوعات فتشتمل هذه المجموعة القصصية على دائرة واسعة وممتدة للغاية من المعانى والمدلولات والمغازى والمقاصد ، وتتضمن مجموعة من الموضوعات حافلة بالعبر والدروس والمواعظ الأخلاقية والنصائح والإرشادات الحياتية .

وفيما يتعلق باللغة والأسلوب فى هذه الأقاصيص فلا يمكن التحدث إلا عن يسر اللغة وسلاسة الأسلوب وشعبيته، وشهد النقاد أن هذه الحكايات ليست إلا نبعًا لاينفذ من الثروة اللغوية ابتداءً من معجم المفردات والمصطلحات وانتهاءً بتركيبات الجمل والعبارات وأسلوب السرد، وأكدت الأبحاث التى تعرضت لأسلوب ولغة هذه الأقاصيص تميزها باستخدامها للغة البوسنية الأدبية بكل خصائصها المتفردة وسماتها التى لانظير لها، وهذا يجعل هذه اللغة سلاحًا قويًا وفعالاً فى يد موهوبة غير عادية كموهبة الأديب نجاد إبريشيموفيتش .

إن الأديب إبريشيموفيتش يوحى بهذه المجموعة القصصية ويقدم للقراء حلاً للغز الذى سيطر على الأذهان عبر مختلف القرون فيما يتعلق بالمؤلف والمبدع الحقيقى للحكايات الشعبية، وفى نهاية الأمر سيتبين أن

هذه الحكايات الشعبية ليست إلا نِتاج عبقرية وموهبة وإبداع فرد من أفراد الشعب العادى، ومن هذا المنطلق وبهذا المعنى ستدخل المجموعة القصصية " كان ياما كان ... " فى إطار ما يسمى بالأدب الشعبى . هذا إن لم تكن قد دخلت بالفعل .

وفى روايته " الأخوة والوزراء " فى عام ١٩٨٩ استكمل الأديب إبريشيموڤيتش موضوعه المفضل وشاغله الأدبى الرئيسى ، ألا وهو موضوع حسين بك وثورته ضد السلطات العثمانية فى البوسنة . ويبدو أنه أحس بأنه لم يوف هذا البطل حقه فى روايته السابقة "تنين البوسنة" فأكمل قصته هنا مع إضافة المزيد من التفصيلات التى تعكس العلاقات الداخلية المعقدة فى البوسنة ، والصراع من أجل السلطة والهيمنة ، والتى تصور العالم الداخلى للبطل الرئيسى . وقد حصلت هذه الرواية فى عام نشرها نفسه على الجائزة السنوية التى تقدمها دار النشر " ڤيسلين ماسليشا " لأحسن رواية منشورة .

وفى عام ٢٠٠٥ نشر إبريشيموڤيتش روايته "الخالد" . وإنه لعجب من العجب أنه يكتب هذه الرواية منذ حوالى ما يزيد عن ثلاثين عامًا . ونشر جزءًا منها بالعنوان نفسه فى عام ١٩٨٠ ، ثم نشر أجزاء أخرى منها فى فترات متباعدة، كما أنه حرص على زيارة مصر فى أغسطس عام ١٩٨٨ لكى يعمق أفكاره ويربطها بالواقع عند مشاهدته للآثار الفرعونية على الطبيعة .

وليس من نافلة القول التنويه إلى أن إبريشيموفيتش قد أعرب فى أكثر من مناسبة عن عشقه وحبه الشديد لمصر وحضارتها الفرعونية التى يعتبرها بداية للحضارة الإنسانية عامة وأقدم عمراً من الحضارة الأوروبية . وهو يرى أن مصر ساحرة وجذابة للغاية بحيث إن الشخص الذى يزورها مرة يصعب عليه أن يخرج منها . وأشار فى أحد أحاديثه الصحفية إلى الكاتب الأمريكى نورمان مايلر الذى جاء إلى مصر لكتابة عدة فصول فمكث فيها عشر سنوات وكتب رواية من مجلدين بعنوان : الأمسيات العريقة ".

وعلى أربعمائة صفحة أكد الكاتب فى رواية "الخالد" حبه للفراعنة، وتابع عقيدة الخلود عندهم باحثًا عن جذورها الفكرية الأولى عند الملك مينا ثم فى فترة لاحقة عند الشاب إخناتون .

وبعد فقد كان هذا تعريفًا موجزًا بالأديب البوسنى نجاد إبريشيموفيتش ، واستعراضًا سريعًا لبعض مؤلفاته ، قصدنا به تهيئة القارئ للتعرف على هذا الأديب وإلقاء الضوء على أعماله الأدبية . وأتعشم أن نكون قد نجحنا فى ذلك .

والله الموفق وبه نستعين .

كان ياما كان ...

كان هناك قصر وكان قيصر ولا شيء أكثر من هذا .

وكانت هناك حسناء ، وكانت جميلة ، وغاية فى الجمال ولاشىء أكثر من هذا .

وكان هناك أحد الشحاذين ، وكان شحاذًا فحسب لاشىء أكثر من هذا .

وكان هناك أحد الأثرياء ، وكان ثريًا فحسب ولاشىء أكثر من هذا .

وكان هناك أحد البهلونات ، وكان بهلونًا فحسب .

وكان هناك شخص موهوب إلى أبعد حدود الموهبة ، وكان موهوبًا ولاشىء أكثر من هذا .

وكان هناك رجل حكيم ، وكان حكيمًا فحسب .

وكان هناك شخص عطوف.

وكان هناك شخص طيب .

وكان هناك رجل قوى فحسب ، وكان قويًا فقط ولاشىء أكثر من هذا .

وكان هناك شخص لايساوى شيئًا .

وكان هناك شخص على هذا النحو .

وكان هناك شخص .

...

وتم عزل ذلك القيصر من على عرشه .

وتقدم العمر بتلك الحسناء .

وظل ذلك الشحاذ شحاذًا .

وأصبحت بلا قيمة كل ثروة ذلك الثرى .

وسقط ذلك البهلوان من على الحبل .

ولم يصنع ذلك الموهوب شيئًا .

وكان ذلك الحكيم يقدم النصح إلى كل إنسان إلا أنه لم يستطع أن يسدى النصح إلى نفسه .

وبكى ذلك الشخص العطوف .

وأصيب بمرض نفسى ذلك الشخص الطيب .

وتظاهروا بالإعجاب بذلك الرجل القوى .

وتوفى عبثًا ذلك الشخص الذى كان لايساوى شيئًا .

وذلك الشخص الذى كان هكذا كان بمقدوره ألا يكون كذلك .

وذلك الشخص الذى كان ، كان ، بيد أنه لم يظل كذلك .

...

وكان هناك شخص شريف ، إلا أنه كان يشعر بالملل.

وكان هناك شخص فاسق ولم يكن يشعر بالملل ، وكان يخشى على الدوام من أن يتملكه الملل.

وكان هناك شخص . وأطلقوا سراحه ، فعاد بالتدريج مرة أخرى إلى السجن .

وكان هناك شخص رحل إلى بلد أجنبية ولم يعد يُسمع عنه أى شىء قط . ويظن أهله أنه حى .

وكانت هناك فتاة لم تكن تشرب الماء إلا من القلة .

وكان هناك رجل كلما قام بخدمة لشخص يحرص على إذلاله ولو بقدر ضئيل .

وكان هناك رجل قام بارتكاب شىء من الأفضل عدم الإفصاح عنه ، شىء يجعل المرء ببساطة يتسمر فى مكانه .

وكان هناك رجل يتصرف على هواه، ولكنه طيب .

وكانت هناك عجوز ونبتت لها أسنانها للمرة الثالثة، ولكنها أسنان صغيرة وحادة .

وكان هناك شخص كانت ترى أمه الجنيات .

وكان يوجد فيما سبق في بلدة چيبتشه الرجل الأخضر الذى يعيش في الماء .

وكان هناك ذات مرة رجل مصاب بمرض شديد، وعثر على جذر نباتى بفناء منزله وفى الغد على الفور شفى من مرضه. وها هو يمشى الآن أيضاً .

وكان هناك رجل عاقل فمات.

وكان هناك رجل هكذا.

وكان هناك رجل آخر.

...

وكان هناك رجل لم يقبل أبداً امرأة فى فمها، قبلها فى موضع آخر ، ولكنه لم يقبلها فى فمها.

وكان هناك رجل يحب الكلاب ، ويكره الناس .

وكان هناك رجل لم يكن يحب رؤية زوجته وهى تعمل بالمنزل ، وإنما أن تنهى زوجته عملها خلال فترة عدم وجوده ، وبعد ذلك تجلس ولا تتحرك .

وكان هناك رجل يخجل من كل شىء ، ورجل آخر عارٍ، وهو خجلان ، فقد كان يأكل خلسة .

وكانت هناك امرأة تتعجب من كل شىء ، فتنهض فى الصباح وتقول " آه ، انظروا إلى ، لقد نهضت !" وجعلتها النساء الأخريات تعدل عن ذلك .

وكان هناك شخص يجب أن يكون كل شىء لديه مغلقًا ومغطًى ومقفلاً بالمفتاح ومربوطًا ، ولم يكن بمقدوره إطلاقًا أن يرى شيئًا مفتوحًا وغير مغطًى وغير مغلق بالمفتاح وغير مربوط .

وكان هناك رجل يحب أغطية الرأس .

وكان هناك شخص ينظر إلى كل إنسان مباشرة فى عينيه .

وكانت هناك امرأة تنظف كل شىء من نفسها ومن الآخرين ولدى نفسها ولدى الآخرين .

وكان هناك شرطى كلما يقوم بالقبض على شخص يطلق سراحه ، وفى النهاية فقد وظيفته .

وكان شخص حساس، كلما يقول له أحد شيئًا يرد عليه بقوله : "ليس صحيحاً !" وربما كان أيضاً على صواب .

وكان هناك شخص يبغض أن يتكلم .

وكانت هناك فتاة تكره حبيبها حينما يكون بجانبها ، وتحبه عندما لا يكون بجانبها . وكانت هناك امرأة تشعر بالملل وهى مع زوجها ، وتشعر بالملل أيضاً وهى بدون زوجها . وربما تكون هى امرأة واحدة .

وكانت هناك فتاة وقعت فى حب أحد الأشخاص ورغم أنه رحل إلى أحد الأماكن فإنها لم تنسه على الإطلاق ، وحينما تزوجت بآخر كانت تفكر باستمرار فى ذلك الشخص . وتقريباً لم تخف ذلك .

وكان هناك طفل لم يكن يأكل خلال عام إلا المشملة .

وكان هناك متسول يعيد باقى النقود . فقد منحه أحد الأشخاص ديناراً فأعاد له نصفه ، وهكذا باستمرار .

وكان هناك رجل طيب ، وكل إنسان يتعجب منه .

وكان هناك شخص آخر .

لون الصدأ

كان لزوج وزوجته ابن وحيد، وكانا يرعيانه مثل رعايتهما للعين فى الرأس إلى أن قال لهما فى أحد الأيام هكذا :

– حبيبتى أمى وحبيبى أبى ، ها هو ، منذ صغرى وأنتما لاتتركانى أذهب وحدى إلى أى مكان ، وأنا تمنيت اليوم هذا الأمر بالذات . بقدر حبكما لى ، صدقانى إننى أيضًا أكن لكما الحب ، ولكن دعانى أقوم بقضاء يوم بمفردى وعلى النحو الذى أريده أنا .

وردًا على هذا شرعت الأم فى البكاء وأثار الأب جلبة ، إلا أن الابن ظل ثابتًا على رأيه ، وفى النهاية اضطرا لأن يتصرفا وفقًا لرأيه . ومنحه الأب دوكات من العملة الذهبية لكى يكون فى متناول يده عند الضرورة ، أما الأم فخبزت له فطيرة ووضعتها له وهى لازالت ساخنة تحت إبطه .

وانبلج الصباح بحيث لايمكن أن يكون أجمل من ذلك ، وتحرك الشاب فى سرور منحدرًا مع الزقاق ، ولكن ما أن تقدم قليلاً حتى لمح بائسًا مضى فى حياته كل شىء بالمقلوب بحيث إنه فى النهاية، حتى

ذلك الذى كان بمقدوره أن يتحول إلى خير لم يعد يشاء أن يتحول إلى خير . ولما تبادلا النظرات تملكتهما رجفة لأن السعيد رأى البائس ، والبائس رأى السعيد . وعلى الفور انضم البائس إلى الشاب وأخذ ينثر كل مرارته على روح الشاب وكأنه يعرفه من قديم الزمان إلى أن أمات البهجة الأخيرة فى نفس الشاب وبعد ذلك فقط رحل عنه وهو راضٍ.

وجاء بالمصادفة هنا رفيقان فلما رأيا الشاب وهو يبكى أخذا يواسيانه بالحديث ، وهو تقبل هذا بكل ترحيب .

وقال الشاب :

– أنتما أفضل رفاقى ولا يوجد شىء لن أفعله من أجلكما، وهاهى لكما الفطيرة التى خبزتها لى أمى، وها هى لكما النقود التى أعطاها لى أبى .

وردعليه الرفيقان :

– لن نقبل فطيرتك ولانقودك ، بل نحن نريد أن نرى ما إذا كنت صاحبًا حسنًا لنا كما نحن بالنسبة لك .

وأخذا يأمرانه بأن يفعل هذا وأن يقوم بذلك ...

وأطاعهما الشاب بسرور فى كل شىء، ولكن فى النهاية أوقفه ألم كبير فى صدره وتوقف ، وعندئذ تركه هذان الاثنان أيضًا دون تحية.

وكان الوقت ظهراً حينذاك فأخرج الشاب الفطيرة من صدر ثوبه وبدأ يأكل. ورأى ماسحو الأحذية هذا فأكلوا منه الفطيرة . وذهب الشاب وهو جائع إلى الحقل .

وإذ هناك فى الحقل فتاة هاربة من منزلها ، وحينما لمحت الشاب جميل المنظر أخذته ثم تمكنت منه فى الظل الظليل والحشائش الطويلة.

وضبطهما أبوها متلبسين فدفعهما كليهما إلى منزله . وكان هؤلاء من أتباع ديانة أخرى . وأصبحوا فى حيرة من أمرهم ، وأجبروا الشاب على تغيير ديانته والتزوج بالفتاة . وبدل الشاب ديانته لكى يتزوج من الفتاة ولكنها كانت عابثة فلم ترغب الآن .

وفى ذلك الحين كان الليل قد أرخى سدوله فهرب الشاب إلى أبيه وأمه ، إلا أن اللصوص هاجموه فى الطريق وضربوه وسلبوا منه العملة الذهبية الدوكات، ووصل إلى منزله يجرجر خطاه وهو أشبه بالميت .

ولا ينبغى الحكم على ما حدث بعد ذلك . وهنا تنتهى هذه الحكاية . وماذا كان هذا الشاب سيفقد خلال يومين ما دام قد فقد الكثير خلال يوم واحد ، فليخمن كل شخص بحرية فى هذا الأمر .

غرامة الأفاعى الذهبية

كان هناك ذات مرة رجل ، وكانت له ابنة فاتنة تنتظر الزواج، ولكن كلما يسأله أحد الأشخاص عن أكثر ما يحب كان يجيب بأنه يحب على الأكثر الجذع المتعفن الموجود فى فنائه .

وفى إحدى الليالى تسلل بعض الأشخاص واقتلعوا الجذع وإذ هناك بأسفل الجذع يوجد عش ذهبى وبه تسع أفاعٍ ذهبية .

وعلى وجه السرعة قفزت الأفاعى وقيدت كل أولئك الرجال الموجودين من أقدامهم وأيديهم على شكل حلقة .

وأوقد صاحب الدار شعلة، وخرج وهو هكذا يرتدى فقط ثوبه الداخلى لكى يرى من هذا الذى فى جوف الليل البهيم يصرخ فى فنائه ويستغيث . وما كاد أن يطل حتى صاحت الأفاعى قائلة .

أنيابنا سامة .

طويلة كالمخارز .

كانت هنا جنية .

والآن اختفت .

ولما أدرك صاحب الدار ما حدث أصدر صفيراً بأقوى استطاعته ، فانطلقت تلك الأفاعى مرتفعة إلى أعلى والتفّت حول الشعلة واحترقت فى الحال . ولكن تكوم ساقطًا على الأرض الرداء الذهبى لكل أفعى من الأفاعى .

وزال الخوف عن أولئك الرجال الذين اقتلعوا الجذع. وفى الأول كدسوا ذلك الذهب الموجود بعش الأفاعى فى صدور ثيابهم بقدر ما استطاع كل منهم أن يخطف ، وبعد ذلك ركعوا تحت أقدام صاحب الدار لكى يوزع بينهم أيضًا تلك الأردية . وبعد أن استولوا على الثروة وتنفسوا الصعداء قليلاً جاء بالصدفة شخص وقال :

– ياصاحب الدار ، لا تغضب منا ! هذه معجزة هائلة لا يعى أحد مثلها ، وهذا الكنز ضخم بحيث إنه لايمكن أن يكون ملكك وحدك ، حتى ولو كانِ هذا الجذع قد نبت على قمة رأسك !

وقال صاحب الدار :

– لا يهمنى ذلك الكنز ، ولكنكم . جعلتمونى معوقًا !

ورفع يده ، فإذا بيديه ينقصهما تسعة أصابع ، فقد أخذت كل أفعى إصبعًا .

وثانية قال الشخص الذى تحدث من قبل :

– أنت ، إذا استطعت ، اجعله حلالاً، أما نحن فلا نستطيع تقديم مساعدة لك !

وقال صاحب الدار :

– ولا يهمنى أنكم جعلتمونى معوقًا ، بل إنكم حولتم ابنتى الفاتنة إلى قبيحة وبعد أن قال ذلك نادى على ابنته فخرجت ، إلا أنها الآن قبيحة تمامًا .

ولما رأى هذا أيضًا أولئك الرجال لاذوا بالفرار، أما صاحب الدار فقد جلس على ذلك الجذع وظل جالسًا عليه طوال الليل كله. ولم ينهض من عليه ولا فى يوم الغد ولا فى بعد الغد ، بل ظل جالسًا عليه إلى أن تحول هو نفسه إلى جذع .

جلسة الحكماء

ذات مرة التقى بعض الناس وأخذوا يتحدثون عما هى أفضل الخصال البشرية .

فقال الشخص الأول إن أعظم خصلة بشرية هى الشجاعة ، إلا أنه ذكر أن الشجاعة لايمكن وصفها بشىء، والشىء الوحيد الذى يمكن قوله وإضافته بجانب الشجاعة هى أن الحظ يرافق الشجعان .

وأخذ هذا الشخص يعلى من شأن الشجاعة بشكل أفضل وأكثر بقدر استطاعته ومعرفته .

وقال الشخص الثانى بعد ذلك إن أفضل سمة بشرية هى أن تكون صالحًا وإنه عن طريق الصلاح فحسب يمكن هزيمة الشر .

ورفع من شأن الصلاح إلى عنان السماء ، ولو كان بمقدوره لفعل أكثر من ذلك .

وقال الشخص الثالث إن أفضل صفة بشرية هى التوق إلى الجمال، وإن الجمال شىء رائع وإن جميع الناس فى الآجل أو فى العاجل سيحنون رؤوسهم أمام الجمال إما طواعية وإما هكذا .

ثم أخذ هذا الشخص يرفع من شأن الجمال إلى العلياء ، ورفعه ورفعه ثم توقف .

وقال الشخص الرابع إن أفضل ميزة بشرية هى الصداقة، أما الشخص الخامس فقال إنها ليست الصداقة بل الزمالة .

وقال أيضًا السادس إن أفضل خصلة بشرية والخصلة المرغوبة على الأكثر هى البطولة، وراح يجمل الحكايات عن الأبطال وعن الأعمال البطولية بحيث إنه كان من قبيل البهجة الإنصات إليه .

وقال الشخص السابع إن أفضل ميزة بشرية هى السخاء .

وقال الشخص الثامن إنها العفة .

وقال الشخص التاسع إنها الحب، وإن الحب فضيلة بشرية لايُعْلَى عليها، امتدحها الشعراء من جميع الشعوب منذ قديم الزمان وإنهم سيمتدحونها طول العمر، وذلك لأن الحب يغمر كل شيء ، النبات والحيوان وكل الجنس البشرى .

وقال الشخص العاشر إن حب الوطن بالنسبة له هو أفضل خصلة للمرء .

وكان أيضًا من باب السرور الاستماع إليه .

وبعد ذلك طرح الشخص الحادى عشر الشرف والكرامة ، وأخذ يعلى من شأن هاتين الخصلتين إلى مصاف النجوم ، وهب كثيرون لمساعدته بالكلمات .

وقال الشخص الثاني عشر إن جميع الخصال المذكورة تستحق كل مدح ودعم، ولكن بالنسبة له أكثر الخصال البشرية قيمة هى بشاشة الخلق .

وكان الشخص الثالث عشر بينهم أحد الأجداد، فقال إن أكثر الميزات البشرية قيمة بالنسبة له هى التواضع .

وسألوه :

– ماذا يمكن أن يماثل هذا التواضع ؟

فأجاب الجد بصوت خافت قائلاً :

– التواضع هو أن تعرف أين مكانك ؛ لأن القيصر والشحاذ أيضًا يمكن أن يقفا بجانب بعضهما ، وأن يتحلى كل منهما بالفضيلة نفسها.

ولكن لم يكن بمستطاع أحد منهم أن يتفق مع الجد فثارت جلبة صاخبة بحيث إنهم اضطروا إلى فض الجلسة .

ثلاث دوكاتيات بالحلال

كان هناك شاب وتزوج ، إلا إنه اضطر إلى الهجرة للعمل ، ورحل بعيداً عن داره لكي يقوم بالخدمة عند أحد أصحاب الأملاك وقام بالخدمة لديه عشرين عاما . ولما مضت عشرون عاما طلب راتبه ، فسأله صاحب الملك بقوله :

- هل تريد ثلاث دوكاتيات بالحلال ، أم تريد ثلاثة أكياس من الدوكاتيات بالحرام ؟

وفكر الرجل وأعمل فكره وفى النهاية قال :

- أعطنى ثلاث دوكاتيات بالحلال .

ومنحه صاحب الملك .

ورحل الرجل وصادفه الليل فجأة فى طريق السفر فذهب إلى أحد الديار الواقعة بجانب الطريق لكى يقضى فيه ليلته، ودخل وألقى السلام ، ورد عليه صاحب الدار بأن المبيت عنده بدوكاتية، ووقع فى حيرة من أمره، ثم أعطى الرجل دوكاتية وهنا، فى هذه الدار ، كان يجلس القرفصاء بالقرب من المدفأة رجل مسن .

وسأله صاحب الدار قائلاً :

- هل ترى هذا الرجل المسن ؛ الكلمة الواحدة منه لك تساوى دوكاتية !

فقال الرجل متعجباً من هذا الأمر :

- أكلمة واحدة تساوى دوكاتية !

وفى النهاية لم يستطع أن يقاوم ، واقترب من ذلك الرجل المسن وأعطاه دوكاتية . فأخذ الرجل المسن الدوكاتية وقال له :

- لا تذهب يابنى إلى المكان الذى لاتقدر على الذهاب إليه !

وتملك الرجل العجب من أن هذه الكلمة تساوى دوكاتية ، وأخرج أيضاً تلك الدوكاتية الأخيرة التى بقيت معه وأعطاها إلى الرجل المسن . فأخذ الرجل المسن الدوكاتية أيضاً وقال :

- حينما تعتزم القيام بعمل من الأعمال فليمر عليه الليل !

وعندما أصبح الصباح فى الغد واصل الرجل سفره دون مليم واحد وصادف فى طريقه نهراً ، وماكاد يهم بأن يطأه حتى تذكر ماقاله له الرجل المسن : " لاتذهب يابنى إلى المكان الذى لاتقدر على الذهاب إليه" . وفى هذه اللحظة جاء بالمصادفة أحد الطغاة المتأنقين يعتلى صهوة حصان أدهم .

وسأله بقوله :

– ما الذى تفعله هنا ؟

وأجابه الرجل قائلاً :

– ها أنذا أبحث عن معبر لكى أجتاز النهر .

فضحك الطاغى وقال :

– إيه ، أى معبر ، انظر إلىّ !

وفى التو دفع الجواد إلى الماء ، وما كادا يتعمقان فى النهر حتى حملهما التيار وجذبتهما الدوامة وفى طرفة عين غرق الطاغى بينما سبح الجواد على نحو ما ، ولديك ما تراه على الجواد ، زكائب مليئة بالذهب والدوكاتيات . واعتلى الرجل جيداً صهوة الجواد ، وتوجه إلى داره .

ولكنه لم يشأ أن يدخل على الفور إلى داره ، بل وقف عند النافذة وكان لديه ما يشاهده ، فزوجته تربت على رأس أحد الشبان . فأخرج المسدس من حزامه لكى يقتلهما معًا ، غير أنه تذكر ما قاله له الرجل المسن : " حينما تعتزم القيام بعمل من الأعمال فليمر عليه الليل ."

وهب ذاهبًا إلى جاره وذكر له من هو وما الذى رآه ، وقال له الجار إن ذلك الشاب الذى تربت زوجته على رأسه هو ابنه المولود من صلبه .

وفى الغد أقيم هنا حفل كبير وفرح ، وعاش هذا الرجل وهذه المرأة وابنهما هذا عيشة طيبة وسعيدة إلى نهاية حياتهم ولا يصح إلا الصحيح ، وفى كثير من الأحيان كانوا يذكرون الثلاث دوكاتيات الحلال.

الجنية والأعزب

كان ياما كان هناك شاب متقدم فى السن، لم يتمكن على الإطلاق من الزواج .

وكائنة من كانت الفتاة ، فلم تناسبه أية واحدة ، وكان يمتلك كل شىء يحتاج الرجل إلى امتلاكه ، وزيادة على ذلك ، ولكنه كان يجد فى كل فتاة عيبًا .

وكانت تشاهد هذا الأمر الجنية ، فتملكها الحزن قليلاً، وجهزت الجنية نفسها مثل أية فتاة ، وهبطت إلى هنا ، إلى تلك المدينة الصغيرة التى كان يوجد فيها هذا الشاب وأظهرت له نفسها ، وعلى الفور لفتت انتباهه ، فقال لأهله إنه يريد أن يتزوج من هذه الفتاة، بالذات من هذه الفتاة . وابتهج بذلك الأمر أهله أولئك ابتهاجًا كبيرًا ، وفى التو ذهبوا لكى يبحثوا عنها ويخطبوها ، أما الجنية فقد أظهرت نفسها على أنها بائسة بلا أب ولا أم وليس لها أى قريب فى أى مكان ، بالضبط على النحو الذى يناسب ذلك الشاب . وقالت أيضًا إن اسمها كذا وكذا ، وهذا أيضًا أعجبه .

وكل شىء سار على هذا النحو .

وهو لا يشرع فى فتح فمه لكى يطلب شيئًا إلا وقد أعدته له . وفى النهاية ، بسبب الجمال والرفاهية وتمام كل شىء أصيب هذا الرجل ، اللهم احفظنا ، بمس من الجنون ، وأخذ يتجول فى العالم وعقله فى راحة على هذا النحو .

أما الجنية فكما جاءت رحلت كذلك .

الجميع ماتوا

كان هناك رجل متقدم في السن وتوفى ، وحينما رأت زوجته هذا تصدع قلبها فماتت هى الأخرى . وكانت لها ابنة متزوجة ، جميلة للغاية ، ولكنها معتلة الصحة ، فلما سمعت بذلك سقطت فى المكان الذى تصادف وجودها فيه وعلى الفور لفظت أنفاسها ، وكان والد هذه الابنة ووالد زوجها ، أيضًا ، على صداقة منذ الصغر . وكان هذا فى وقت الفجر تقريبًا ، وما كادا يجلسان عند وقت الظهيرة على المائدة حتى سقطت الملعقة من يده وصعدت روحه هو أيضًا ، وهذا الذى توفى أخيراً كان منزله هنا ، بأسفل قليلاً . وكان بأعلى ، عاليًا على التل ، منزل ابنه الأكبر الذى كان متزوجًا وتوفيت زوجته .

وكانت أمه العجوز تهرول صاعدة إلى أعلى ، ولكن فى منتصف الطريق خانها قلبها فماتت هى الأخرى في ذلك المكان ، وحملها أولئك الأشخاص الذين تصادف وجودهم هنا إلى ابنها عند البوابة ، وعندما رأى الابن هذا الأمر دخل على الفور إلى منزل أخيه الأصغر الذى تملكه العجب لأنهما كانا على خلاف منذ فترة طويلة ولم يكن يزور أحدهما الآخر ، وقال الأخ لأخيه إن أباهما وأمهما أيضًا قد ماتا ، وكذلك حماه

وحماته وزوجته . والأخ الأصغر ، ظنًا منه أن أخاه يمزح ، أمسك بالبلطة فانتفض أخوه الأكبر متراجعًا إلى الوراء وتعثر وسقط برأسه على أحد الأحجار وأصبح ميتًا فى مكانه، وعندما رأى الشاب ذلك شطر على الفور بتلك البلطة رأسه بنفسه . وخالة هذين الاثنين ، أخت والدتهما ، وهى هكذا تقريبًا مريضة بأعصابها قليلاً ، ولكنها غاية فى الرقة ، أرادت أن تقطع شرايينها بيد أنها لم تقدر ، بل أخذت لترًا من روح الخل وشربته وبينما جاء أولئك البعض لحملها كانت قد قضت نحبها، وفى نفس هذا المكان كان يوجد شخص مغرم بها إلى حد كبير ، ولكنها لم تكن راغبة فيه . وظلت رافضة له عشر سنوات . وفى النهاية وعدته بنفسها فى الظاهر ، إذا ما اشترى أحد العقارات ، وهذا ما لم يكن هذا الشخص بقادر عليه على الإطلاق ، ووعدت بهذا فقط لكى ترفضه . ولكن ، إما من أجل الحب أو من أجل العناد ، مكث هذا الشخص فى أحد الأماكن اثنتى عشرة سنة وأتى بالكثير من الأحوال وأقنع أحد الشركاء بأن يتشاركا وكان لا يزال ينقصه القليل من المال لكى يشترى هذا الذى عقد النية على شرائه وإذ بهذه تسم نفسها . وهرع بعض أصدقائه بعد معرفتهم بما حدث من أجل تقديم العون له ، إلا أنه حينما سمع بما حدث صوب إليهم بندقية الصيد وطاردهم كلهم ، وفى تلك اللحظة جاءه ذلك الشريك لكى يرجوه ويتوسل إليه . ولما لم يساعده ذلك أخذ يصيح ويهدد ويشد البندقية من يده . وانطلقت البندقية وأصابت الاثنين بجراح قاتلة .

وهكذا فى يوم الغد قام أهل الأحد عشر متوفياً بنقلهم إلى المقابر.

ونظراً لأن المطر الشديد كان يهطل طوال الليل كله فقد خرج عدد قليل منهم لتشييع الجنازة، وأيضاً هذا العدد القليل غرق ولقى مصرعه بسبب انهيار السد المشيد على البحيرة عالياً بأعلى قريتهم، وجرفت المياه كل المقابر وأطاحت بها .

الثور فى الكُتّاب

كان الأولاد يذهبون إلى الكتّاب . إلا أن شيخهم كان صارماً .

واتفقوا عندئذ على أن يقتلوه وحددوا أدق التفاصيل عن كيفية تنفيذ ذلك وإذا بواحد من بينهم طلب الكلمة وقال :

– ما هى الفائدة إذا ما قتلناه ، سيأتون لنا بشيخ آخر ربما أشد منه سوءاً . ولكن لنقتل رقيب الكتّاب .

وماكادوا يرتبون لذلك وإذ بثور يدخل الكتّاب، فقد أفلت من قيده، وفى إثره جاء ذلك الشخص صاحب الثور، وعلى الفور دفعه إلى السوق .

وأخذوا يسألونه :

– لماذا ستذهب بالثور إلى السوق ؟

فقال لهم :

– إذا ما دخل الثور ذات مرة إلى الكتّاب فلن يضع النِّير على رقبته بعد ذلك أبداً !.

صورة القيصر

كان فى غابر الزمان قيصر ولكنه مصاب بعور فى عينه اليسرى . ولكنه ليس فحسب مصابًا بعور فى عينه اليسرى بل كانت أيضًا ذراعه اليمنى أقصر، ولكنه ليس فحسب مصابًا بعور فى عينه اليسرى وليس فقط ذراعه اليمنى كانت أقصر بل علاوة على ذلك كان أعرجَ أيضًا .

واستدعى رسام القصر لكى يرسمه ويعد له صورة كذكرى يتركها للأحفاد وقال له القيصر :

أرسمنى بالضبط كما أنا .

ووقع الرسام فى حيرة من أمره، ورسم صورة للقيصر كما هو بالضبط مصاب بعور وعرج وإعاقة فى ذراعه ، غير أن القيصر لما رأى الصورة انفجر غاضبًا وأمر بإعدام هذا الرسام وتحطيم الصورة.

واستدعى القيصر رسامًا آخرَ وقال له الشىء نفسه، ولكى يحافظ هذا الرسام على رأسه رسم القيصر بصورة جميلة : بالعينين والذراعين

والساقين . بيد أن القيصر عندما رأى الصورة ثار غاضبا جداً وأكثر من غضبه فى المرة الأولى، وأمر بإعدام الرسام وتحطيم الصورة .

وبعدئذ استدعى القيصر رساماً ثالثًا فقال له وأمره بنفس الأشياء ، ولما أنهى هذا الرسام الصورة قام القيصر بتقبيله على وجنتيه ومنحه مكافأة كبيرة .

وقد رسم هذا الرسام القيصر على النحو التالى :

كأن القيصر راكعًا فلا يُرى أنه أعرج ، وثبت مؤخرة البندقية على كتف الذراع الأيمن فلا يُرى أن الذراع أقصر ، وأغلق عينه اليسرى وكأنه يصوب على الهدف .

العقرب

جاء أحد العقارب إلى البوسنة وقام بالرقود على بعض الحقول. وكانت هذه أنثى العقرب ، وكانت تبحث عن مكان لكى تضع فيه بيضها . والبيض عند العقارب به برقشة ، وتضعه مرة واحدة كل سبعين عامًا وهذا فى أغلب الأحوال فى شق من شقوق أية صخرة متصدعة .

وأولئك الذين جاءوا على الفور لكى يروا لم يكونوا على علم بأن هذه أنثى العقرب وأنها تضع هذه البيضة ، وبالطبع لم يكن بمقدورهم أن يطلوا تحت ذيلها . وفيما عدا ذلك فلا تختلف العقارب عن بعضها عند النظر إليها .

غير أن الخبر عن هذا الأمر شاع فى طرفة عين .

وقال على وجه السرعة الأشخاص الأكثر بصيرة إنه لا توجد عقارب ولا يمكن أن تتواجد ، أما أولئك الذين رأوا العقرب فقد أقسموا أنهم رأوه وعلاوة على ذلك مزقوا ملابسهم من الغضب وألقوا بأغطية رؤوسهم فى التراب وداسوا عليها بأقدامهم فى حنق للتدليل على كلامهم.

وتشاجر كثيرون مع بعضهم حول هذا العقرب ، وأولئك الذين كانوا يقولون بعدم وجود العقرب وإنما هذا اختلاق وكذب لم تكن بهم رغبة فى الذهاب لرؤيته ، وقالوا لأولئك الذين رأوه إنهم مخابيل ، وهذه إهانة سواء أرقدت العقربة أم لم ترقد لوضع بيضتها، وتقطعت كثير من الصداقات .

وبعض أولئك الذين ذهبوا لرؤية العقربة قالوا بعد ذلك إنه تهيأ لهم فحسب .

والبعض تأكدوا بعيونهم بالفعل أيضًا .

ونظرًا لأن العقارب لا تهبط من السماء بالضبط كل يوم، فلم يكن يجرى الحديث إلا عن هذا ولا عن شىء آخر سوى هذا .

ومن بين أولئك الذين رأوا العقربة كان هناك أشخاص رعاع ، وكان هناك أيضًا أشخاص طيبون .

وهكذا انقسم الناس وتجادلوا طوال اليوم حول ذلك إلى أن ذهب إلى الوالى أولئك الفلاحون الذين رقدت العقربة فى حقولهم لكى يشتكوا ويطلبوا المساعدة ، وقالوا :

– الأمر هكذا وهكذا . ونحن فلاحون أميون ، ونحن لا نعرف هل توجد أم لا توجد هذه العقربة ، ولا يهمنا ذلك . بل جهز أنت جيشًا واطردها ، لأنه حان وقت الحرث بالنسبة لنا .

وهيأ الوالى حوالى ثلاثة آلاف جندى وسحب حوالى ثمانية مدافع.

وحينما وصلوا إلى العقربة أحاطوا بها من الجهات الأربع وما أن تهيأوا للضرب عليها حتى نهضت وهربت وبقيت خلفها تلك البيضة.

والبيضة مثل البيضة لم يكن من الصعب تحطيمها بالمدفع ، فقاموا بتحطيهما وسمدوا الحقول ، ومن قشرتها صنع أولئك الناس هناك - بعد ذلك بفترة طويلة - مخارز وأمشاط وأغماد جيدة .

الرجل المصاب بالصداع

ذات مرة كان يوجد فى إحدى المدن الصغيرة أحد الرجال وأصيب بصداع فى رأسه .

وبمجرد أن سمع جاره بذلك نهض على الفور لكى يقوم بزيارته ، وفى طريقه قال لأول شخص صادفه فى طريقه إنه ذاهب إلى هذا المكان وأن ذلك الرجل أصيب بصداع فى رأسه .

وهذا الأخير ذهب إلى منزله وأبلغ زوجته ، وقامت زوجته بمناداة جارتها وأبلغتها أن ذلك الرجل الموجود بأعلى ، فى المنطقة التى تعلو السوق قد أصيب بصداع فى رأسه ، ثم توجهتا على وجه السرعة لزيارته .

وحينما قابلتا بعض الأشخاص ، سألوهما هؤلاء عن المكان الذى تتوجهان إليه فأجابتا بصوت عالٍ أن الأمر كذا وكذا ، وتوجه هؤلاء أيضًا معهما .

وعند وصولهم إلى هناك ، إلى ذلك الرجل المصاب بصداع فى رأسه ، وجدوا الدار كلها مكتظة بالرجال والنساء ، وبالمسنين والشباب أيضًا :

وكـان الرجل المصـاب بصـداع فى رأسـه قـد قطع شـرائح من البطاطس النيئة وربطها على جبهته ، ويجلس حينًا وينهض حينًا آخر حسبما يخطر على باله فى أى وقت . وحينما يسأله أحد عن شىء فإما يجيب وإما لا يجيب .

غير أنه لم يمض وقت طويل وقد تجمعت كل هذه المدينة الصغيرة . وأولئك الأشـخـاص الذين لم يتـمكنوا من الدخـول انتظروا فى الفناء ، والبعض انتظر حقًا أمام الفناء . وبمجرد أن جاء الرجل الأخير من هذا المكان ، سواء أكان مدينة صغيرة أو قرية ، نزع فى الوقت نفسه ذلك الشخص المنديل من على رأسه وقال :

– أيها الناس ، لم تعد رأسى تؤلمنى !

ولما قال هذا تفرق كل أولئك الناس وذهب كل شخص إلى عمله .

القيصر العادل

كان ياما كان فى سالف الزمان قيصر عادل إلى حد كبير لدرجة أنه لم يرغب فى أن يضع لقمة فى فمه ما لم يبلغه النقلة السريعون للأخبار بأن آخر فقير فى إمبراطوريته قد أنهى تناول طعامه . ونفس الأمر عند طعام الإفطار وعند طعام الغذاء ، وهكذا أيضًا عند طعام العشاء .

وحينما يقيم عملاً خيريًا ينشئ صنبورًا عموميًا للمياه ، أو يشيد جسرًا أو استراحة للمسافرين أو أى شىء آخر، فإنه يسأل أولاً عما إذا كان لدى أحد أى اعتراض .

وعندما يحبس أحد المذنبين يقوم بإطلاق سراحه على الدوام .

وفى إحدى المرات جهز القيصر جيشًا ضخمًا للدخول فى حرب ، وإذ بهم يندفعون إلى خيمته يبلغونه بأنهم عثروا على أحد غير الراضين ، فأعاد القيصر كل ذلك الجيش وأبلغ ذلك الإمبراطور الذى يعاديه بأن ينتظر قليلاً وبأن يوم الحرب لن يأتى مالم يعرف سبب عدم رضاء رجل فى بلده .

وجاءوا - اللهم احفظنا - بذلك الرجل الغريب . وسأله القيصر قائلاً :

- هل أنت ذلك الشخص غير الراضى ؟

فأجابه هذا بقوله :

- نعم ، أنا هو .

وسأله القيصر :

- ولماذا أنت الوحيد غير الراضى فى كل إمبراطوريتى ؟

وأجابه ذلك الرجل قائلاً :

- أنا نفسى لا أعرف .

وعندئذ استدعى القيصر رجال حاشيته وحكماءه لكى يتحدثوا مع هذا الرجل فربما يجعلوه راضيًا على نحو ما ، ولكى يعرضوا عليه الهدايا من كل نوع ، وأن يسمحوا له بدخول جناح حريم القيصر ، وأن يأخذ لنفسه أية حسناء من حسناوات القيصر زوجة له ، وبعد فترة من الزمن تملك هذا الرجل الخجل بسبب كل ما عرضه عليه القيصر وفى النهاية قال إنه هو أيضًا راض فى الوقت الحاضر .

وجهز القيصر مرة أخرى جيشه وما كادت كل الأبواق تدعو إلى القتال ويخرج الجيش حتى جاء مرة أخرى ناقل الأخبار إلى القيصر فى فى خيمته لكى يبلغه أنهم عثروا على شخص آخر غير راض .

وقال القيصر :

- أحضروه !

ولما قاموا بإحضاره قال :

- أنا يا مولاى القيصر غير راضٍ لأن الجميع راضون !

وضرب القيصر على جبهته وقال :

- كنت أنتظر منك هذا ! من الآن ستبقى باستمرار بجانبى .

وجبة التنين

كان فى سالف الزمان تنين فى البوسنة ، ولكنه كان يطير فى العالم طولاً وعرضاً ..

وحينما طار لأول مرة لم يأت لمدة ثلاث سنوات ، وفى السنة الرابعة فحسب تلاشت قوته فعاد لكى يتغذى بالقوة من وطنه .

وكان ضخماً، وحينما يبسط جناحيه فحسب فلا أحد يعرف عدد الأمتار التى يمتد إليها اتساعهما، وكان الدب آكل الكمثرى يبدو بين براثنه مثل الفأر بين مخالب البومة ، أو الأرنب بين مخالب النسر .

وبمجرد أن هبط كان عليه أن يأكل أولاً كل الحشائش الموجودة فى الحقل ، بالضبط مثل أى ثور ، وبعد ذلك قرض بأسنانه جسرين أيضاً لكى يستطيع دون عوائق أن يرتوى من ماء نهر درينا .

وبعدئذ دعا كل الناس لكى يقدموا أمامه ضحايا أحياء .

وفى البداية قدموا له ثمانية جبناء وثلاثة عشر خائناً وجاسوسين.

وأكلهم التنين .

وبعد ذلك جاءوا له بقطيع من السارقين واللصوص .

وأكلهم التنين .

ثم أتوا له بثلاثة من العاطلين وثلاثة من المتملقين وثلاثة من المحتالين وبتنبل واحد .

وأكلهم التنين .

وبعد ذلك جاءوا له بتسعمائة شخص أنكروا ما قالوه، وهنا جعل التنين من كل عشرة أشخاص لقمة واحدة ، ولكنه اضطر إلى أن يرتوى بنبيذ قوى .

وبعدئذ أتوا له بستة أشخاص متكبرين ، كلهم الواحد أشبه بالآخر ، رغم أنهم من خمس ديانات ومن أربع مناطق .

وأكلهم التنين .

. وأخذ التنين يصرخ قائلاً :

– هل هناك من مزيد ؟

وحينما سمع أنه لا يوجد ارتفع من على الأرض واختفى بين السحب .

حكاية امرأة

ذات مرة كانت فى البوسنة امرأة تشعر بالسرور من كل شىء : المطر يسقط تشعر بالبهجة ، والشمس تسطع فتشعر بالسعادة ، وكانت هكذا سليمة الصحة وشريفة . وليست جميع النساء الأخريات على حد سواء ، أما هذه فهكذا !

وفى الليل كانت تحلم أحلامًا جميلة وغامضة ، وفى أثناء النهار إذا ما قال لها أى شخص من الأشخاص شيئًا قبيحًا فإنها تتعجب فحسب ، وإذا ما سرق منها أحد الأشخاص شيئًا فإنها أيضًا تندهش فحسب، وإذا ما ارتكب أى شخص من الأشخاص ظلمًا فى حقها فإن هذه المرأة تتملكها الدهشة فحسب، وبعد ذلك كانت تبتهج ثانية لأنها على قيد الحياة وبصحة .

وكان يلف حولها شخص عملاق ويدبر طوال اليوم كيف يتزوج بهذه المرأة، وفى النهاية حدث هذا وتزوجا . وإذ بهذا العملاق قد حفر حفرة فى الأرض ، وغطاها من أعلى ، وجاء بامرأته إلى هذه الحفرة. وسألته زوجته :

- لماذا أيها البائس جئت بى إلى هنا ؟ أليس لديك منزل ؟

فقال :

- اصمتى ، لا تتكلمى ، هذا هو منزلك !

وهنا ، فى هذه الحفرة ، أرض جرداء وعتمة ولايوجد من الأثاث إلا قطعة من الشمع ، وحتى هذه الشمعة يحفظها العملاق فى جيبه . وحينما يريد أن يهبط إلى الحفرة يشعل الشمعة ، وعندما يريد أن يخرج من الحفرة يطفئها .

وجلست المرأة القرفصاء فى هذه الحفرة ثم فاض بها ورفعت يديها وأخذت تستغيث قائلة :

- أيها الناس ! ... قلبى يرتجف ! ...

وسمع الناس هذا فاقتربوا من الحفرة لكى ينقذوها، وفى نفس اللحظة جاء العملاق مهرولاً من أحد الأماكن . وأخذ يصيح ويصرخ قائلاً :

- هذه زوجتى !

ومر من هنا الأمير الذى كان عائداً من رحلة صيد ، وحينما فهم حقيقة الأمر دفع العملاق إلى الحفرة ، وقاد المرأة إلى قصره لكى يعيش معها ولكى تنظف له القصر .

وشـعـرت المرأة بـالسعـادة لأنـهـا على قـيـد الحـيـاة ، ولم تنقطع عن الإحـسـاس بالسـعـادة . ونسـيـت على وجـه السـرعـة تلك الحـفـرة وذلك العملاق وكأنـهـمـا لم يكونا موجودين على الإطلاق . وحـينـمـا نـهـضت فى الغد لكى تقوم بتنظيف القصر وجدت به ميـاهًـا ودماءً . وأخـذت تجـفف وتنظف ولكنها لم تنه تنظيفه على الإطلاق .

وتصـادف مرور شـخص من هنـا ، ليس جـمـيـلاً ولا قـبـيـحًـا ، ليس شـابًا ولا مـتـقـدمًـا فى السن ، وليس ثريًا ولا فـقـيـرًا ، ولكنه كان كـامل العقل فأخذ المرأة من يدها وهى تبعته وتركت قصر الأمير .

ومرة أخرى تملكت هذه المرأة البهجة ، يالحسن حظها .

وحينما حـان حين وفاتها ، ماتت وكـأنها استغرقت فى النوم ودفنها الناس، ومـا أن انتـهوا من دفنهـا حـتى نبت شـعـرها من القـبـر، وأمسك الناس بالمجارف ووضعوا هذا الشعر فى القبر ، إلا أن الشعر لم يسمح على الإطلاق أن تتـم ثانيـة مواراته بالتـراب . وفى النهـاية رفـعـوا أيديهم عن الأمر وتفرقوا .

العظمة العجيبة

كان ياما كان هناك رجل غير سعيد تمامًا، ولم يكن غير سعيد لهذا السبب أو ذاك ، وإنما هكذا، ولم يكن هو نفسه يعرف السبب.

وفى إحدى المرات توغل فى الغابة لكى يجمع الحطب ، وإذ به يسمع أحد الأشخاص يتأوه ويستغيث ، واقترب منه فوجد قزمًا مبرقشًا واقعًا فى ورطة .

وقال القزم . .

- خلصنى وسأحقق لك أية أمنية .

فخلصه الرجل ، وتوقف القزم عن التأوه وقال :

- حسن ، ماذا تتمنى ؟

أجاب الرجل قائلاً :

- لا شىء .

فقال القزم بصوت حاد :

– قل قبل أن أعدل عن رأيى.

فقال الرجل :

أريد ألا أكون غير سعيد !

وقال القزم :

عجبًا . وكيف ؟

– هكذا . إذا كان من الممكن ألا أكون موجودًا ، أو أن أهرب بأية طريقة من عدم سعادتى .

– أن تكون غير موجود على الإطلاق ، فهذا مالا أريده ولا أقدر عليه، وأن تهرب تمامًا فهذا أيضًا غير ممكن – لا مفر – ولكن من الممكن جعلك موجودًا فى بعض الأحيان وغير موجود فى بعض الأوقات . ومن الممكن أيضًا أن تطير . هل تريد ؟

وقال الرجل :

– هيا دعنى أجرب .

– أولا ستأخذ هذه البيضة وتضعها تحت إبطك أربعين يومًا ، وتدهن ذراعك بالعسل واليود والروث، وبعدما تمضى الأربعون يومًا خذ البيضة واكسرها وستجد بداخلها عظمة ، فإذا لعقتها مرة واحدة فستكون خفيًا ، وإذا لعقتها مرتين فستحصل على جناحين .

قال القزم هذا ثم اختفى . أما ذلك الرجل فقد فعل كل شىء كما قال له . وهكذا حدث .

فقد لعق مرة واحدة تلك العظمة، وإذ به يصبح خفيًا . هو خفى وكل ماعليه أيضاً، ولعقها مرتين فتمزقت ملابسه من على ظهره وبرز له جناحان ! ولوح قليلاً وطار على الفور .

وقال :

هذا حسن بالفعل .

وطار هكذا وهو خفى فوق السوق بمسافة بسيطة، وخطر بباله أن يظهر نفسه . ولعق تلك العظمة فلمحه الجميع . وتوقفوا وهم لا يصدقون عيونهم ، وحدث هرج ومرج ، وتعرف البعض عليه .

وصاحوا به قائلين :

اهبط إلى هنا !

وفقد أحدهم رشده وصوب بندقيته ، وبينما كانوا يحاولون إعادة الصواب إليه انطلقت البندقية وكادت تصيبه، وشاع الخبر وتدافع الناس، وذهب كثيرون إلى الغابة لكى يبحثوا عن القزم . ولكن حدثت المعجزة الحقيقية ؛ فقد كاد ذلك الرجل بعد فترة أن ينسى أنه غير سعيد، إلا أنه فى النهاية أصابه الضجر من كل هذا .

وقال :

- إننى لست فقط غير سعيد ، بل وجعلت من نفسى أضحوكة.

وأمام أعين الجميع ألقى بتلك العظمة ولم يرغب فى أخذها بعد ذلك .

وشرع الناس يلعقون العظمة ، ولكن لم يصبح أى منهم غير مرئى، ولم تبرز لأى منهم أجنحة .

واستمر ذلك الرجل يعيش على هذا النحو ...

البوسنى والمقدونى والسلوفينى

ذات مرة التقى شخص بوسنى ومقدونى وسلوفينى وتوجهوا إلى السفر .

وساروا هكذا ، وساروا . وحينما وصلوا إلى أحد الأماكن وجدوا شيئًا ، ليس بهذا وليس بذلك ، وبعد جهد جهيد هنا وهناك تخلصوا من الورطة على نحو ما ، وبدأوا قليلاً ثم توجهوا ثانية إلى السفر .

ولم يمض زمن طويل ، وفى نفس اللحظة قال ذلك الشخص البوسنى شيئًا إلى ذلك الشخص السلوفينى الذى رد أولاً على هذا ثم قال شيئًا إلى ذلك الشخص المقدونى، وقال الشخص المقدونى شيئًا إلى الشخص السلوفينى وهكذا باستمرار ، هذا يقول لهذا ، وذلك الشخص يقول إلى ذلك الشخص إلى أن فاجأهم الليل على الطريق .

وقضوا الليل . وإذ بشىء فى حوالى منتصف الليل ، اللهم احفظنا ، وهبوا على أقدامهم فى خفة ، فذهب أحدهم إلى إحدى الجهات ، وتوجه الثانى إلى جهة أخرى ، ومضى الشخص الثالث إلى جهة ثالثة . وفى الصباح فحسب ، حينما انبلج الصباح ، التقوا مرة أخرى .

وأسهب كل واحد منهم فى الحكى مع الآخر بقدر ما شاء . وقال الشخص البوسنى أنا رأيى هكذا ، وقال الشخص المقدونى أنا أرى هكذا ، وقال الشخص السلوفينى الشىء نفسه على نحو ما . ومرة أخرى مضوا فى سيرهم .

وساروا هكذا ، ساروا ، وإذ بهم ثانية يصادفون شيئًا ، وتبادلوا النظرات وتسمروا فى أماكنهم . وهب الشخص البوسنى إلى هذه الناحية ، وهب الشخص المقدونى إلى هناك ، وهب الشخص المقدونى إلى هناك ، وذهب الشخص السلوفينى فى إثرهما . ووقعوا فى حيرة من أمرهم . فقال الشخص البوسنى : أيها الأخوة ، الأمر على هذا وهذا النحو ، فتمسكوا ولا تستسلموا . وهب اثنان ولكن بقيا هنا لفترة طويلة إلى أن تخلصا من نصف هذه الورطة على نحو ما . ولا يتساهل الشخص البوسنى ، ولا يتساهل الشخص المقدونى ، وحقًا لا يتساهل الشخص السلوفينى أيضًا . ولا أحد يعرف إلى متى كانوا سيظلون هنا لولا أن أحد الأشخاص – ليس على هذا النحو وليس على ذلك النحو – جاء وهب لتقديم المساعدة لهم .

ولما حدث هذا ومضى قال الشخص البوسنى إنه ينبغى القيام بشىء ، ولكن لا ينبغى القيام بأى شىء ، وقال الشخص المقدونى نفس هذا الكلام ولكن بطريقة مختلفة قليلاً . أما السلوفينى فقد وافق موافقة كاملة على كلام الاثنين الآخرين فى كل شىء بعد تفكير وتردد لفترة

وجيزة ، ثم تحركوا مرة أخرى إلى السفر ولكن وقد أصابهم فى الوقت الحاضر العطش والجوع أيضًا إلى حد كبير .

وقعوا فى حيرة من أمرهم وإذ مرة أخرى يهبط عليهم خط من أحد الأماكن ويسدى لهم خدمة فوجدوا هذا وذاك من كل لون من ألوان الطعام والشراب أيضًا فأكلوا جيدًا حتى الشبع وشربوا حتى غشيتهم النشوة ، وبعدئذ تحركوا مرة ثانية إلى السفر .

صاحب الفم الذهبى

كان ياما كان ، كان هناك رجل ، وكان يسير ويتحدث وكلما جاء إلى أحد الأماكن يتوقف ويتكلم، ويتجمع الناس ويفغرون أفواههم وينصتون، وكانت لديه لحية وكان هكذا ، رجلاً جذابًا ...

ولما تحول ، بعد فترة وجيزة إلى التحدث ضد الحاكم فى تلك البلد سبب إزعاجًا للجميع، وسمع بذلك الحاكم فأرسل إليه رسولاً لكى يعيده إلى صوابه، ووصل الرسول وقال له من هو وما الأمر ومن الذى أرسله وسبب إرساله، أما ذلك الرجل فقد أخذ يحدثه حديثًا جميلاً ، واستماله تمامًا وبقى الرسول ولم يرجع إلى الحاكم ، فلم يعد يجسر على الظهور أمامه .

وفى هذا الحين أرسل الحاكم رسولين وإذ بذلك الرجل يجعلهما أيضًا يغيران رأيهما ويتحولان ضد الحاكم ، وسمع الحاكم بهذا فقال :

– سأذهب أنا ...

وذهب .

وأخذ ذلك الشخص يتحدث إليه ، ولكن الحاكم قاوم ، بيد أنه عاد إلى القصر وقد سيطر عليه الاكتئاب والهم ، وذلك الشخص بكلامه المعسول جعل الجميع فى القصر يغيرون رأيهم تدريجيًا، ولم يبق إلا الحاكم وحده فى القصر ورحل جميع الآخرين، وبعد ذلك قاموا بالهجوم على القصر ، إلا أن الرجل صاحب اللسان الطليق توقف وبسط ذراعيه وقال :

– ليكن ، سأفعل أنا ...

وذهب إلى القصر .

وأخذ يقول شيئًا للحاكم إلى أن سيطر على الحاكم أيضًا شىء بأن ينصت إليه ، وتملكتهما البهجة ولكن ما كان يقوله ذلك الرجل للحاكم كان لا يفهمه إلا الحاكم ، أما هؤلاء الذين جاءوا فلم يفهموا . واستدعى هؤلاء أشخاصًا آخرين ، وإذ بهؤلاء لا يفهمون أيضًا . وشرع أحد الأشخاص فى التكلم فقال له الحاكم ليسكته :

– ش ش ش ش ش ...!

ودب فى هذا الحين الانقسام بينهم ، وأخذ بعض منهم من البداية ينصت لما يستمع إليه الحاكم ولما يقوله ذلك الرجل ، أما البعض الآخر فقد أخذ ينقل الشائعات عن هذا . واكتظ القصر بالرجال والنساء وحدث هرج ومرج ، فنهض الحاكم وصاح قائلاً :

– من لا يريد أن ينصت فليخرج !

وفى هذا اليوم خرج منهم الكثير ، ولكن بقى منهم كثير أيضًا . وقال أولئك الذين خرجوا :

– انظروا إلى ذلك الرجل ، إنه لم يعد يتكلم كما كان يتكلم .

وقاموا بالهجوم على القصر لكى يستولوا عليه ، ولكن كانت هناك مقاومة من الداخل .

وعندئذ التزم ذلك الرجل الصمت على نحو ما ، ولم يعد يتكلم ، أما الحاكم فقد خرج إلى البوسنة للقتال ، وحينما عاد وجد بوابات القصر مدعمة من الداخل بدعائم فماذا حدث ؟ لقد أعلن الرجل صاحب اللسان الطليق نفسه حاكمًا فى القصر وأخذ يلقى بالقطران المشتعل والأحجار الثقيلة ويطلق السهام السامة ، وقتل بعضًا من أفراد الجيش الموجود أسفل الأسوار وشتت بعضه . وأصاب الحاكم بجراح قاتلة.

وبقيت بالقصر شقيقة الحاكم ، فتزوج بها الآن الرجل صاحب اللسان الطليق ظاهريًا ، أما هى فقد كانت مخادعة وكانت تمتص دمه ببطء . وأصابه الهزال والشحوب إلى حد كبير، وبعدئذ وكأنه على وشك الموت أخذ يناضل ويقاوم مقاومة شديدة ، وأصيب تقريبًا بالجنون ، وتملك المرأة الذعر فتساهلت قليلاً ، وما أن تساهلت حتى نهض وخنقها فى الليل البهيم على فراش الزوجية ، ولم يعرف أحد ، ولم ير أحد .

وبعد ذلك أراد أن يتخلص من الحكم أيضًا ، فيبدو أنه أصابه بالضجر ، ولكنه لم يفعل وتوفى وهو حاكم .

كل هذا على هذا النحو . ولكن فى الكتب الأخرى لايوجد فى أى مكان أى شىء عن هذا الأمر ولا يوجد لأن كل شخص اليوم يكتب الكتب وفقًا لهواه .

الرجل القلق

كان فى سالف العصر رجل صادق ، وكابد مرة بسبب صدقه ، وعانى مرة ثانية بسبب صدقه ، وأصيب بألم مرة ثالثة ، وعندئذ تحول فى النهاية إلى الكذب .

ولكنه بمجرد أن قام بالكذب حتى أمسكوا به على الفور متلبسًا بالكذب وقاموا بمعاقبتا ، وأقدم على الكذب ثانية فأمسكوا به متلبسًا مرة أخرى . وهو يقوم بالكذب وهم يقومون بمعاقبته .

وتخلى عن هذا أيضًا وأخذ يصمت ، وصمت وسكت والتزم الصمت إلى أن قالوا له فى إحدى المرات :

– لماذا تصمت فحسب ؟

وصاح بهم الرجل قائلاً :

– ما هذا ، أيها الناس الطيبون ؟ حينما كنت صادقًا لم أكن صالحًا ، ولما أخذت أكذب أصبحت أكثر سوءًا ، وفى الوقت الحالى لاتسمحون لى بالصمت !

وراح الناس يسهون له النصح إلى أن عاد إلى رشده هو أيضًا على نحو ما .

ولما عاد إلى صوابه شرع يتظاهر بالتعقل فهو عاقل اليوم وعاقل غدًا وعاقل بعد غد وعندئذ يصيب الناس بالملل .

وتحول إلى ارتكاب الحماقات .

– مادمت قد استطعت أن أتحول من صادق إلى كاذب فيمكنني بالتأكيد أيضًا أن أتغير من عاقل إلى أحمق !

وكان هذا أكثر سهولة مما كان يتعشم .

واندفع يرتكب أعمال الحمق بحيث إنه في يوم واحد حشد الكثير من الحماقات التي لايمكن إزالة تبعاتها خلال عام .

وخلال ذلك الحين انقضى نصف عمره .

وأخذ يفكر بهذه الطريقة : " ها أنذا كنت على هذا النحو وعلى ذلك النحو ، فلم يصلح الأمر ، بل عليّ أن أقبل عملا من الأعمال وأن أكسب أي شيء ، وإلا فإنني سأبدد حياتي بلا طائل " .

واندفع يعمل ويعمل بلا انقطاع ، ولكن لم يكسب على الإطلاق هذا القدر من المال بحيث يكون راضيًا ، ومهما كان يكسب فكله قليل بالنسبة له . وفكر قائلاً :

"ماذا سأفعل الآن ؛ ولكن ، ألا يوجد خير حتى هنا ؟"

وأخذ كل ماربحه وكسبه وبدده ، ولما أنفق القرش الأخير أيضًا جلس ينتظر الموت ، ولكن الموت أخذ يتجنبه وكأنه يعانده ، فتخلى عن البطالة ونهض ثانية ، وأصبح ثريًا وتزوج وأنجب أطفالاً وهيأهم للحياة ، وأصيب بالمرض ورقد فى السرير وفى النهاية توفى ، وقبيل أن يلفظ أنفاسه بلحظة قال :

- ليكن إننى تخلصت من حياتى هذه لكى أخلد إلى الراحة مرة وأموت .

ولكن لسوء الحظ ما كاد يتوفى حتى هبط ملكان ورفعاه من تحت إبطيه .

وقيل له :

- لقد كذبت وارتكبت أعمال حمق وفعلت هذا وذاك .

وتقرر ذهابه إلى جهنم لكى يتم حرقه فى النار الشديدة .

وفكر ذلك الرجل وهو يعانى من عذاب جهنم قائلا :

- ها هو الآن لا نهاية لهذا أبدًا .

وأخذ يصيح بقدر ما استطاع بحيث إن كل شىء فى جميع النواحى كان يدوى .

وأخرجوه من جهنم ونقلوه إلى أحد الأماكن ، ولكنه لم يستطع أن يبقى حتى هنا باستمرار ، بل حفر حفرة واختفى فى أحد الأماكن.

الجنية والجنى

كانت هناك جنية ، ولكنها كانت تتخفى فى أغلب الأحيان، تظهر نفسها فحسب هنا وهناك وفيما عدا ذلك فلا، وحينما يتصادف مجىء شخص يقوم بالانتحار فإن الجنية تبتلعه ، إلا أنها لم تكن نهمة تمامًا.

وكان يدور حولها جنى من نفس جبلتها ، وكان يسخر منها قليلاً لأنها تتخفى وتحتجب إلى هذا الحد وتظهر نفسها فى كثير من الأحيان فى شكل مغاير .

ولكى تنتقم الجنية من الجنى قامت بتحويله إلى رجل خيّر ، وهجم عليها الجنى على الفور لكى يضربها ويشد شعرها ، إلا أن الجنية تحولت إلى ذئب، وأمسك الجنى بالبندقية وامتطى الحصان وركض فى إثر الذئب ، بيد أن الذئب انقلب إلى حيوان الخلد واختفى فى باطن الأرض .

وعاد الجنى إلى المنزل ورقد وكله يرتعش ، وبعد ذلك مباشرة راح أحد الأشخاص يدق على الباب فى حين من الأحيان :

– من ؟

ورد صوت نسائى مشابه لصوت الجنية قائلاً :

- أنا !

وأمسك على وجه السرعة بالبندقية وأطلقها، وفتح الباب فإذ به قد قتل جارته التى جاءت لكى تقترض بعضا من الملح .

واندفع الجنى إلى الزقاق وتربصت به الجنية ، وإلى وقت الفجر كانت قد حولته ثانية إلى ذلك الجنى ، ولم يعد يتذكر أنه حتى الأمس كان خيّراً ، ولا يتذكر بدرجة أقل أنه قتل امرأة بالبندقية ، ولا يتذكر على الإطلاق أنه كان يجذب الجنية ويشد شعرها .

وقالت الجنية :

- سأعد لنا الآن شيئًا لطعام الإفطار ...

وذهبت وأحضرت ثلاثة وهم الذين قاموا بالانتحار فحسب ، اثنتان من الإناث وذكر واحد .

وأخذت الاثنتان تنتحبان ، ولم ينتظر الجنى حتى تسكتا ، بل التهمهما معًا فى التو .

وقالت الجنية :

- كل أيضًا نصيبى هذا .

وقطب الجنى وجهه وقال :

- لست صفيقًا إلى هذا الحد بالضبط !

فابتلعت الجنية بمفردها ذلك البائس وفعلت هذا على وجه السرعة حتى لا يغير الجنى رأيه .

ولما انتهيا من تناول طعام الإفطار قال الجنى بعد ذلك مباشرة :

أنت تحضرين على الدوام أولئك الذين يقومون بالانتحار .

وراح يدفع الجنية بقدميه ويضربها بيديه .

وقالت له الجنية :

هل أنت عاقل ؟ لقد انتهى الأمر ! حتى لو قتلتنى فلا يوجد أفضل من هذا ، ولا يمكن إيجاده .. !

الأمير المنتحر

كان ياما كان هناك رجل فى تمام الصحة والعافية، ولم يكن ينقصه شىء. وكان بإمكانه تناول الطعام ، وبمقدوره أن يشرب ، وبمستطاعه أن يقوم بتلك الأمور، وكان له أم وأب ولديه صحبة ، وكان عائلا وحسن المنظر . وإذن باختصار ، كان لديه كل شىء ، يذهب إلى هنا ويجىء إلى هناك ، وأينما يتوجه يتم الترحيب به ، وهو ضيف تتم مشاهدته بسرور فى كل مكان .

ولكن أصابه الضجر من كل شىء وقرر أن ينتحر .

أولاً عزم النية على أن يأخذ البندقية ويدفع ماسورة البندقية فى فمه ويطلق الزناد وهكذا يطيح برأسه ، ولكن هذا لم يعجبه ، وبعد ذلك أخذ يشحذ موسى الحلاقة لكى يذبح نفسه بنفسه بها وما كاد أن ينتهى من شحذ الموس حتى لم تَحُز هذه الطريقة أيضًا على إعجابه، وذهب إلى هوة وصعد إلى أعلى الهوة لكى يلقى بنفسه فى الموت الأكيد، وأخذ يتأمل ويحدق ، وفى النهاية عدل عن هذا أيضاً .

وأخذ حبلاً وربطه إلى دعامة خشبية ، وأعد عقدة للشنق وما كاد أن يدخل رأسه فيها إلا أن هذا أيضًا لم ينل إعجابه، وراح يخنق نفسه بيديه وكاد أن يختنق ، إلا أنه رفع يديه عن نفسه لأن حتى هذا لم يعجبه ، وفكر متأنفًا .

وراح يمشى فى دائرة ، ويسير ، ويتجول وبدأ يخشى أن يعيقه شىء عن تنفيذ قصده ، وإذ فجأة بشىء يخطر على باله :

- سأدفن نفسى بنفسى حيًا فى الأرض !

وأخذ المعول وراح يحفر ويحفر، وحفر حفرة يمكن أن تصلح لأن تكون بئرًا فضلاً عن صلاحيتها لميت، ولم يلتقط أنفاسه بل على الفور أخذ يهيل التراب على نفسه . وحينما أغمض أخيرًا عينيه وأهال آخر حفنة من التراب على نفسه انهارت الحفرة تحته وأخذ يتهاوى، وراح يهوى إلى أن سقط فى النهاية فى أحد الكهوف الذى كان مكتظًا بالرجال والنساء أيضًا ، وكلهم مماثلون له .

وحينما لمحوه ، صاحوا قائلين :

أوه ، هيا ، هيا ، مرحبًا بك !

وأخذوا يعانقونه ويقبلونه وبعد ذلك أقاموا لأنفسهم حفلاً .

ورأى واحدًا يمسك برأسه تحت إبطه ، وشخصًا آخر توجد فجوة فى رأسه ، وثالثًا يحمل سكينًا فى قلبه ، وهو فقط فى تمام الصحة ، وهذا أسعده أيما سعادة .

وسرعان ما اختاروه هنا أميرًا عليهم .

وهكذا ظل موجودًا بأسفل ، ونحن هيا بنا إلى أعلى حتى تنتهى هذه الحكاية نهاية سعيدة .

السلطان والمهرج

كان فى قديم الزمان قزم وقَبِل العمل لكى يكون مهرجًا بقصر السلطان، وأدخل البهجة الشديدة على قلب السلطان وكل رجال القصر. وعلى وجه السرعة أعدوا للقزم حلة وغطاء رأس مزركشًا وزينوا مفاصل ساقيه بجلاجل فضية، وأقام السلطان وليمة أيضًا، فى الظاهر على شرف مهرج القصر ودعا ثلاثمائة ضيف .

وكان لهذا السلطان زوجة - معذرة - أستغفر الله - رائعة الجمال ومثيرة للرجال ، وكان متشدداً فى جعلها لا تغيب عن ناظريه ، وحينما رأت السلطانة المهرج أخذت تفكر وتدبر على وجه السرعة قائلة: " لماذا لا أتخذه عشيقًا لى ، ولن يعرف أحد ، وإذا ما قال فلن يصدقه أحد " .

وحدث الأمر على هذا النحو .

وقال المهرج للسلطان :

أنت أيها الحاكم لص !

وارتعدت فرائص الجميع ، أما السلطان فقد ضحك .

وسأل السلطان رجال بلاطه بقوله :

لماذا لا تضحكون ؟

وقال الوزير الأكبر :

هذه إهانة !

فرد السلطان قائلا :

إذن فالمهرج يقول الحقيقة ؟

وعلى وجه السرعة أخذ الوزير وجميع رجال البلاط يضحكون .

ولم يكن هناك أى باب مغلق أمام مهرج القصر ، يدخل إلى غرفة الخزانة ، ويختبئ فى جرة الذهب ، ويدخل إلى قاعة المحكمة ويتسلل تحت حشية كرسى القاضى ، ويدخل إلى مخدع أى شخص من الأشخاص ويختبئ تحت الوسادة !...

وكان الحراس يتناوبون الحراسة على الدوام حول حجرات السلطانة ، ولكن لم يكن أحد يكترث بالمهرج، وهكذا فى إحدى الليالى احتجزته السلطانة فى مرقدها ، وابتهج هو بذلك وبالتدريج تسلل إلى فراشها .

وإذا بالقزم فى يوم من الأيام ، أخذ يتقافز ويصيح بأعلى صوته قائلاً :

السلطانة عشيقتى !

وارتعدت فرائص السلطانة من الخوف ، وسمع بذلك السلطان فضحك .

وصاح مهرج القصر قائلا :

هذا مرقدى . لا تذهب ! سأقتلك !

وقهقه السلطان ضاحكًا وقال :

– لو لم تكن مهرجًا لصدقتك !

وكان من واجب مهرج القصر أن يتذوق ويجرب أولاً كل ما يأكله السلطان ، فإذا كان سمًا فمن المعروف أنه سيموت ، وبذلك يتم إنقاذ حياة السلطان .

وقال المهرج :

– لو لم أكن مضطراً لأن أتناول الطعام والشراب قبلك لقمت أنا أولاً بتسميمك واستوليت على عرشك ، وأخذت السلطانة زوجة لى .

وضحك السلطان بالطبع .

وفى إحدى المرات تم التخطيط لمؤامرة بالقصر لكى يتم بالفعل عزل السلطان من على العرش ، وحضوا المهرج أيضًا على مساعدتهم فى هذا الأمر ، وتظاهر المهرج بالموافقة وذهب إلى السلطان فى غرفته وافشى وكشف المتآمرين واحدًا واحدًا ، وكان كل هؤلاء أقرب رجال بلاط

السلطان ، وراح السلطان يقهقه ضاحكًا ولكن شحب وجه المهرج من الضيق والغيظ لأن السلطان لم يصدقه وقال :

ليكن .

وأخذ يتشقلب ويخبط رأسه فى الأرض الرخامية قائلا :

– ما دمت تريد أن تلقى حتفك – فليكن ...!

وحينما دقت اللحظة المناسبة بالنسبة لأولئك قاموا بالهجوم على السلطان لكى يقتلوه وكان السلطان بقوته فاستل السيف وقاتل وضرب ، وظل حيًا بمحض معجزة .

وتقافز المهرج من السرور وصاح قائلاً :

– ألم أقل لك ؟!

ورد عليه السلطان قائلاً :

– أجل ، قلت !

وأمسك السلطان بالمهرج من خناقه وألقى به من القصر على صخرة ضخمة إلى البحر ، وصاح به أيضًا قائلاً :

– إذن فذلك الأمر الآخر الذى قلت كان صحيحاً !

وهكذا أصدر حكمه عليه .

الماء والفتاة الصغيرة

نزلت فتاة صغيرة إلى الماء . وكان هذا أشبه بالبحيرة ، وإذ من البحيرة يظهر رجل ذو لحية وشعره كثيف ، وقال :

هيا معى وسأحقق لك ثلاث أمنيات .

فقالت الفتاة فى تمنع :

ولكن لا أعرف السباحة .

فقال الرجل ذو الشعر الكث :

– لا تخشى شيئًا .

وأمسك بيدها ونزل بها إلى الماء .

وراحا يغوصان هكذا ، ويغوصان ، وشرعت الفتاة تودع روحها وإذ بها فجأة تجد نفسها وكأنها فى أحد القصور، ورأت الفتاة أنها فى تمام الصحة والعافية ولكن لا تعرف كيف حدث هذا، وحملها بعد ذلك سرب من السمك ، واختفى ذلك الرجل ذو الشعر الكثيف .

وفكرت الفتاة قائلة :

– كيف سأسبح أنا من هنا الآن ؟

وشرعت في البكاء ، والدمعة تدفع الدمعة من عينيها، ولكن ياللعجب – المياه تحملها .

وفي تلك اللحظة قامت تلك السمكات بتقريبها من عرش فاخر ، ثم سبحت تلك السمكات ثانية واختفت في أحد الأماكن ، وظهرت على العرش واحدة أشبه بالمرأة أو السمكة .. – ياللعجب – إنها فظيعة ومخيفة ، ولكنها أيضًا طيبة وغاية في الطيبة ، تقوم حينًا بإغرائك وحينًا آخر بإبعادك، وحينذاك تكلمت هذه الملكة المائية الضخمة قائلة :

– أيتها الفتاة ، هيا قولي ماذا تريدين .

وهمست الفتاة على وجه السرعة ، وقد دخل قليل من الماء إلى فمها ، قائلة :

ألا أموت طوال حياتي .

فأجابت تلك الكتلة المائية الضخمة قائلة :

حسن ، سيتحقق ذلك . وما هي أمنيتك الثانية ؟

أن يعيش كل أهلي إلى الأبد .

وقالت تلك التي تشبه السمكة أو المرأة .

وسيتحقق هذا أيضًا .

وأضافت قائلة :

وما هى أمنيتك الثالثة ؟

وغاصت قليلاً من الماء وتحركت أيضًا فى مكانها .

- أن أعود من حيث جئت .

وقالت تلك الملكة - السمكة الضخمة -:

- حسن . وسأحقق لك هذا أيضًا ! وبغض النظر عن كل شىء آخر فيوجد عندى عدد كبير من أولئك الأشخاص الذين لم يتمكنوا من السباحة إلى المكان الذين جاءوا منه وظهورهم تنوء بأحمال الكنوز.

وأعادتها من حيث جاءت وحققت لها كل الأمنيات الثلاث واحدة بعد الأخرى !

المثقفون

ذات مرة كان فى البوسنة مثقف وذاع صيته، وبمجرد أن أصبح مشهوراً تجمع على الفور الناس حوله واتبعوه فى كل شىء . وأينما يقيم أى شخص حفل غداء أفضل ولو قليلاً تتم دعوة هذا المثقف إلى حفل الغداء هذا، ولم يكن يمضى يوم دون أن يكون هناك حديث عنه ، وقد كتب مايزيد عن سبعين كتاباً .

وكان هناك أيضًا مثقف آخر وكان لكتبه وقع سيىء ، وعندئذ ضحى بكل ما يمتلك من مال وصحة وزوجة ووقت ربما يحسن كتابة ولو كتاب واحد، ولقى الكتاب قبولاً طيبًا وأصابه الثراء وعاودته عافيته ، وتزوج مرة أخرى وتوفر لديه الوقت ، ولكن حينما نظر إلى كل هذا بشكل أفضل قليلاً أصابه الندم المرير فجأة، إلا أنه لم يعد أمامه مفر . وهو أيضًا كتب مائة كتاب .

وكان هناك أيضًا شخص يتعجب أشد العجب من أنه مسموح له أن يقوم باختلاق الكتب وفقًا لهواه الشخصى وبالكيفية التى يريدها ، ولكن لم يحدث أحداً بصوت عال عن هذا الأمر، وهو كذلك كتب مايربو على مائتى كتاب .

وكان هناك شخص طويل القامة ، أسمر اللون ، حسن المنظر ، كثير القراءة ، ولم يكن أحد يستطيع أن يفعل له شيئًا وكان يؤلف الكتب فى جميع أنحاء العالم، وحتى الأميون كانوا يقتطعون من أقواتهم لكى يشتروا ولو كتابًا واحدًا من مؤلفاته، وبعد ذلك يلحون على جيرانهم لكى يقرأوا لهم من كتبه هذه بصوت عال ، ولم يكن هناك منزل واحد فى البوسنة ولا فى الهرسك لم يكن فيه على الأقل كتاب واحد لهذا المثقف، وموضوع فى مكان محترم . وكانت جميع الأبواب مفتوحة أمامه على مصراعيها ، وبمجرد أن تنتهى نقوده يتم على الفور على وجه السرعة إيجاد نقود ويتم وضعها له خلسة على نحو ما حتى لا يشعر بالإهانة، وبعدما يؤلف أى كتاب يجلس كبار رجال الدولة ويقرأوا كتابه لكى يروا ما إذا كان ينبغى أن يغيروا ويصححوا بأية طريقة القوانين . واللوائح الموجودة وجعلها تتناسب مع ما ورد بكتبه ، وهو أيضًا كتب ثلاثمائة كتاب .

وكان هنا أيضًا مثقف حسن كان الجميع يكنون له الكثير من التقدير والاحترام . وقال :

لقد تمت كتابة الكثير من الكتب، وفى الوقت الحاضر لن تتم كتابة أى كتاب إلى أن تتم قراءة هذه الكتب .

وهذا ما حدث .

فـى أثنـاء السـفـر

كـان هناك شـخـصـان مـسـافـران وخيم الليل ، وإذ بـهـمـا يلمـحـان اثنتين، ربمـا تكـونـان امرأتين أو فـتـاتين ، ولوحـتـا لـهـمـا بأن يقـفـا لكى يوصـلاهـمـا، ووقف الاثنـان وأركبـاهـمـا فى الخلف ثم تـحـركـا، وفى نفس الحين أشعل ذلك الشـخص الأكبر سنًا القداحة وتلألأ لهيب النار فقربه إلى هاتين الاثنتين لكى يرى شكلهما وهل تصلحان على أى نحو :

وقال بعدما انطفأ اللهب :

– فعلا ، تصلحان !

وسـأل الاثنان قائلين :

إلى أين أنتما ذاهبتان ؟

فأجابت الاثنتان قائلتين :

إلى هناك ...

ثم قال ثانية الشخص الأكبر سنًا :

– هل ترغبان فى أن نتوقف وننزل وفى أى مطعم نأكل ونشرب شيئًا ؟

وقالتا إنهما ترغبان .

وتوقفوا ودخلوا إلى المطعم ، وقالت الاثنتان :

– اطلبا الطلبات ونحن سنذهب لكى نهندم أنفسنا قليلاً ونغسل أيدينا .

وفعل الاثنان كل شىء على هذا النحو ، وجاء الشراب وجاءت فواتح الشهية ولم تأت الفتاتان ...

وقال ذلك الشخص الأكبر سنًا إلى صاحبه فى السفر الأصغر سنًا منه :

– اذهب يا أخى وانظر أين هما .

وأطاعه هذا وعاد وقال :

– إنهما غير موجودتين فى أى مكان ! لقد هربتا فعلاً !

وعندئذ تناول الاثنان فحسب تلك المشروبات وفواتح الشهية . وبعدما أنهيا هذا الأمر وحينما أشعلا السجائر قال الشخص الأكبر سنًا فى نفس اللحظة :

– أتعرف أين أخطأنا مع هاتين الفتاتين فهربتا ؟

– لا أعرف .

– حينما أشعلت القداحة وقربت اللهب لكى أرى شكلهما ، فى ذلك الحين رأتا شكلنا !

التميمة

في غابر الزمان كان هناك رجل ووجد بمحض الصدفة على سقف منزل عديله تميمة من التمائم، وهبط إلى المنزل ، وإذ به يجد عند المدفأة حماه وزوج أخته يجلسان القرفصاء ويتحدثان عن شيء مع عمه ، فألقى عليهما السلام وقال إن الأمر كذا وكذا ، هاأنذا وجدت تميمة ويتهيأ لي أنها كلها من الذهب الخالص .

وسأل زوج الأخت الحما قائلاً :

هل كنت تعرف بها ؟

وأجاب الحما بأنه كيف سيعرف بالتميمة وهذا ليس منزله وإنما منزل زوج أخته، وعندئذ قال زوج أخت الحما إن عديل حماه ذكر أن خالته من ناحية أمه حكت منذ عهد قريب أن جدة عديله أوصت لأخت حماتها بتميمة ، إلا أنها فقدتها، فهل هذه الآن هي تلك التميمة ، إنه لايعرف أن يقول هذا .

وحينئذ قال عم ذلك الرجل الذى عثر على التميمة لابن عمه :

- ها هى أخت زوجك هنا فاسألها .

وسأل العديل أخت زوجته، فقالت أخت الزوجة أن يذهبوا إلى خالتها هذه وليسألوها عما إذا كانت تعرف شيئًا عن ذلك .

وبدأ فى التحرك العديل وأخت زوجته وعم العديل ، وكان موجودًا عديل ابن عم هذا العم ، وهو رجل شاب ، وكذلك حما أخت زوجة حما ذلك الحما ، وتصادف فى نفس الوقت مجىء عديل ذلك العديل الذى عثر على التميمة ، فألقى التحية الطيبة على الجميع ، وسأل زوجته عن المكان الذى يتوجهون إليه ، وأجابته هى كم يليق .

وقال هو :

- أجل ، لقد قلت لعديل عديلى إن خالتى من ناحية أمى قالت إن جدتى أوصت لأخت حماتى بتميمة ، ولا أعرف من أين علمت هى بهذا، ولكن إن قالت هكذا فقد قالت .

وفى هذا الحين وصلوا إلى أمام منزل أخت حما هذين العديلين ، وخرج إليهما شقيق زوجها وألقى عليهما تحية جميلة وبطريقة أجمل سأل عن الخير الذى أتى بهما .

وقال الأب والابنة والعديلان وعم ذلك العديل وعديل العديل شقيق زوج أخت زوجة الحما إن الأمر كذا وكذا وإنهم جاءوا من أجل هذا وهذا، أما هو فقد أدخلهم جميعًا إلى منزل خالة تلك المرأة التى على

سقف منزلها عثر عديلها على التميمة من الذهب ، والتى وفقًا لوصية جدة زوجها تخصها ، واندهشت المرأة اندهاشًا كبيرًا ؛ لأن مثل هذه الهدية الثمينة مخصصة لها بالذات ، ولكنها أخذتها شاكرة ، ودعت أيضًا بعض أولاد العم والعمات والخالات وأولاد عم شقيق زوجها والأحفاد ، وبهذه المناسبة أحسنت ضيافتهم وإكرامهم .

وجاء أشخاص آخرون أيضًا ، ولكنى لم أستطع أن أدرك بالضبط صلات القرابة فيما بينهم .

القضاء والقدر

ذات مرة كان هناك رجل وكانت له زوجة وصاحب، وهذا الرجل لم تكن به رغبة لأن يذهب إلى الحرب ، والأكثر من ذلك كان يحاول إثناء الآخرين عن الذهاب إلى الحرب ، أما صاحبه فقد كان يتملكه التردد فيما إذا كان سيذهب إلى الحرب أم لا، وهنا بالقرب منهما كان يوجد رجل آخر يريد الذهاب بأى ثمن إلى الحرب، وكان صاحب هذا الرجل الآخر على خلاف مع صاحب ذلك الرجل الأول .

وذهب هذان الأخيران إلى الحرب وإذ بهما يجدان هناك الجيش أيضًا فى حالة تردد . وما السبب ؟ لأن ذلك الرجل المذكور فى البداية يجعلهم يعدلون عن الذهاب .

وراح هذان الاثنان الأخيران إلى الرجل المذكور فى البداية وقالا له :

اسكت ، ولا تقم بإثناء الجيش !

وقال هذا :

حسن .

وحينما شرعا يتحركان اقترب صاحب هذا الرجل الذى قال : "حسن" ، من هذين الاثنين وتوجه معهما إلى الحرب ، بالرغم من أنه على خلاف مع ذلك الرجل .

وهذا الأمر أصاب صديقه بالحزن ، وأدخل السرور على قلب زوجة صديقه لأنها لم تكن من قبل تحب صاحبه هذا .

وهبط الآن هؤلاء الثلاثة إلى مكان الجيش ، والجيش لم يتحرك من مكانه، ولن يذهب إلى الحرب على الإطلاق . وما السبب ؟ لأن الجيش يريد أن يذهب إلى الحرب أيضًا ذلك الرجل الذى كان يثنيهم عن الذهاب إلى الحرب، وقال اثنان من أولئك الرجال الثلاثة الذين هبطوا إلى مكان الجيش لذلك الرجل الذى هبط معهما أن يصعد ثانية إلى صاحبه بأعلى وأن يدعوه إلى الحضور إلى الجيش .

- كيف أفعل بينما رحلت عنه فى الوقت الحاضر ؟

ورد عليه هذان بقولهما :

- كيفما تعرف وتقدر !

وذهب هو ، ولما رآه صديقه تملكه السرور ، أما زوجة صديقه فلم تشعر بسرور .

وقال هذا :

هيـا إلى أسـفل ، وقم بإثناء الجـيش كله عن الذهاب إلى الحـرب. وإذا لم تقم بإثناء الجيش كله فلن تثنينى أنا أيضًا عن الذهاب !

وحينما سمعت المرأة بذلك أخذت تنتحب وتستحلفه قائلة :

– لا تذهب أيها الرجل ؛ ستلقى حتفك !

ولكن الرجل لم يطعها .

وجاء الآن هذان الاثنان فى وسط الجيش وأفسح لهما الجيش لكى يمرا. وعثرا على هذين الاثنين الآخرين وانطلقا فى الحديث ، واستمر على قول رأيه ذلك الشخص الذى كان يثنى الجيش عن الذهاب إلى الحرب ، وداوم على رأيه ذلك الرجل الذى أراد أن يذهب إلى الحرب بأية طريقة ، والاثنان الآخران لم يقولا شيئًا ، بل استمرا على صحتهما وخلافهما .

وكان الجيش منتظرًا.

وفى النهاية قال ذلك الشخص الذى أراد الذهاب إلى الحرب إلى ذلك الرجل الذى لم يرد أن يذهب إلى الحرب :

هيا وقع على هذا !

على ماذا أوقع ؟

– توقع على هذا بألا يذهب الجيش إلى الحرب .

لن أوقع على هذا ولا أستطيع التوقيع .

لماذا لا تريد ولا تستطيع التوقيع مادمت تقوم باستمرار بإثناء الجيش عن الذهاب ؟

لا أعرف السبب ، ولكنى أعرف أننى لا أريد ولا أستطيع التوقيع .

وقع !

لن أوقع !

لن أوقع !

ولم يستطع الجيش أن ينتظر أكثر من ذلك ، بل هجم علي هؤلاء الأربعة كلهم وقتلهم .

رجل له ثلاث حيوات

كان ياما كان كان هناك رجل له ثلاث حيوات .

ووقع فى حيص بيص بشأن كيفية قضائه لحياته الأولى فأخذ يبددها هكذا فى الشراب وعدم العمل ، وانتظر بفارغ الصبر أن يتخلص منها فقد أصابته بالضجر .

وفكر قائلاً : مازال لدى حياتان .

فذهب إلى أحد الأماكن حيث لا يعرفه أحد لكى يعيش حياته الثانية .

وقال : سأضع الآن عقلى فى رأسى .

وتملكته الحيرة فقرر أن يكرس حياته للأعمال البطولية .

وأينما يلفت انتباهه أى ظلم فإنه يتحرك بصراحة ، الأمر كذا وكذا، وهذا، أيها الناس ، أمر غير شريف وغير عادل . وصادف ألوانًا من المصائب ، وتم حبسه ومطاردته .

ولكنه يشعر بالرخاء . فهم يقولون : هذا الرجل يقول الحق .

ولما نشبت الحرب كان أول من أمسك بالبندقية وناضل دومًا من أجل القضية الصحيحة ، وفى النهاية اكتسب مجدًا خالدًا أيضًا .

إلا أنه مع مضى الحياة أخذ يشعر باستمرار بالحياء ؛ إنه يخجل من أن الشعب قد منحه كل هذا القدر الكبير من التكريم .

ما الأمر ؟

الأمر كذا وكذا ، فكل أعمالى البطولية هذه لا تساوى شيئًا .

لماذا ؟

لأن لدى حياة إضافية أخرى ، وقد كان بمقدورى أن أقضى هذه الحياة كما يحلو لى وكانت النتيجة ستكون هى نفسها؛ لأن أية أعمال بطولية تلك التى قمت بها بينما كنت أعلم على الدوام أنه فى حالة مصرعى سأعيش حياة أخرى أيضًا .

ومات وهو غير راضٍ .

وحينما بدأ فى حياته الثالثة عاش مثل جميع الناس الآخرين.

الوغد - الساحر

فى سالف العصر كان هناك رجل ، وكلما يقول شيئًا ، فإذا كان هذا الشىء موجوداً فإنه يختفى، وإذا لم يكن موجوداً فإنه يتواجد .

وكان ، هكذا ، وغداً .

تزوج مرتين وأنجب الأولاد مرتين .

وكان فى أحد الأماكن لأول مرة فسألوه عن أسرته ، فقال إن لديه زوجة وأولاداً ، ولما عاد لم يجد لا زوجته ولا أولاده .

ومنذ ذلك الحين أخذ ينتبه لما يقول .

فإذا ما سأله أى أحد عما إذا كانت له زوجة فإنه يصمت فحسب . وعما إذا كان له أولاد فهو يلتزم الصمت أيضًا .

وفى إحدى المرات قال إن لديه جواداً للبيع ، وإذ بالجواد نفق فى الاسطبل .

وذات مرة ذكر عدد النقود التى لديه ، وإذ به لايجد قرشا واحداً . وكان قد قال بالضبط .

وحينما يكون الجو جميلاً فيلقى بالتحية "نهارك سعيد" فينهمر المطر على الفور .

وعندما يتمنى لأحد الأشخاص "ليلة سعيدة" فهذا الشخص لا يغمض له جفنٌ طوال الليل ولذا فإن كثيرًا من الأشخاص لم يرتبطوا معه بعلاقات صداقة ، على الرغم من أن أحدًا لم يجرؤ على أن يقول له شيئًا .

وذات مرة وجه إليه أحد الأشخاص لومًا ، فقال له الوغد :

- لقد كنت أظن أنك صديق لى .

وأجابه ذلك الشخص بقوله :

- وأنا أيضًا كنت أحسبك صديقًا لى ، ولكنى أرى الآن أننى عدو لك .

وفى التو أخذ يضربه براحتى يديه على رأسه .

وراح الوغد يستغيث فتجمع الناس وأخذوا يتعجبون من أن أحد الأشخاص يضربه هو، ولما توقف ذلك الشخص عن الضرب قال الوغد وهو غاضب لأنه لم يبادر لمساعدته أى أحد :

- كنت أظن أننا أصدقاء .

ووجد الناس أنفسهم فى دهشة أكبر ، وقالوا :

– ونحن أيضًا كنا نظن أننا أصـدقـاء لك ، ولكننا نرى الآن أننا أعداء لك .

وهجموا عليه فى وقت واحد لكى يضربوه .

ولكنهم لم يقتلوه .

القياصرة الأربعة

كان ياما كان فى قديم الزمان أربعة قياصرة ، كل منهم بجانب الآخر ، وكان كل منهم قيصراً فى قيصرته ، وكل منهم ينام كقيصر ، ويستيقظ كقيصر ... وكانوا يحكمون كقياصرة طوال النهار والليل.

وكان القيصر الأول هو القيصر الرابع والسبعون فى شجرة عائلته القيصرية .

وأصبح الثانى أيضًا قيصراً حينما لم يبلغ عمره إلا تسع سنوات.

وكان الثالث قيصراً أحمق ، ولكن لم يجرؤ أحد على قول ذلك.

وكان الطريق أمام القيصر الرابع مليئًا بالأشواك حتى وصوله إلى العرش ؛ فقد اضطر إلى دس السم لأبيه وقام بطرد أمه وقتل عمه وخنق خاله .

وكان القياصرة يراعون بعضهم البعض مراعاة طيبة ويتبادلون الضيافة فيما بينهم .

وذات مرة جلس هؤلاء القياصرة الأربعة لكى يسألوا أنفسهم ، وإذ بذلك القيصر راح يذرف الدمع قائلاً :

– ما أطيب حياتكم . لقد اضطررت لأن أدس السم لأبى وإلى طرد أمى وقتل عمى وخنق خالى لكى أستولى على قيصريتى !

ولما سمع أولئك القياصرة ذلك تملكهم الحزن ، أما ذلك القيصر الأحمق فقد ذرف ، وحده ، دمعة على وجهه الأبيض، ثم أخذوا يواسون القيصر بقولهم : لا تحزن ، ماذا بمقدورك أن تفعل ، لقد كان الأمر ومضى ، فماذا ستفعل ، وكل الكلمات على هذا النحو ، ولما تعزى القيصر قليلاً ، وكانت توجد هنا فتيات صغيرات يُزعم أنهن راقصات وجاء العرقى وتواجدت المشهيات ، وإذ بالقيصر يستجمع قوله قليلاً فقال مرة أخرى بصوت حزين :

– إن نفسى مثخنة بالجراح ، وقيصريتى صغيرة بالنسبة لى حتى أعزى نفسى ، ولكن لو أصبحت قيصراً عليكم أيضًا يتهيأ لى أننى عندئذ فحسب سأجد العزاء لنفسى على نحو ما !

وارتجف القياصرة من هذا الكلام وتبادلوا النظرات فيما بينهم فمن هو ذلك القيصر الذى سيتنازل بسهولة عن قيصريته ، واستطرد ذلك القيصر قائلاً على الفور للقيصر الأول :

– ها أنت القيصر الرابع والسبعون ، فبماذا ستفيدك القيصرية أكثر من هذا ؟

وقال للقيصر الثانى :

وأنت قيصر منذ التاسعة من عمرك ، ومن المؤكد أنك تشعر بالضجر والملل ...

وقال للقيصر الثالث :

وأنت قيصر أحمق ، فمن السهل عليك كثيراً أن تكون أحمق فحسب وألا تكون قيصراً أيضاً !

وبعد جهد جهيد هنا وهناك وافق القياصرة الثلاثة فى النهاية على أن يكون ذلك القيصر بالنسبة لهم قيصراً على القياصرة .

وقالوا :

– نحن الآن قيصرية مؤلفة من أربع قيصريات .

وطاب الأمر قليلاً بالنسبة لذلك القيصر على القياصرة .

ولكن لم يدم هذا لفترة طويلة .

وكان شعب هذه القيصريات الأربع يشرب ويبتهج قبل وبعد ذلك أيضاً وكما كان الحال فى ذلك الحين فهو كذلك حتى يومنا هذا .

القِـــدْر

كان هناك ذات مرة صانع للأوانى الفخارية ، ولكن العمر تقدم به وهو وحيد بلا زوجة ولا أولاد ، وليس له أى أهل فى أى مكان، وكان يصنع بيدين مرتعشتين الأباريق والجرار والزهريات والقدور والطناجر ويضعها فى الفرن، وعندئذ كان يتكسب من ذلك ، ويجد قوت يومه بصعوبة وينتظر أن يدق الموت على بابه .

وفى إحدى المرات رأى منامًا، وجاءه صوت فى هذا المنام يقول له بأن يضع قدرًا من طينة منطقة "أوبشن"، وظهر له فى المنام القدر بصورته وحجمه وبرسم اليدين وكيف ينبغى أن تكون عليه كل زخرفة ، وكل شىء بوضوح وكأنه مرسوم على راحة اليد .

واستيقظ الصانع والصباح لم يطلع بعد بينما ذلك القدر يتلألأ دون انقطاع فى ظلام حجرته ، ولما أشرق النهار تمامًا لم يستطع على الإطلاق أن يبعد القدر من أمامه، إنه فى الظاهر قدر عادى ولكنه ليس كذلك .

ووقع صانع الأوانى فى حيرة من الأمر ، فجهز البغلة وذهب إلى أسفل تل "أوبشن" حيث استخرج الطينة الفخارية وعاد وسحقها وصنع منها القدر ، ذلك القدر الذى رآه فى المنام . ولكنه لم يفلح أبداً فى صنعه بذلك الشكل نفسه . على الرغم من أنه كان ماثلاً أمام عينيه على الدوام .

وفكر الصانع قائلاً :" آه ، لو كانت يداى لا ترتعشان" ... ومرة أخرى وقف أمام الآلة الدوارة وصنع ذلك القدر، غير أنه لم يستطع أبداً أن يصنعه بالضبط كذلك القدر، وما أن يظن أنه هو ، وينهى صناعته حتى يرى ثانية أنه ليس بصورة ذلك القدر .

ورغم أن أى قدر من القدور لم يكن مثال ذلك القدر إلا أنه باعها كلها بسهولة ، ولم يتبق لديه إلا قدر واحد ، ورقد للنوم وإذ به مرة أخرى يرى مناماً ، وقيل له فى المنام إنه ستكون فى ذلك القدر كمية كبيرة من المياه وأن عليه أن يشربها .

وبالفعل بقيت فى ذلك القدر كمية كبيرة من المياه ، وتذوقها صانع الأوانى فوجد مذاقها مراً بحيث لا يمكن أن تكون أشد مرارة من ذلك فقال :

– سأشربها وليحدث مايحدث ... وعلى أية حال لقد عشت عمراً طويلاً .

وبمجرد أن شرب هذا الماء سكنت يداه وعادت إليهما كل قوة الشباب ، وأصبح بصره صافياً ، وتراقصت سعادة الحياة فى صدره.

وقام صانع الأوانى بصناعة قدور أخرى ووضعها فى الفرن ، وقام باستخراجها من الفرن والذهاب بها إلى السوق وبيعها كلها ، وذاع صيته ، وأخذ الأمراء أيضًا يشترون قدوره هذه ويزينون بها قصورهم، ولكنه لم يستطع مطلقًا أن يصنع قدرًا مماثلاً لذلك القدر الماثل أمام عينيه ، وهكذا لمدة عام .

وخلال هذا العام تماثل صانع الأوانى للشفاء تمامًا ، ولم يعد به أى أثر من آثار عجز الكهولة ، وحدث أن تزوج أيضًا ، وأنجبت له زوجته غلامين توأمين، وبعدما مضت فترة من الوقت على ذلك حلم صانع الأوانى فى ذلك الحين بمثل تلك الرؤية، فلقد رأى ذلك القدر مرة أخرى ، وخرجت منه امرأة عجوز ضخمة الجثة وقالت بصوت شبابى:

- إذا أردت أن تصنع ذلك القدر فعليك أن تقتل ولديك وأن تطحنها وتخلطها مع العجينة ، أما زوجتك فألقها فى نار الفرن !

ونهض صانع الأوانى من نومه قافزًا وذهب مباشرة إلى سرير الولدين ، وحينما رآهما نائمين هكذا مثل الأم قال :

- أفضل أن ألقى بنفسى فى نار الفرن على أن ألقى بهما ، حتى ولو أننى لم أصنع القدر أبدًا !

وحينما طلع النهار وجد القدر مرة أخرى ماثلاً أمام عينيه، فغضب صانع الأوانى ولوح بيده لكى يبعده من أمامه فانقلب القدر وتحطم إلى مائة قطعة .

الثـــــرى

فى ســالف الزمــان كـان هناك بعض الناس وكـانوا يعـيـشــون ويستمرون فى العيش ، وكانوا يحرثون ويغرسون ويحصدون ، وكانوا يستيقظون فى الفجر ويناموِن فى المساء ، ويقومون فى الأعياد بالتسرية عن أنفسـهم ، ويسيرون على الأرض ويشربون النبـيذ ويطحنون القمح ويركبون الجياد ويمشون فى مواكب العرائس ، ويقومون بتربية أولادهم ويتذكرون الأزمان الخالية ، وكانوا يعيشون ويستمرون فى الحياة ...

وفى إحـدى المرات جـاء عند هؤلاء أحـد الأثرياء المتـأنقين ، وهو لطيف من حيث الظاهر ، وقال لهم :

- سمعت عنكم فجئت إليكم لكى أقضى حياتى معكم .

وتملكت هؤلاء السعادة، واستقبلوه استقبالاً طيبًا ، وراح الثرى يعيش .

ولكن أى شىء يشـرع فى عمله لا ينتهى بخير على نحـو مـا . فقد تزوج ، وأصـيبت زوجتـه بالجنون ، وجـاء الأصـدقـاء إلى منزله ، فـدب الشـجـار بينهمـا ، وتوجه إلى الصيد، فلقى كلبه مصرعه ، وذهب إلى

المحكمة للإدلاء بشهادته ، فحصل على حكم بعقوبة ذلك الشخص الذى شهد لصالحه وهو غيرمذنب، يزرع القمح ، فلا يبدد برد السماء إلا حقله ، وكل شىء على هذا النحو . وتملكت الناس الدهشة، أما ذلك الرجل فقد كان يضحك فحسب من كل شىء ، وهو أمر كان أكثر غرابة.

وقالوا :

– انظروا ، لقد جاء هذا الرجل عندنا لكى يعيش حياته ولكنه لايستطيع على الإطلاق أن يعيش، هيًا نقدم له العون، وقاموا بتعويضه تعويضًا طيبًا عن كل شىء ، ولكن لم يلق الضياع ثانية فحسب كل هذا الذى قدموه له من تعويضات بل أصاب الإفلاس أيضًا أولئك الذين قدموا له التعويضات عن ذلك .

وقالوا :

– ما هذا ؟

أما ذلك الرجل المتأنق فيضحك فحسب .

وسألوه بقولهم :

– هل جئت لكى تموت عندنا ؟

فأجاب قائلاً :

– العيش أو الموت كل هذا شىء واحد .

وأخذ يضحك بشدة أكبر .

وسألوه ثانية قائلين :

– قل لنا هل أتيت عندنا لكى تعيش أم لكى تموت ؟

وأجابهم بوقاحة قائلاً :

– جئت لكى أموت !

وقالوا له :

– مادام الأمر كذلك ، فالميت لا يحتاج إلى أى شىء .

وجردوه من ملابسه حتى صار عاريًا واقتادوه إلى القبر وهو بهذا الشكل .

وبعد ذلك بقليل وجدوه يجلس عاريًا على قبر شخص آخر .

وسألوه :

– لماذا لم تمت ؟

وهو يضحك . وقال :

– ليس لدى شىء .

فجعلوه متأنقًا مرة أخرى ، وأعادوا له كل أمواله التى كان قد جاء بها عندهم وأبعدوه عن هذا المكان ، أما هو فقد رحل إلى مكان بعيد ولم يرجع بعد ذلك .

المجـــــرم

كان ياما كان هناك مجرم وكان يقوم بالسرقة والحرق والخطف والقتل والنهب ، ولم يكن هناك شىء لم يرتكبه ، يأتى إلى هناك ويقتل ، ويأتى إلى ذلك المكان ويثير الخلافات ، ويأتى إلى ذاك المكان ويخطف ، ومن ثم فلا داعى للسرد، وكان المكان الذى ينهب منه أرضاً خصبة ، ويتوفر فيه كل شىء بكثرة ، ولم يكن أحد يعرف من هو هذا الشخص وما هى أخلاقه ، وكان يتم التخمين فحسب بأنه من هذا المكان أو ذاك وأنه على هذا الخلق أو ذاك، وأنه من هذه البلدة أو تلك .

وفى إحدى المرات هب الجميع ، الرجال والنساء والشيوخ والشباب، لكى يقوموا بالقبض على المجرم والتغلب عليه على نحو ما ، إلا أنه لم يكن موجوداً فى أى مكان وكأنه قد هوى فى باطن الأرض ، وبمجرد أن هدأت المطاردة قام هو بذبح إحدى الفتيات التى كانت قد توجهت لإحضار الماء فى وقت متأخر ، وربط الجرة فى ضفائرها ، وقام بخبطها فى صنبور المياه بشكل غاية فى القبح .

وتحول الناس الخبل هم أنفسهم أيضًا إلى ارتكاب الشرور ، وقام بعضهم بالهجوم على البعض الآخر ، ولوثوا أيديهم بالدماء ، واقترفوا الكثير من الجرائم المشينة والعديد من الأفعال الشاذة .

ولا يعرف أحد إلى أى حين كان سيستمر هذا الحال ، فقط ذات صباح ظهر أحد الرجال وأخذ يدفع كل المجرمين واللئام إلى الانتظام فى صف، وعلى نحو ما دعاهم إلى العودة إلى رشدهم فسادت مرة أخرى الوفرة والأمانة فى تلك الأرض الخصبة .

وأقاموا احتفالاً لهذا الشخص باعتباره أفضل الأشخاص ، أما هو فقد قال وهو على فراش الموت :

أتعرفون من أنًا ؟

فأجابوا بأنهم لا يعرفون .

إيه ، أنا ذلك المجرم الذى كان فيما سبق أول من نهب وخطف ، وها أنذا قد نظمت لكم كل شىء لكى أجد ثانية ما أنهبه وأخطفه ، فاحمدوا الله أننى سأموت وإلا لكنت أصبتكم مرة أخرى بكل تلك الشرور وأكثر منها !

حتى الطيب لم يبق

ذات مرة كان هناك رجل طيب، سليم الطوية ، وأمثاله كانوا وسيظلون موجودين إلى يوم القيامة، وبمجرد مولد هذا الرجل أصبح طيبًا فى التو، وبقى على هذا النحو أيضًا .

وكان يعيش فى مدينة صغيرة فى آخر العالم ، وظل يعيش هناك إلى أن انهارت هذه المدينة الصغيرة انهيارًا كاملاً وأصبحت قفرًا تمامًا.

وبدأ كل شىء على النحو التالى بأن تبدلت أحوال سكان هذه المدينة الصغيرة ، وأخذوا يطلقون الأحكام بعضهم على بعض ويصدرون الإدانات بعضهم ضد البعض .

وبادىء ذى بدء أدانوا وطردوا الراقصات وألغوا كل الاحتفالات وبعد ذلك بفترة غير طويلة قيدوا الأجانب بالحبال وطردوهم ، وبعدئذ هجموا على المتعانقين وفصلوا بينهم وفرقوا بينهم إلى الأبد، ولم يكن بمقدورهم القيام بأسوأ من ذلك !

وبعد ذاك قسموا المدينة الصغيرة نفسها أيضًا ، وحكموا على الأغبياء أن يعيشوا فى أحد الشوارع ، وعلى العقلاء أن يعيشوا فى

شارع آخر بحيث إنه محظور عليهم المجىء إلى هنا، وفعلوا نفس الأمر مع الأثرياء والفقراء .

ووجدوا اثنين طيبين آخرين فضموهما إلى ذلك الرجل الطيب ، ولكن سرعان ما انتقل أحد الطيبين إلى الفقراء ، وانتقل الطيب الثانى إلى الأغبياء ، وبقى ذلك الرجل الطيب بمفرده ثانية .

وأصدروا أيضًا الكثير من القوانين واللوائح الأخرى وارتكبوا العديد من أعمال الحمق، وفى النهاية لم يكونوا يفعلون أى شىء آخر سوى مراقبة أنفسهم ، حتى هذا لم يكن من الممكن استمراره ففى أحد الأيام أصابهم جميعًا ببساطة الجمود ، وعدم الحركة ، حتى هذا لم يكن ممكنًا فتركوا المدينة الصغيرة، وانتقل كل منهم إلى أحد الأماكن وانهارت المدينة انهيارًا تامًا .

ولم يبق فقط فى المدينة إلا ذلك الرجل الطيب ، ولكنه هو أيضًا بقى لفترة صغيرة .

التوأم

فى غابر الزمان كان هناك رجل وامرأة وكان لهما ابن، وتوفى الرجل ، أما المرأة فأرادت أن تتزوج ، ولكن لم يكن بمقدورها بسبب ابنها، وعندئذ قالت : " من يقتل ابنى سأتزوج به !" وتواجد أحد الأشخاص وقام بإغواء ابنها بالذهاب إلى أجمة حيث قام بخنقه فيها، وحينذاك تزوجت المرأة بهذا الرجل .

وتزوجت وأنجبت، وإذ بها أنجبت طفلاً ذكراً ، ولكنه – اللهم احفظنا – مسخ .

وعانت الأم مع ابنها المسخ ، وفى كل ليلة يزور زوجها فى المنام ابن زوجته المقتول ، وكلما نما ذلك المسخ وكبر فإن ابن الزوجة أيضًا الذى يُرى فى المنام كانت تشتد قوته، ومع استمرار ظهوره فى المنام كان يزداد حجمه، إلى أن رآه الرجل ذات مرة فى منامه وكأنه عملاق . ولم يجرؤ على النوم ثلاث ليال ، ولكن النوم غلبه فى الليلة الرابعة، وما أن أعياه النوم حتى قال له ذلك العملاق – ابن زوجته :" لقد كنت أنتظرك هنا !" وعلى وجه السرعة أخذ يضغط بقدمه، ونظراً لأن

العملاق كان يخنقه فقد لفظ ذلك الرجل على الفور أنفاسه فى النوم ، وهكذا بقيت تلك المرأة بدون زوجها الثانى - القاتل .

وأخذ ذلك المسخ ، ابنها ، المغزل وفقأ عينى أمه ، وجمع كل الحاجيات الموجودة بالمنزل وباعها وانضم إلى قطاع الطرق، وجاء خلسة إلى أحد ينابيع المياه لكى يرتوى ، وإذ به يلمح فتاة شابة عند النبع ، وعلى الفور فتنته ، وفر هاربًا ونسى أن يرتوى من الماء .

وأفشت هذه الفتاة الشابة إلى أبيها وأمها بما حدث ، فأصاب أمها الغثيان ، ولما أفاقت - يا للعجب - فقدت صوابها، أما الأب فقد استل السيف وخرج للبحث عن المسخ لكى يقتله ، وفى إثره هب أناس آخرون أيضًا . وعثروا على المسخ فى الغابة فرجموه فى الأرض بالحجارة الصغيرة ورحلوا، إلا أنه أيضًا ذلك الرجل الذى كانت تلك هى ابنته ، هجر الحياة منذ ذلك الحين .

وأنجبت ابنته طفلة .

وتصادف مرور أحد التجار الرحالة فأخذها زوجة له ، وتبنى الابنة وكأنها ابنته ورحل عن ذلك المكان، وعاشوا هم هكذا وعاشوا وترعرعت ابنتهما فأصبحت حسناء ، وتزوجت الابنة زواجًا طيبًا وأنجبت ابنين توأم ، ولمَّا قامت بتربيتهما تحول واحد منهما أكثر فأكثر إلى مسخ ، وترعرع الابن الثانى فأصبح عملاقًا . وذلك العملاق يقتلع جذوع الأشجار من جذورها ، ولكنه لم يستطع على الإطلاق أن يوقع بالأخ

التوأم المسخ الذى لم يكن يصل إلى ركبتيه . وكان كل إنسان يتعجب من ذلك ، وكان العملاق طيباً ومطيعاً ، والمسخ شريراً وأخلاقه سيئة ولم يكن بمقدورهما على الإطلاق أن يتفقا فى الواقع ، وكلما يأتيان بأحد الأشخاص لكى يفصل بينهما لم يتمكن أى أحد من إرضائهما ، وفى النهاية تعهدا بأن يفصل بينهما أى شخص بدون عينين وأى شخص بدون عقل .

وجاءوا لهما بجدتيهما – وهما فعلتا ما تم طلبه منهما .

وكيف تم هذا ، بإمكان كل شخص أن يخمن هذا بسهولة .

أخ وأخت

كان هناك رجل وكانت له أخت، وتزوجت أخته هذه زيجة غير سعيدة وهذا أصاب الأخ بالحزن الشديد، واشتغل عاملاً بالأجرة عند أحد الأثرياء وقام بالخدمة عنده لما يزيد عن سنة بدون أى مقابل ، فقط لكى يجعل الثرى يحبه ويكتسب محبته على الأقل. وحين مضى ما يربو على السنة استدعى الثرى الشاب لمحادثته وسأله عن نوعية المكافأة التى سيمنحها له فى مقابل الخدمة الأمينة التى قام بها ، وأجابه الشاب بأن يناشده إنقاذ أخته وأن هذه ستكون أعظم مكافأة له ، وأنه لا يريد شيئًا لنفسه ، وأنه لا يحتاج إلى أى شيء .

ولما سمعه الثرى وفهم ما يراد منه ، أعرب عن رغبته فى أن يكون الأخ والأخت أيضًا أمام عينيه على الدوام ، وقال له :

- سأنقذ أختك وبعدئذ تعالى معها عندى .

ثم ذهب الثرى لكى يفرق بين الزوجين ، وإذ بالرجل هناك لايريد أن يطلق زوجته ولا فى مقابل أى قدر من النقود .

وقال الثرى لذلك الرجل :

حياتكما غير صالحة ، وأنت لا تريد أن تطلق أخته .

فقال الرجل :

لن أطلقها .

وحينذاك أخذه الثرى هو الآخر عنده فى القصر .

وألبس الأخ والأخت ملابس جميلة وأجلسهما بجانبه ، وأما ذلك الرجل فقد سمح له بالعمل عنده فى الاسطبلات ، وبعد فترة وجيزة استدعى هذا الرجل زوجته ، فخرجت له وقالت :

- لقد حصلت على ما تستحقه ، ولا تطلبنى بعد ذلك فلن أخرج لك.

وذهبت هى إلى ناحية ، وذهب هو إلى الناحية الأخرى .

وبعد قليل أصاب الشر عقل هذه المرأة التى يتعلق الأمر بها ، وأصابت الكآبة أخاها أيضًا بسبب عدم العمل وبينما كان هو يجلس وينظر إلى الأرض كانت هى تثور هائجة فى المنزل وكأنه منزلها الخاص، وفى النهاية خاطبت ذلك الثرى ، صاحب اليد البيضاء عليها ، قائلة :

- إنك فى ضلال كبير إذا كنت تظن أنك ستقوم باستغلالى !

ولما سمع أخوها هذا ركع على ركبتيه طالبًا الصفح لأخته من الثرى وقال :

– أنا ذاهب الآن لكى أحل محل زوجها فى الاسطبل ولكى أكفر عما قالته .

وذهب على وجه السرعة لكى يحل محل زوج أخته ولكنه هناك وجد أن الرجل اعتاد جيداً وأحب حبا شديداً عمل العلافة ولايريد أن يتركه.

ودفع ذلك الثرى بالمرأة الشرسة وقال :

– هيا أنت أيضاً معهما فى الاسطبل !

والتقى الثلاثة مع بعضهم . وهنا تصالحوا وشكروا الثرى ورحلوا عن هذا المكان .

الشجاع

كان ياما كان، كان هناك شجاع ، والشجاع كالشجاع !

إلا أنه حينما كان يستغرق فى النوم كان يرى فى منامه أنه يقاتل فى معركة شرسة ، غير أنه فى ذلك الحين ، فى المنام ، كانت تصيبه بندقية العدو أو ينفذ إليه أحد السهام ، أما هكذا ، فى حالة اليقظة ، فلا شىء يحدث !

وأصيب الشجاع بالضيق لأنه يلقى مصرعه فى المنام ، فأخذ يفكر ويتدبر ماذا يفعل وكيف يتصرف .

وقبل كل شىء نام ثانية واستسلم للأحلام ، وإذ بجماعة من أشرس الأعداء تهجم عليه لكى تقتله ، فاستل سيفه لأنه لا ينبغى المزاح مع العدو ولا حتى فى المنام ، إلا أنه بينما يصيب واحداً فى مقتل يقوم اثنان آخران بإصابته بجراح ، وبينما يقضى على هذين الاثنين كانت أمعاؤه تتساقط وفى أثناء ما كان بإحدى يديه يسند أمعاءه ... استيقظ فى تلك اللحظة .

– آه ، لو أمسكت بهم فى اليقظة ، أولاد الكلاب ، لحصلوا على مايستحقونه ! ولكن أقسم بأننى لن أحمل اسمى الذى أحمله لو لم أنتصر عليهم فى المنام أيضاً !

وراح فى النوم مرة أخرى ، وأخذ يضرب ويقاتل ويناضل ، ولكن تلاشت مهارته وقواه تلك ...

وفكر الشجاع المستيقظ قائلاً :

– إنه ليس بمقدورهم على هذا النحو أن يصيبونى بشىء ، فكيف يمكنهم وأنًا على ذلك النحو ، ولكن من الآن سأتصرف بطريقة مختلفة ، وليس لدى سبب للاستعجال فكل هذا ليس إلا خيال ، وإذا ما لقيت مصرعى فسأستيقظ.

واستغرق فى النوم مرة أخرى ، وهناك فعل كل شىء على النحو الذى تصوره ، وعلى مهل ودون عجلة قتل وشتت الأعداء.

ولم يكن مضطراً حتى لأن يستيقظ.

فيل الماموث

فى قديم الزمان حوالى عشرين ألف عام كان يعيش فى إحدى المغارات رسام وفنان، ولكنه لم يكن بمفرده فى هذه المغارة ، بل كان يعيش مع جماعة كبيرة من البشر البدائيين ، وكان بطبيعته يتملكه الخوف ولم يكن متميزاً فى الصيد ، إلا أنه لهذا السبب كان يرسم على جدران المغارة الجديان والأيائل وأفيال الماموث والثيران الأمريكية والجياد البرية والوعول ، وكان يتدثر بجلد رث وبال لأحد الحيوانات ، ونظراً لأنه كان يشق عليه أكثر من أفراد عشيرته تحمل الرائحة الكريهة ودخان الموقد فقد كان يتكور فى أقرب مكان من باب الخروج من المغارة ، وهنا أيضاً كان فى أغلب الأحيان يرتعد من البرد، وعند تقسيم الغنائم كان ينال نصيبه بقدر أسوأ من النساء والأطفال ، وكان غير بدين وضعيفاً، بيد أن عينيه كانتا ضخمتين مشرقتين ، وكانت نفسه تبتهج بالكتل الحجرية المستديرة وبالألوان البراقة نهاراً والسماء الحافلة بالنجوم ليلاً . وعلى الرغم من أنه كان متوغلاً فى الشيخوخة ، فقد كان يقترب من العام الثلاثين من عمره ، إلا أنه كان فى اشتياق من على بعد إلى فتاة برية ذات عينين شقراوين ، بيد أنه لم يقترب منها لأنها أيضاً مثل كل الأشياء الأخرى تابعة لزعيم القبيلة الفظيع ، ونظراً لأن البشر

البدائيين كانوا فى ذلك الحين قد تمكنوا من الكلام ففى أحد الأيام صاح زعيم القبيلة فى وجه الفنان قائلاً :

– أنت ! اتبعنى !

وأزاح الرسام جانبا فى غير رضًى أوعيته الصغيرة التى كان يعد فيها ألوانه من الصلصال والشحم والسناج والعظام المحترقة وسار فى إثر زعيم القبيلة طائعًا .

ولما وصلا إلى أحد الأماكن الناتئة لاح أمامهما فضاء وقطيع من عدة أفيال الماموث على البعد ، ومد زعيم القبيلة يده وتمتم قائلاً :

– أريد أن أقتل أكبرهم هذا ، أنت سترسمه ، ونحن سنأكل لحمه.

وعاد الرسام إلى المغارة لكى ينفذ أمر زعيمه ويساعد قبيلته بصورة ساحرة على التمكن من الغنيمة ، ولكن تحت ريشته وأصابعه المغموسة فى الألوان لم يتم على الإطلاق رسم فيل الماموث الذى رآه بل تم رسم قطيع من الجياد البرية التى كان يراها باستمرار فى منامه فى تلك الأيام والليالى .

وغضب زعيم القبيلة وقال :

– أنت لم ترسم ذلك الفيل ! سآكلك !

ولكن لحسن الحظ بعد عدة أيام تصادف بالفعل مرور قطيع من الجياد البرية وبسهولة حصلت القبيلة على غنيمة وفيرة .

الميت والخالد

ذات مرة كان هناك رجل وظن أنه خالد .

وكان هناك أيضاً رجل آخر وكان ينتظر في كل لحظة أن يموت.

والتقى الاثنان ، فقال ذلك الرجل الذى ينتظر أن يموت فى كل لحظة :

آه ، حقًا ، ماذا يستطيع المرء أن يبدأ فى عمله فى هذا العالم السخيف ؟

فقال له ذلك الرجل الخالد :

وأنا أيضاً أسأل نفس السؤال .

وسأل ذلك الرجل الميت :

وهل أنت أيضاً تنتظر الموت ؟

فأجاب الخالد بلا اكتراث :

أبداً يا رجل ، ماذا يخطر ببالك ، إننى خالد .

فقال الرجل الميت :

– لا شيء يشعرني بالسرور .

وقال الرجل الخالد :

– وأنا أيضاً لا شيء يشعرني بالبهجة .

فتساءل الرجل الميت قائلاً :

– ولكن كيف هذا، أنه لا شيء يشعرك بالسرور ؟

فأجاب الرجل الخالد بقوله :

– وأنا أيضاً أتساءل كيف هذا وأنه لا شيء يشعرك بالبهجة ؟

فقد رأسه بأمانة

فى سالف الزمان كان هناك رجل يقوم بكل شىء بأمانة ، وأى شىء يفعله يفعله بأمانة .

كان يفكر بأمانة ، ويعمل بأمانة ، ويتصرف بأمانة، والناس الآخرون ليسوا على حد سواء ، أما هو فيتصرف بأمانة .

يشرع فى عمل شىء ، فإن لم يكن بمقدوره أن يعمله بأمانة فهو يعدل عن ذلك ، وهو على الدوام فى خسران ...

وكان الناس يقولون له :

- لا ينبغى أن يكون بالضبط كل شىء من أوله لآخره بأمانة . يمكن تنفيذ قليل من الأمور على ذلك النحو ...

وقال :

- ليكن ، كل واحد يعرف عمله . أنا سأفعل على هذا النحو ، وأنتم تفعلون كيفما تريدون ...

كان يتمسك بالأمانة بطريقة عجيبة ...

وسمع بأمره السلطان فاستدعاه .

وجاء الرجل إلى السلطان وقال له :

السلام عليكم !

فقال السلطان :

وعليكم السلام ! كيف حالك ؟

فى حالة طيبة . وكيف حال عظمتك أيها السلطان ؟

وقال السلطان :

أنا بخير . ولكن هل تعرف لماذا استدعيتك ؟

فأجاب الرجل دون تردد قائلاً :

بسبب أمانتى !

ورد السلطان بقوله :

بالضبط . ولكن قل لى يا أخى إلى متى تنوى أن تستمر على هذا النحو ؟

إلى قدر ما أستطيع .

وقال السلطان :

أها ! وماذا تعتقد هل أنا أمين ؟

فقال ذلك الرجل :

لست أمينًا !

وكيف علمت ؟

لو كنت أمينًا لما سألتنى .

فقال السلطان :

آها .

ثم استطرد سائلاً :

ألست أنا السلطان ؟

بلى .

وهل من الأمانة أن توجه إهانة إلى السلطان ؟

ليس من الأمانة .

وأنت قلت إننى لست أمينًا ؟

قلت .

وهكذا وجهت إلىّ إهانة !

فقال الرجل فى أسف :

أجل .

وبناءً على ذلك لم تعد أمينًا .

واعترف الرجل فى حزن قائلاً :

صحيح أيها السلطان المجيد .

فقال السلطان :

والآن سأقطع رأسك !

فرد الرجل قائلاً :

وأنا أستحق .

فقطع السلطان رأسه بأمانة .

الخـــادم

كان هناك أيضًا رجل ، ولكن في قديم الزمـان ، يدعى جروباتش ، وكان يقوم بخدمة السيد، وظل يقوم بخدمته ويخدمه خدمة طيبة للغاية بحيث لا يمكن وصف ذلك . وكان سيده بتتشيتشيڤتيش شـخصًا مخنثًا، أما الخادم جروباتش فقد كان وغدًا وشنيعًا وقبيحًا، وعلى الرغم من ذلك فقد كان يعرف كل ما يحتاجه سيده في أية دقيقة وأية لحظة. وكانوا قد عـرضـوا عليـه نقـودًا لكي ينتـقل إلى العـمل عند شـخص آخـر إلا أن جروباتش لم يشـأ ولا أن يسمع ، يبدو أنه كان يحب سيده ، ولم يرغب في الرحيل عنه، وعرضوا على هذا السيد سبعة خدم آخرين في مقابل هذا الخادم ، وحتى هذا لم يفرط فيه .

وحينما توفي ترك له كل شيء ، فتملك جروباتش الأمـلاك وأصبح صـاحب أملاك .

وعلى الفور استأجر شخصًا يدعى ماركان لكي يقوم ماركان في الوقت الحـاضـر بخـدمـة جـروباتش كـمـا كـان جـروباتش يخـدم بتيتشيتشيڤيتش ، ولكن بقدر ما كان ماركان هذا يجتهد في عمله فلم

يكن بمقدوره أن يرضى جروباتش على الإطلاق، وكلما يشرع فى عمل شيء يصححه جروباتش على الفور بقوله :

– ليس هكذا وإنما على هذا النحو ...

ويقول له مائة مرة فى اليوم : ليس هكذا ، وإنما على هذا النحو .

وقال له الكثير من الكلمات المهينة :

– أيها القذر ، الكسول ، الطفيلى ، الطائش ، صاحب الكأس والطاس ...

ويشرع فى ضربه بينما ماركان يضحك ، وبعد ذلك يذهب ويشرب حتى يصبح ثملاً، وفى النهاية فإن جروباتش وهو يهرول فى إثر ماركان ويعلمه كيف يقوم بالخدمة بدا كأنه يعمل خادمًا مرة أخرى ، ولم يكن يتميز كثيرًا عن ماركان إلا ربما بملابسه ، وجلس قليلاً وعاش عيشة السيد ، وترك ماركان يعمل وفقًا لمشيئته ، إلا أنه لم يتحمل لفترة طويلة .

وقال له فى إحدى المرات :

هيا ، ها هو ، اجلس فى مكانى وأنا سأقوم بخدمتك ، وأنت شاهد ... !

وجلس ماركان لكى يصدر الأوامر ، فيقول أعطنى هذا، وأعطنى ذاك ، ونال الأمر إعجابه ، ولكن لما قال له جروباتش بعد عدة أيام :

إيه ، كفى الآن ، انزل وقم بالخدمة .

نسى ماركان حتى ذلك الذى كان يعرفه .

وعندئذ استشاط جروباتش غضبًا وقام بضرب ماركان وإيلامه ومعاقبته بحيث كان من العسير رؤية ذلك .

وسألوا جروباتش بقولهم :

لماذا لا تطرده :

والتزم جروباتش الصمت فحسب .

وسأل الناس ماركان بقولهم :

لماذا لا تهرب ؟

فقال ماركان :

إنه طيب ...

وفى النهاية يبدو أن التعب أصاب جروباتش ، فلم يعد يضرب ماركان ، إلا أنه أيضًا لم يستطع أن يرضى بهذا الأمر ، وقاد ماركان إلى إقطاعى يدعى كوساتشا ، وعمل بالأجرة لكى يقوم بخدمة كوساتشا ، ولكى يشاهد ماركان، وقام جروباتش بخدمة كوساتشا كما كان من قبل يخدم بتيتشيتشقيتش ، ولكن هذا لا يكترث بخدمته أو عدم

خدمته ... ولما لم يتعلم ماركان حتى هنا أى شىء قام جروباتش بطرده ، وأعطى كل ما تركه له بتيتشيتشڤيتش إلى العمال لكى يقيموا ضريحًا وتمثالاً لبتيتشيتشڤيتش . وقضى باقى عمره ينبش عن شىء حول هذا التمثال ويطوف حول هذا الضريح .

القديس والأمير

كان ياما كان ، كان هناك أمير يسيطر على كل شيء ، وفي مملكته هذه كان يحيا قديس يدعى "يو" حياة متوارية ومتواضعة على إحدى الأشجار .

وكان الأمير حاكمًا قويا ، ويتولى الإشراف على كل شيء وعلى الأشياء التابعة لأي أحد ، وعلى الناس والحاجيات ، وعلى الجياد والعربات، وعلى الحقول والمروج والغابات ، وتمتد سلطته إلى جميع الأشياء . فالبط يسبح - على حد القول - وفقًا لمشيئته ، ونوات الأظلاف تذهب إلى المراعي وتتناول أوراق الأشجار وفقًا لأوامره إذا جاز التعبير ، وكان كل شيء يعيش تحت رعايته ، وجميع الأحياء يتنفسون وفقًا لرغبته. ويتساهل في بعض الأحيان ، ثم ينصت كيف يتنفس ذلك الذي يتنفس وهكذا ... وفي المساء ، وفي القصر كان يقيم الولائم بالراقصات ، وبالإجمال كان يعيش مثل أحد الملوك ، وعلى الرغم من ذلك كان في أعماق نفسه غير سعيد وغير راض .

أما القديس "يو" فقد كان يشرب مياه الأمطار ويلعق الندى من على أوراق الأشجار ويأكل ثمار برقوق السياج ، ويتخلى عن الحياة كلها

ويقضى الأيام والليالى فى الصلاة والصيام ويتأمل فى السحب ، وتثير النجوم ألمه، وكان قديسًا يحظى بشهرة واسعة، ومع ذلك ففى أعماق نفسه كان لون من عدم الرضى يؤنبه ويضايقه .

وفى إحدى الليالى ، لكى يتحاشى بشكل مؤكد حصار قوى الشر والشياطين له ،احتضن القديس "يو" أرفع غصن من الأغصان فى شجرته حتى يعذب الجسد بعدم النوم ، وفى نفس اللحظة همس له الغصن الموجود تحته ونطق قائلاً :

– اذهب إلى الأمير !

وقال " يو " وهو مستند على الغصن :

– أنت تعرف أن هذا الفاسق هو آخر شخص أذهب إليه !

وكان الغصن مصرًا فقال :

– اذهب إليه من أجل هذا بالذات !

والأمير الذى كان فى هذا المساء قد احتسى فى الوليمة عشرة لترات من الخمر وبعد ذلك ضاجع عشر فتيات ثم رقد على الحشايا الحريرية لكى ينام ، لم يستطع أن يغمض عينًا وكان يتقلب ، ويتقلب باستمرار ، وبكلتا يديه يضرب السرير حوله ، وإذ بهذا الحرير الموجود تحته ينتحب بصوت بشرى وبكلمات جلية قائلاً :

- اذهب إلى القديس "يو" ، اذهب إلى القديس "يو" !

- إلى من أذهب ؟

هكذا همس الأمير وبصعوبة تلفظ بشتمة بغيضة عبر شفتيه المنتفختين واستطرد قائلاً :

- هل أذهب إلى غراب البين هذا ، المنذر بالشؤم الصعلوك الذى يعيش على الشجرة ؟ هذا هو الشخص الأخير فى هذا العالم الذى أذهب إليه !

وقال الحرير فى نواح :

- اذهب إليه ، إليه .

ووقع الأمير فى حيرة ، ونهض وجهز نفسه ، وخفية حتى لا يراه أحد خرج متسللاً من القصر وتوجه نحو الشجرة ، وهبط القديس "يو" أيضاً على غصن الشجرة وتوجه صوب الأمير للقائه ، والتقيا بمكان من الأماكن فى الحقل فى منتصف الطريق وتوقفا ، وأول شىء خطر ببال الأمير هو أن يقتل القديس هنا فى التو بالسيف ، وأول شىء دار بخلد القديس حينما لمح الأمير هو أن يقوم فى الحال بصب اللعنات عليه وتكفيره، إلا أن كلاهما كبح خواطره .

وقال الأمير :

- ها هو ، أنا جئت إليك ...

فأجاب "يو" قائلاً :

وأنا أيضاً حضرت إليك .

وسأله الأمير بقوله :

– لماذا حضرت إلىّ أنا بالذات ....؟

ولم يتساهل "يو" وقال :

– ولماذا جئت إلىّ أنا بالذات ؟

ثم توقفا وتملكهما الصمت .

ولا يوجد الحرير تحت الأمير لكى يوجه إليه النصح ، ولا يوجد الغصن تحت "يو" لكى يقدم له توجيهاً .

وقال "يو" :

– لا يمكن القول بالضبط إنك جئت إلىّ ..!

ورد الأمير بغضب قائلاً :

– ولا يمكن ، حقًا ، القول بأنك حضرت إلىّ أنا !

وعندئذ ، فى منتصف الليل وفى وسط الحقل ، أخذا يتشاجران ويتجادلان .

وفى النهاية انصرف كل منهما عن الآخر، ولكى يعاقب "يو" نفسه تسلق إلى أرفع أغصان الشجرة ، لا يستطيع إلا العصفور أن ينام عليه ، واستغرق فى النوم ، وما أن استغرق فى النوم حتى تحطم غصن الشجرة وسقط "يو" ولقى مصرعه، أما الأمير فقد ذهب إلى قصره ووضع كل الحرير الثقيل فوقه وتحته ، وفى الصباح إذ بالحرير قد أصابه بالاختناق !

والشعب الحكيم قام بتبجيل الاثنين .

رجل تافه

فى قديم الزمان كان هناك رجل وكانت له زوجة وابنة، وكانتا هما الاثنتان ساحرتين، وكان الرجل يعمل ويأتى يدخل إلى منزله مثل باقى الناس ، ولكن كلما يدخل إلى منزله يعتصره أحد الكوابيس، وعندئذ يهرب من منزله .

وعثر على شخص متزوج فأخذ يشكو له نصف الشكاية فى مزاح ونصفها فى جدية ، ولكنه كان يشتكى عن كذا وكذا ... ووجد شخصًا فى حالة سكر شديدة من العرقى ، وقال مدمدمًا بصوت جهورى :

– تجلس زوجتى فى أحد الأركان ، وابنتى فى ركن آخر ، وحماتى فى ركن ثالث ، وأنا فى الركن الرابع ، وفى وقت واحد ينطلق الثلاثة كلهن من الأركان الثلاثة صوب الركن الذى أنا فيه وقد تحولن إلى قطط ، وأخذن فى التسلل ، وحينما يقتربن تمام الاقتراب أطلق أنا صيحة : هش ! وهن يلذن بالفرار إلى الوراء . وهكذا باستمرار ، وبعد قليل يتجهن نحوى ثانية ، وأنا أصيح مرة أخرى : هش ! فيعدن إلى الوراء ثانية .

وجاء الرجل إلى منزله وألقى التحية فقالت له زوجته :

مياو !

وقالت ابنته نفس الشىء :

مياو أيها العجوز .

وسأل الرجل قائلاً :

ماذا بكما ؟

وهما تضحكان.

وجلسوا لتناول طعام العشاء ، والطعام دسم ، وغاية فى الدسامة .

وسأل الرجل فى دهشة قائلاً :

– ما هذا ؟ إنكما تعلمان أننى لا أتناول الأطعمة الدسمة .

فأجابت عليه زوجته قائلة :

– نحن هنا نحرم أنفسنا من كل شىء ، وأنت تأتى وتكثر فى طلباتك ، إذا لم يكن يعجبك فلا تأكله ... !

وذهب الرجل إلى النوم وهو جائع .

وإذ به فى الغد تقول له زوجته :

لابد من تنفيض السجادة من التراب !

وحمل الرجل السجادة ، أما زوجته فقد أمسكت به من إحدى ساقيه وابنته من ساقه الأخرى وأخذتا تنفضان به السجادة ، واستمرتا فى التنفيض ، وبعد أن انتهيتا من التنفيض لف الرجل ثانية السجادة ودخل المنزل وقد علاه كله التراب وشعر وكأنه مضروب ضربًا مبرحًا دون أن يعلم ماذا حدث له .

وذهب إلى عمله ، وكان يشتغل بالأحجار ، أما زوجته وابنته فقد قامتا بدعوة كل أولئك الرجال الفاسقين من الجيران وأخذتا تأكلان معهم وتشربان وتمرحان وتفعلان أمورًا قبيحة وتتفاهمان معهم بألفاظ بذئيه ...

وقبيل المساء عاد الرجل إلى منزله فوجد الفوضى تسود المنزل كله ، وزوجته وابنته مستغرقتان فى النوم على الأرض .

وصاح قائلاً :

- ما هذا ... !

وتنبهتا من النوم وأخذتا تستغيثان : وكأنه فى أثناء غيابه جاء بعض الرجال وأثاروا الفوضى بالمنزل كله، وتوجه الرجل إلى الشرطة وذكر أن الأمر كذا وكذا ، ورجال الشرطة أيضًا يعرفون حقيقة الأمر...

وقال الرجل :

- سيقبضون عليهم . سيتم القبض عليهم كلهم وشنقهم ...!

وقـامت زوجـتـه وابنتـه بتـرتيب المنزل ، وتظاهرتا بالبكاء بينمـا تبتسمان من وراء المناديل .

وهكذا كانتا تفعلان به ماتريدان وهو يشعر بضيق شديد فى نفسه لايمكن وصـفـه ، ولكنه لم يفطن أبدًا لسـبب ذلك وأخـيرًا جـاءه شـخص كـصـاحب وصـديق له ، وأخـذ يهـمس فى أذنه بشىء ، ويدير عـينيـه باستمرار ويلتفت برأسه ليرى ما إذا كان أى أحد ينظر إليه - قائلاً :

- اذهب يا صاحبى ، اهرب ، اترك لهما كل شىء .... !

إلا أن الرجل لم يطعـه . وفى النهـاية جـعلتـه زوجتـه وابنتـه مـثل الخـرقة، وفى البداية أبقتاه من الداخل عند الباب لكى لا يشاهده الناس ، وبعد ذلك بسطتاه علينا أمـام البـاب، وهكذا عـاش تافهًا ، مثل الخـرقة، بقدر ما استطاع ثم لفظ أنفاسه .

ولم يفعل لهما أحد شيئًا .

العـــراف

كان هناك شخص يدعى أوزوجوروڤيتش من بلدة أوراهوڤيتسا الواقعة فى المنطقة التى تعلو بلدة چيبتشة ، وكان يعرف كل شىء مقدمًا.

كان يعلم كل الأمور مسبقًا .

وكلما جاءه شخص وسأله عما ينتظره فى الحياة قال له وتنبأ له وينصرف هذا الشخص وإذ بالفعل يتحقق الأمر على هذا النحو .

وذاع صيت أوزوجوروڤيتش فى أقصى الأنحاء ، فقام بتأجير تلك القطعة الصغيرة من الأرض التى كان يمتلكها وراح لا يشتغل إلا بالدجل .

وعلى هذا النحو تأتى فتاة ، وهو يلف حولها متمتمًا بقوله :

– أناجا – باناجا . ستتزوجين من شخص صغير السن وضعيف.

وتوجهت إلى قريتها وإذ بهم هناك يزوجونها من شاب لم يبلغ من العمر اثنى عشر عاما .

وجاءت ثانية إلى أوزوجوروفيتش وسألته قائلة :

– ماذا سيكون من أمرى ؟

فقال لها :

ستقفزين من على جبل أورلوفيكا إلى نهر البوسنة وتغرقين .

وعادت المرأة إلى قريتها، وسألوها :

ماذا قال لك ؟

كذا وكذا.

وكيف ستقفزين من على جبل أورلوفيكا ؟

لا أعرف .

وصعدت إلى قمة جبل أورلوفيكا وقامت بالقفز ، وإذ فى نفس اللحظة بثلاثة نسور وسبعة صقور ينطلقن طيرانًا من جبل يليتش ويمسكن بمخالبهن بالمرأة من ثيابها ، وحملوها إلى ما فوق منطقة كابين توتشاك وتركوها تسقط فى مياه نهر البوسنة .

وحزن الناس حزنًا بالغًا ، وبالرغم من ذلك تزايدت أكثر شهرة أوزوجوروفيتش .

وهكذا جاءه رجل ثرى ، وقال له أوزوجوروفيتش :

أنت رجل ثرى ؟

فرد ذلك الشخص قائلاً :

نعم .

فقال أورزوجوروڤيتش :

لن تصبح غنياً بعد ذلك .

أهكذا ؟

هكذا بالضبط .

وإلى متى ؟

إلى ما بعد الغد !

حقًّا لن يحدث كما تقول أنت .

وتملك الثرى العناد ، وقام فى هذا اليوم حتى وقت الظهر بتوزيع كل ما كان يملكه على الفقراء

وما إن حدث هذا حتى جاء أورزوجوروڤيتش مهرولاً وصاح قائلاً:

– ليس إلى ما بعد الغد ، بل اليوم !

وهكذا تنبأ بهذا أيضاً .

وجاءه رجل ، ولم يطمئن بعد فى الدخول حتى بادره أوزوجوروڤيتش فى التو بقوله .

لقد جئت لكى تقتل الباشا !

وتعجب القاتل قائلاً :

آه . وأنا كنت أنوى قتلك !

وتعجل الاثنان ، ولكن القاتل كان أسرع ، وقتل الباشا .

ومنذ ذلك الحين ابتعد الناس عن أوزوجوروڤيتش ، فلم يذهب إليه أحد ، ولم يستقبل هو أحدًا .

ولم تمض فترة طويلة حتى ذهب أوزوجوروڤيتش إلى القاضى وقال له :

– أنا المسئول عن قتل الباشا .

– كيف تكون مسئولاً ؟

الأمر كذا وكذا .

وأثبت بالأدلة .

الموت على الباب

كان ياما كان ، كان هناك رجل وأحس بشيء يجثم على صدره من هنا ومن هناك ، ونظر وفكر ما إذا كان بإمكانه أن يهرب بأية طريقة ، ولكنه رأى أنه ليس بمقدوره ، فلا يوجد مكان يفر إليه .

لو كان لديه على نحو ما الكثير من النقود لربما كان من الممكن.

وكان الوقت ليلاً، فرفع رأسه نحو السماء الصافية بينما جميع النجوم الصغيرة والكبيرة أيضًا تقوم بالارتجاج والإثارة فى مكانها بضوء سيال ، هيا أمسك بها !

إنه يهوى لقد كان يهوى ، ويغض النظر عن كل شيء آخر كان ينقذ نفسه بصعوبة بالغة ، أن يسقط ثانية ، ليست به رغبة فى السقوط .

وليس بمستطاعه الصعود إلى أعلى، ولا يريد أن يهبط إلى أسفل، والضيق يحاصره من هنا ومن هناك .

إنه يفكر فى شيء ، إلا أن الأمر ينتهى بصورة مخالفة .

وفى النهاية أخذ يستدعى الموت .

وحتى لايكون الموت كسولاً ، وضع الإزار على عظامه وأمسك بالمنجل فى يده ، وهرع إلى هذا الرجل عند بابه .

- من ؟

- أنا !

- من أنت ؟

- أنا الموت .

- أى موت ؟!

- ماذا تريد ؟

- لقد طلبتنى !

فقال الرجل :

- ولكنى ، فعلت هذا هكذا .

وفى هذه اللحظة ظهرت كل حياته أمام عينيه .

والحياة هنا والموت هناك ، وهو فى الوسط بينهما، ومضت الحياة وجاء الموت ، والحياة لا تعود والموت لا ينصرف .

ولم يعد موجوداً فى أى مكان ذلك الشىء الذى كان يجثم على صدره من هنا ومن هناك أيضاً ، وكأنه قد تلاشى فى الأرض.

وعندئذ استند على الباب بكل قوته حتى لا يدخل الموت إلى منزله.

وفكر الرجل قائلاً :

– لو أننى تذكرت ما هو ذلك الشىء الذى كان يجثم على صدرى بهذا النحو لما كان الضرر كبيراً :

وصاح الرجل :

– انصرف عنى أيها الموت !

وذهب الموت إلى شخص آخر ، وراح ذلك الذى كان يجثم على صدره إلى شخص ثالث ، وعادت هذه الحكاية إلى بدايتها .

الاجتمـــاع

فى غابر الزمان كان هناك رجل عادى تمامًا ، ولكن كان عليه أن يعيش ، وهذا هو كل ما فى الأمر . وكان هناك أيضًا رجل آخر ، وهو كذلك مشابه لذلك الرجل ، ولكن على نحو مختلف قليلاً، وبالقرب منهما يوجد رجل ثالث كان يعيش بمفرده ، ولم يكن يُعرف عنه شىء ، لا من هو ولا ماذا يعمل ، وذهب هذان الاثنان إلى ذلك الرجل الأخير وقاما بالقرع على بابه : تك ، تك !

- من ؟

- نحن .

- من أنتم ؟

- افتح وسترى .

- لن أفتح !

- افتح !

- لن أفتح !

– افتح !

– لن أفتح !

واقتحما الباب . وإذ هناك هذا الرجل أيضًا مثلهما ، عاقل ومتواضع .

وخرج الثلاثة الآن ، وما أن خرجوا حتى قابلوا شخصًا آخر مثلهم أيضًا .

– السلام عليكم .

– وعليكم السلام .

– كيف حالك ؟

– حسن .

– إلى أين أنت ذاهب ؟

– لا شأن لكم بذلك .

– هيا معنا .

– إلى أين ... ؟

– سترى .

– لن أذهب !

- ستذهب ! ...

وذهب معهم هذا الرجل أيضاً .

وساروا هكذا ، واستمروا فى السير ، وإذ بهم يلتقون بأشخاص مثلهم ، وكان عددهم يبلغ حوالى من ثلاثمائة إلى ثلاثمائة وخمسين ، إن لم يكن أكثر من ذلك، وكان هذا كأحد الاجتماعات . وثارت ضجة هائلة، وبعدئذ راحوا يتبادلون العناق والقبلات .

- من أين جئتم ؟

- ها هو ، جئنا مصادفة .

- مصادفة ؟

- مصادفة .

وظلوا هكذا هنا حتى حلول الظلام ، وبعدئذ ذهب ثانية كل شخص إلى وجهته .

الشخصية الشعبية البارزة

كان هناك رجل فقال :

- الوداع أيها الشعب ، إننى راحل !

- إلى أين ستذهب ؟

فقال

- سأرحل !

- فماذا ستفعل ؟

قال :

- حسن . سأعيش في عزلة.

- وكيف ستعيش فى عزلة ؟

فقال :

- سأصعد إلى أعلى !

وحينذاك تركه الشعب ، وهو صعد إلى أعلى .

وأخذ هذا الرجل يصيح من علٍ قائلاً :

- هيه ، أيها الشعب ! كيف الحال ؟

فقال الشعب :

- على ما يرام . وكيف حالك أنت ؟

- أفضل ، على أفضل ما يرام ...

فصاح الشعب قائلاً :

- انزل يا صاحبنا قليلاً ...

ونزل إلى أسفل بين أفراد الشعب وقال :

- ها أنذا !

فقال الشعب :

- هيا بنا نحكى .

ووقفا هنا وانطلقا فى الحكى .

- ولماذا تركتنا يا صاحبنا ؟

فقال ذلك الرجل الذى صعد إلى أعلى :

- لقد أصابنى قليل من الحزن .

- وكيف حدث هذا ؟

فقال :

– هكذا وهكذا .. جثم شىء على صدرى وقلت سأترك الشعب .

فسأل الشعب قائلاً :

– وكيف حدث هذا ؟

– كنت حزينًا ، وكان هناك شىء يجثم على صدرى ، ونوع من الحزن بقلبى ، فقلت : سأصعد إلى أعلى وأترك الشعب .

– أهكذا الأمر ؟

– أجل ، هكذا .

– وهل كنت مضطراً بالضبط ؟

– كنت مضطراً .

– والآن جئت قليلاً ؟

– أجل جئت ...

العـــــدو

كان هناك رجل وكان له صديق وعدو .

وكان - حقيقة - يتفق مع صديقه ، ولكن أينما يتحرك يجد العدو أمام عينيه .

وأراد أن يغفو وقد تملكه الإنهاك بسبب تفكيره فى العدو أكثر من تعبه من العمل ، والنوم لا يريد أن يلامس عينيه على الإطلاق، بالضبط وكأن العدو خفىٌ يتسلل إليه ويقدميه ويديه كذلك يحطم منامه توًا وهو فى بدايته، وكلما تقدم الليل أكثر وسيطر الإرهاق فإن الصورة البغيضة الماثلة تمامًا تطأ بعنف أكثر وتحطم الأحلام إلى جزئيات متناثرة ، وتحولها إلى كابوس، وحتى النهار الرائق يثقل كاهل الرجل فضلاً عن قضاء ليلة الهول وبترها بالسكين غير الحاد للبصيرة، وهكذا التصق العدو حول رقبة هذا الشخص كالكابوس، وينهض فى الصباح وهو مثخن بالرضوض من جراء الليلة المحطمة، وحتى ذلك القدح من الشاى الذى يدنيه من شفتيه لكى ينتعش به ويستجمع قواه قليلاً كان يقتسمه مع عدوه .

وهكذا نهاراً وليلاً .

وحينما يلمحه فجأة من على البعد يرتعد بكل جسده من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، وبعد انكماشه حول عظامه فحسب كان يتقهقر وهو يرفع رأسه عالياً وينحيها جانباً وقد تملكه السرور بأن عدوه قد صغر حجمه عمّا كان عليه أول أمس بينما كان يقوم بالتثنى والمجاهدة فى سريره .

وسأله صديقه :

– ماذا بك ياصديقى العزيز ؟

– أفكر فى العدو .

– دعك من العدو ، وانظر إلى الصديق !

ولكن الصديق لم يكن يرى صديقه ، فقد كانت عيناه غائمتين وداميتين، وفى كلتا عينيه كان يسكن العدو ويحجب بصره عن صديقه.

المعطف الفرو

كانت ياما كانت هناك امرأة، وكانت تمتلك معطفًا من الفرو، وفى كل مكان كانت إما تلاحقها أو تنتظرها نظرات حافلة بالحسد والإعجاب، إلا أن أحدًا لم يستطع أن يتبين وجهها، ولذلك كانوا يطلقون عليها اسم " تلك المرأة التى ترتدى معطفًا من الفرو ".

وحينما كانت المرأة تذهب إلى عشيقها كانت تخلع المعطف، وبينما كانت تتبادل العناق والقبلات كان المعطف الفرو ملقًى على الكنبة يرقد وينتظر بلا حراك ، وفى النهاية يمسك العشيق بالمعطف ثم يقوم بمعانقتهما وملاطفتهما معًا .

وذات مرة حدثت لهذه المرأة على نحو ما فضيحة وهى مرتدية المعطف الفرو ، ولم يكن المعطف الفرو يعرف أنها تعرضت لفضيحة ، إلا أن المرأة كانت تشعر بالحرج بسبب المعطف الفرو .

وأيًا كان الحال فقد اختفت المرأة بعد ذلك ، ولم يعد يراها أحد ، ولا رأى أحد المعطف الفرو بعدئذ ، واختلفت الحكايات بشأن هذا الأمر .

وقــال بعض الناس إن المرأة قـد بـاعت المعطف الفـرو وإنه لم يعـد أحد الآن يلاحظـهـا على الرغـم من أنــهـا مـسـتـمـرة كل يـوم فى المـرور بالقـرب منهم .

وقال البعض الآخر إن المرأة بعد افتضاحها مقتت المعطف الفرو وألقت به .

وقال نفر ثالث إنـهم سـمـعوا المرأة التى ترتدى المعطف الفرو وهى تتحدث حديثًا رقيقًا .

وروى فـريق رابع أنهـمـا كليـهـمـا رحـلا إلى أحـد الأمـاكن حـيث لايعرفهما أحد ....

رجل بلا ظل

كان ياما كان فى سالف الزمان رجل، وكان يأخذ لنفسه كل مايراه، يرى منزلاً فيشتريه ، ويلمح فتاة فيتزوجها ، ويبصر حصانًا فيركبه . وكل شىء على هذا النحو، كلما يرى شيئًا يستولى عليه كله لنفسه .

وهكذا جمع كثيرًا من الأشياء والمتنوعات ، ولكنه حينما تفحص بشكل أفضل كل هذا الذى يمتلكه تهيأ له أنه ينقصه شىء ما، وعندئذ هب ثانية على قدميه وأخذ على مهل يسير ويستولى . وإذا لم يكن يستطيع أن يفعل هذا بيديه كان يفعله بساقيه ، وإذا لم يكن قادرًا على أن يفعل هذا بساقيه كان يفعله بعينيه .

ومثلما فعل فى هذا اليوم قام بالشىء نفسه أيضًا فى الغد، وكما كان فى الغد فعل نفس الشىء بعد غد أيضًا، وكما حدث فى بعد الغد قام بنفس الأمر فى اليوم الذى يليه .

ولكن كلما توقف قليلاً والتقط أنفاسه يجد على الدوام شيئًا ينقصه .

والنهـاية تذكـر أن هذا الذى ينقصـه هو شىء مـشـابه له ، فراح يستولى ويجلب كل ما يشبهه ولو شبهاً ضئيلاً ، ولكن تملكه مرة أخرى عدم الرضى .

وإذ به ، هكذا يبدو ، ليس له ظل .

الخلق الفاسد

كان ياما كان فى سالف الأزمان قاطع طريق مشهور شهرة واسعة بشروره وطغيانه، فقد كان يستعبد الناس ويشعل الحرائق ، ويقتل ويسلب ، ولكن لم تصبه بسوء أية مطاردة ، ولم تشأ حتى الرصاصة أن تنال منه، وعلاوة على ذلك تجمعت حوله زمرة من الأصحاب أبناء لآباء شريرين وأمهات أسوأ ، وكانت تقوم بحمايته، من يدرى إلى متى كان سيستمر الأمر على هذا النحو لو لم يقع قاطع الطريق فى غرام إحدى الفتيات ، وهى هامت به حباً ، أصبحت هذه الفتاة أيضًا ، مثل أية فتاة ، غاية فى السعادة، وتخلى قاطع الطريق عن سلاحه وتعهد بألا يرتكب بعد ذلك أية شرور ، بل ولايقوم إلا بممارسة الحب .

وما قاله قام بتنفيذه، وتفرقت على الفور عصابته تلك ، وتم القبض على بعض منهم وهرب البعض .

وبقى هو فى الجبل مع فتاته هذه ، ونظراً لأنه لم تجر بعد ذلك مطاردته مطاردة كبيرة فقد عاش هو وفتاته ثلاث سنوات فى الحب عيشة لايمكن أن يكون لها مثيل فى الجمال .

وبعد ذلك ظهر قطاع الطرق مرة أخرى ، أشد سوءًا مما كانوا من قبل ، تقودهم إحدى النساء المتوحشات تعتلى جوادًا، وكانت هذه المرأة هى تلك التى كان قاطع الطريق يمارس الحب معها، وحيث إنهما كانا باستمرار يتبادلان العناق والمداعبة فقد انتقل إليها كل الخلق الفاسد الشرير الموجود لدى قاطع الطريق ، وتملكها مس من الهوس وأبعدت عن نفسها حبيبها قاطع الطريق. وراح يتجول فى الغابة وتملكه الأسى ولم يستطع أيضًا حتى البقاء فى الغابة لأن قطاع الطرق كانوا يسخرون منه ، وعلى الأخص تلك المرأة التى كانت له ذات يوم حبيبة وفية .

وهكذا اضطر إلى الرحيل إلى بلد غريب .

علاج للحب

كان ياما كان فى قديم الزمان فتاة على قدر كبير من الجمال لدرجة أن جميع من كانوا برونها كانوا فى التو ينسون متاعبهم، وكل شىء بها كان غاية فى الروعة بحيث إنه لا يمكن على الإطلاق وصفه بأية كلمات، وكل شخص كان يهتم بهذه الحسناء ويتصرف معها تصرفاً حسناً بيد أنه لم يكن أحد يعلم أنها فى شبابها المبكر أصيبت بمرض شديد، ولم يكن هذا ملاحظاً ، وهى أيضاً لم تقل لأحد .

ووقعت الفتاة فى حب شاب مماثل لها فى السن وحسن المنظر تماماً، وهو أيضاً حينما كان لا يزال شاباً صغيراً أصيب بمرض مميت ، بنفس ذلك المرض الذى أصيبت أيضاً به عروسه المقبلة ولم تتم ملاحظة هذا عليه .

وتزوجا وكان حفل الزفاف رائعاً لدرجة أنه حتى يومنا هذا يجرى سرد الحكايات عن حفل الزفاف هذا .

ثم أخذا يبحثان عن الدواء ، وذهبا إلى امرأة عجوز لكى تعد لهما دواءً من أعشاب الجبال ، إلا أنها قالت لهما إنه لا يوجد علاج لمرضهما

إلا الحب بلا حدود، وأخذا يتبادلان الحب أكثر مما كانا يفعلان حتى ذلك الحين ، ولكنهما لم يتماثلا للشفاء على الإطلاق .

وسألها :

– هل ما زالت مريضة بالمرض المميت ؟

فردت عليه قائلة :

وهل مازلت أنت ؟

فقال :

– نعم .

فردت هى بقولها :

– أجل، وأنا أيضًا .

ومر من هنا حينذاك أحد الإقطاعيين ، وكانت كل هذه الأرض ملكًا له فجذبت انتباهه تلك الفتاة الشابة لأن جمالها لم يتلاش على الإطلاق من وجهها ،

وسألها الإقطاعى قائلاً :

– لمن أنت تابعة ؟

فأجابته قائلة :

– أتبع هذا الشخص .

وسألها قائلاً :

– أتريدين : الذهاب معى ؟

وردت عليه بأنها لا تستطيع لأنها متزوجة .

– من هو زوجك ؟

– هذا الرجل .

وما أن هم الإقطاعى بالرحيل حتى قالت له :

– وهل بمقدورك أن تحبنى بلا حدود ؟

فرد الإقطاعى بالإيجاب فركبت على الفور وراءه .

وسرعان ما عثر الإقطاعى على شخصين غليظى القلب وعلى شخص بلا عقل لكى يقسموا بأن عليهم قتل زوج تلك الفتاة .

وقال الزوج البائس للإقطاعى :

– هيا اقطع رأسى، أنا والحال هكذا لا أستطيع أن أعيش بدون زوجتى ، أحللها لك وأقبل يديك الاثنتين، إن الموت راحة لى .

وهنا قطعوا رأسه .

وبعد ذلك أخذ الإقطاعى يحب المرأة ويلاطفها، أما بالنسبة لها فكل شىء قليل ، وهو يحبها ، وبالنسبة لها هذا قليل ، وفى النهاية ضاق ذرعًا فهجرها. وما أن هجرها حتى لفظت أنفاسها، وتملك الإقطاعى العجب من هذا ، وبعدئذ نسى كل شىء وكأنه لم يحدث على الإطلاق ، وعند تقدمه فى السن فحسب أخذ يهذى عنها ويناديها باسمها ، ويقولون إنه كان أيضًا فى الليل ينبش قبرها بيديه .

الرسام الماهر

كان ياما كان فى سالف العصر، رسام وقام برسم حبة من حبات الشمام ، ومرت من هنا مصادفة زوجته ، ولما رأت حبة الشمام أرادت أن تصنع منها خشافًا ، إلى هذا الحد كان هذا الرسام قد قام برسم حبة الشمام رسمًا جيدًا .

وكان يوجد هنا رسام آخر ، فقام برسم شجرة ، وحطت كل العصافير من كل الجهات على هذه الصورة ، فقد تهيأ لها أن تلك شجرة .

وذلك الرسام الذى قام برسم حبة الشمام كره هذا الرسام الذى قام برسم الشجرة كراهية لا يمكن وصفها، وأيضًا ذلك الرسام الذى قام برسم الشجرة كره ذلك الرسام الذى رسم حبة الشمام كرهًا لايمكن التعبير عنه على الإطلاق .

وفى النهاية قرر ذلك الرسام الذى قام برسم حبة الشمامة أن يمسك بذلك الرسام الذى قام برسم الشجرة وأن يقيده ويأكله، ونفذ ماعزم عليه .

أولاً قطع ساقه وأكلها، ثم قطع ساقه الثانية وأكلها أيضًا، ثم بعد ذلك قطع إحدى يديه وأكلها كذلك ، وبعد ذلك قطع يده الأخرى وأكلها أيضًا .

ورقد الرسام بدون ساقين ويدين وقال فى هلع :

– مهلاً يا أنت !

فأجاب عليه ذلك الرسام قائلاً :

– سألتهمك كلك !

ولما قال هذا فصل الجسم عن الرأس وأكل الجسم ، ووضع الرأس على مسند الصور .

وعندئذ نطقت الرأس قائلة :

– مهلاً يا أنت !

وأكل ذلك الرسام الرأس أيضًا وتنهد قائلاً :

– الآن لم تعد موجوداً !

ومنذ ذلك الحين أصبح يرسم رسمًا أفضل بقدر مضاعف ، مثل نفسه ومثل ذلك الرسام الذى أكله .

الفنان

كان ياما كان فى غابر الزمان شاب غارق فى الأوهام بدرجة ما ، ووفقًا لشكله كان يتظاهر بأنه مثل جميع الشبان الآخرين ، ولكنه فى داخل نفسه كان متوهمًا ، بل كان ينحاز إلى ناحية من النواحى دون ضرورة ، وكان أبوه وأمه يتقدمان فى الحياة ويكسبان ، أما هو فلم يقبل القيام بأى عمل على الإطلاق، وبالنسبة له كل عمل أدنى من مستواه ، وكلما يقول له أحد الأشخاص شيئًا ، يدخل هذا من أذن ويخرج من الأذن الأخرى ، وليس الأمر أنه لم يكن يعتنى بنفسه ، ولكن كان يفعل ذلك بشكل قبيح ، وحتى هذا كان يخفيه .

وفى إحدى المرات حدق هكذا فى بعض الصور والتماثيل وقال :

– سأشتغل بهذه .

وذهب إلى أبيه وأمه وقال لهما إن الأمر كذا وكذا ، وكلاهما على الفور سقط مغشيًا عليه، ولما استردا وعيهما أخذا يقدمان النصح لابنهما ويصرفانه عن هذا الأمر ، ولكن البتة ، فهو لايريد حتى أن يسمع وظل على رأيه .

وبعد فترة وجيزة بلغت شهرته الآفاق بحيث إن كل إنسان كانت تتملكه الدهشة والعجب من ذلك .

ولكن لسوء الحظ لم تمض فترة طويلة حتى أصابته كل هذه الصور والتماثيل بهوس فى رأسه هو نفسه وأصيب بالجنون التام .

القاضى والتزحلق

كان ياما كان فى سالف الأزمان امرأة ، وكان لها ابن ، وكانت تقوم بتلبية احتياجاته ، وتمنحه كل شىء ، ولكنها لم تسمح له بأن يقوم بالتزحلق على الجليد فى فصل الشتاء .

وأصبح ابنها قاضيًا ، والقاضى لا يقوم بالتزحلق على الجليد، فكيف يلبى مطالب العدالة ، وكيف يصلح بين الناس ويفض منازعاتهم، وكيف يبعث بقطاع الطرق إلى الإعدام وأى جلاد سيطيع أوامره ؟

ولكن لما تقدم به السن وحدثه قلبه أنه تنهمر فى أحد فصول الشتاء الثلوج الأخيرة فى حياته ، بعدما خلد الجميع إلى النوم فى الليل أخذ الزحلوقة وصعد إلى التل وجلس عليها واندفع يتزحلق .

وتوهجت لحيته البيضاء تحت ضوء القمر ورفرفت فى مهب الرياح أطراف عباءة القاضى وأصدرت حفيفًا، وغشيت الدموع عينيه ، إلا أن القلب المسن كان يتراقص ، واتقدت الروح بلهيب منسى .

وفى يوم الغد شاع الهمس بأن القاضى المسن قد فقد صوابه .

ورآه أحد الأشخاص وهو يقوم بالتزحلق فجاء الناس لزيارته، ودعاهم إليه فى حجرته وقد تملكته الحيوية وعلت وجهه ابتسامة وأخذ يروى لهم كل شىء تباعاً .

المنزل

كان ياما كان فى قديم الزمان رجل وأراد أن يشيد منزلاً .

وفى البداية خرج إلى الطريق وفى كمين قتل أحد التجار ونهبه. واشترى بهذه النقود أرضًا.

وبعد ذلك ذهب إلى الحرب وفى المعركة قام بأسر أربعة أسرى وجاء بهم لكى يحفروا له أساس المنزل، ولما انتهوا من حفر الأساس أخذهم واقتادهم إلى سوق العبيد حيث قام ببيعهم واشترى بهذه النقود الأحجار التى سيشيد بها المنزل، وعندما نفدت نقوده قال لزوجته أن تخرج وأن ترتكب الفواحش، وأطاعته الزوجة، ولما أنفق نقودها أيضًا أخذ ولديه ، وهما مثل تفاحتين من الذهب وباعهما إلى إحدى السفن لكى يقوما بالتجديف فيها، ولما صرف هذه النقود كذلك راح عندئذ يكذب ويشهد بشهادات الزور فى السوق حتى يحصل على نقود بهذه الطريقة، وجلب العار الشديد على نفسه ، وفى النهاية أخذ يسرق وينهب من الآخرين وحينذاك انتهى من تشييد المنزل ، وخرج المنزل رائعًا بحيث إنه كان يثير إعجاب كل إنسان .

وكلما ذهب إلى مكان من الأماكن كان يقول :

– آه ، لو ترون المنزل الرائع الذى أمتلكه !

الرجل ومائدته

كان ياما كان فى غابر الزمان رجل وكان يملك ، فليس الأمر فى أنه لم يكن يملك ، ولكنه ربما كان رجعيًّا قليلاً .

وكان يأكل ،

يجلس ويتناول الطعام .

وكان يأكل مايشاء ، هذا وذاك ، وعلى مائدته توجد مختلف أنواع الأطعمة، لقد كان يملك فكان يأكل .

وخرج فى إحدى المرات ونظر إلى الناس ، ولكنه كلما ينظر إلى وجه أحد الأشخاص لايرى وجهه.

وذهب إلى منزله ، واتكأ بقدميه ويديه أيضًا وقلب مائدته تلك .

وجاء الناس ووقفوا وأخذوا ينظرون .

فـى سـن الشـيخـوخـة

سُئل أحد الرجال :

– هل لديك أولاد ؟

– نعم لدى .

– وهل يساعدونك ؟

– أجل يساعدونني .

– كيف ؟

– لا يقومون باستدعائى !

العصفور

كان الشتاء قارصًا وشعر العصفور بالبرد الشديد وهو فى رحلته ومرت مصادفة هنا بقرة وأفرزت روثًا ، والروث الساخن أنعش العصفور وأعاد له نشاطه . وأطل العصفور برأسه وأصدر زقزقة فسمعه القط ولمحه وقفز عليه وأمسك به وأخذه .

الموعظة : ليس على الدوام عدوًا لك ذلك الشخص الذى يفرز روثًا عليك ، وليس على الدوام صديقًا لك ذلك الشخص الذى يمسك بك وينقذك من الروث .

قلب الأم

كان ذات مرة شاب ووقع كلية فى غرام إحدى الفتيات .

وقال لها :

أتحبين أن أتزوج بك ؟

– أحب ، ولكن عليك أن تأتى لى بقلب أمك على راحة يدك .

وذهب الشاب إلى منزله ، واقتلع القلب الحى لأمه من صدرها وهرع إلى فتاته، وفى تلك اللحظة تعثر ووقع فهمس له قلب أمه قائلاً :

– هل أصابك سوء يا بنى ؟

عن المداعبة والعناق

فى إحدى المرات ابتسم الحظ لأحد الأشخاص الفقراء ، فقد وقعت فى غرامه أرملة ثرية تحافظ على نفسها وممتلئة الجسد .

وسرعان ما اشتدت عافية الفقير فكان يقوم بحمل الأرملة بين الغرف ، أما هى فكانت تصيح فرحًا ، وكان الضحك يتوقف فى حلقها وكان يشملها بعناقه ويقوم بتقبيلها ومداعبتها، وكانت هى أيضًا تفعل نفس الأمور معه .

وبجانب منزلهما كان يقيم أحد التجار، رجل أعزب وسريع الغضب ، وحينما سمع أن البهجة تتملكها إما فى وقت الصباح أو فى وقت المساء ، أصدر أوامره بأن يخطبوا له أية فتاة ، وخطبوا لهذا التاجر فتاة ممتلئة وفائرة الأحاسيس، ولم تكن خاملة فأشعلت فى نفسه نار الغرام ، رغم أن هذا الرجل كان يعتقد أنها إما غير موجودة لديه وإما خمدت لديه منذ فترة طويلة ، وسرعان ما أصبح التاجر شخصًا مختلفًا تمامًا ، وكان ينتظر بالكاد أن يعود فى المساء إلى داره وأن يرقد على الحشايا الحريرية ، وأن تشمله زوجته بعناقها ولما ينتهى من استمتاعه يستغرق فى النوم على هذا النحو فى أحد الأوقات .

والجدران الحجرية ليست أى عائق على الإطلاق بالنسبة لقوة الغرام، ولذا فسرعان ما انتقل كل هذا التلاحق للأنفاس إلى المنازل الأخرى أيضًا، والتصق الرجال بالنساء ، كل رجل بزوجته ، وتمسكت النساء بالرجال ، كل امرأة بزوجها، وجرى التهامس والاقتراب اللصيق ووهب النفس من كل لون، ولايوجد قانون يختلس النظر كثيرًا إلى المخادع ، ولذا كان يوجد هنا أيضًا فقدان للصواب ، ولكن مع ذلك كل شىء يمضى بأسلوب جميل وبدون غضب واستحياء ، وكان كل شخص يمارس الحب بطريقته ، ذلك الشخص يمارسه على ذلك النحو ، وهذه المرأة بهذه الطريقة . وكل شخص كيفما يتصرف ، وكل شخص حسبما يعرف ، وكل شخص وفقًا لاستطاعته .

ومنذ ذلك الحين تزوجت على وجه السرعة كثيرات من الفتيات ، وتزوج الكثير من الشباب فى عجلة وسعادة ، بل وحتى أيضًا بعض المتقدمين فى السن شعر بالإثارة وشرع يبحث عن دواء لهذا الشىء الذى لاينتهى، وتزوج أحد الأشخاص المثابرين ، ولكنه لفظ أنفاسه فى ليلته الأولى وهو فى أحضان حبيبته .

وتلك المرأة – زوجته هذه – التى ظلت تلك الليلة فى أحضانه تملكها الفزع فى البداية ثم انفجرت فى البكاء وصاحت تطلب الغوث، ومن بين أولئك الذين جاءوا لكى يقدموا لها العزاء تواجد بمحض الصدفة شخص حظيت بإعجابه وبعد فترة ليست بالطويلة تعانق كل منهما مع الآخرين فى استسلام وتزايدت بشدة فيما بعد هذه الأحداث العاطفية ...

حســـن

كان ياما كان فى سالف العصر شخص يدعى حسن ، سمع كل الأشياء إلا الغناء والموسيقى لم يسمعهما، وهو يشبه جميع الناس الآخرين فى كل شيء ، إلا فى هذا فحسب - لا يشبههم أبدًا !

وسألوه :

- كيف هذا يا صاحبنا حسن ؟

ورد بقوله :

أنت تقـول : هاهو رجل يغنى بصـوت خـافت ، وأنا أسـمع أنه ينتحب، وأنت تقول : هاهم الفتيات والشباب يرقصون رقصة الحلقة، وأنا أسمع أنفاسهم تتلاحق .

وكل شيء على هذا النحو .

وأيًا كان الحال ، فقد كانت هذه الحكاية ستنتهى هنا لو لم يقع حسن فى حب فتاة اشتهرت بقوامها وصوتها .

وجاء حسن لكى يراها ويتبادل معها الحديث ، وهى بالتدريج انطلقت فى الغناء عناداً فيه، وفى المرة الأولى تحمل ثم فر ، ولم يخرج من داره ثلاثة أيام ، وفى المرة الثانية احتمل ثم هرب ، ولم يخرج من داره أربعة أيام، وفى المرة الثالثة صبر ثم لاذ بالفرار، ولم يخرج من الدار سبعة أيام ، وإذ بشىء غريب ، فبمجرد أن تبدأ الفتاة فى الغناء حتى يأخذ جلد حسن تحت ثيابه ينزف دماً، وجاء إلى أمه وهو على هذه الحال والدماء تنزف منه كله ، لكى تداوى جراحه على جسده بالمراهم ، والأم مثل الأم تعالج الجروح وتطيبها ، ثم فاض بها فقالت له .

- لا تذهب إليها يا حسن !

- لابد أن أذهب .

- قل لها ألا تغنى لك .

- لن أقول ، ستتركنى .

- أرها جراحك .

- لا أستطيع ، يتملكنى الحياء .

ولكن سرعان ماذاع الأمر فجاء بعض الناس يعزفون ويغنون لحسن ليروا ما إذا كان جلده سيصاب بتشققات ، ولكن هذا لم يحدث

له من أى شخص آخر وإنما من تلك الفتاة فحسب، وحينما شاع هذا الأمر أيضًا لم يعد حسن يذهب إليها ولا هى إليه، وافترقا فى صمت .

وعلى أية حال فهنا أيضًا كان يمكن أن تنتهى هذه الحكاية لو لم تذهب تلك الفتاة ذات مرة إلى البحيرة لكى تستحم ، وكان هذا فى مكان منعزل ، وخلعت الفتاة كل ملابسها حتى أصبحت عارية وسرعان مارقدت على الحشائش ، ولما اقتربت الشمس من الغروب انسدل النوم على عينيها ، وتسللت نحوها فى سكون الظلال الحادة والواضحة للأجمة القريبة وراحت تزحف على جسدها، ولكن الأمر لم ينته عند هذا الحد فحسب بل أخذت الظلال تمزق جلدها ولما سال الدم تنبهت الفتاة وراحت تطلب الغوث بأعلى صوتها، ولم يكن بمقدورها أن تنهض لأن تلك الظلال كانت تثبتها بالأرض .

وجاء الناس مهرولين وقاموا أولاً بتغطيتها ، أما هى فقد بدأت تشعر بالاختناق تحت تلك الثياب، وكشفوا جسدها فقامت الظلال بتمزيق جلدها ، وراحوا يحجبون الشمس عنها فأصابت الزرقة كل جسدها وأخذت تحتضر، وابتعدوا عنها وهى تصدر تأوهات ، وأرادوا أن ينهضوها ولكنها مثبتة بالأرض !

وفى تلك اللحظة جاء حسن أيضًا مهرولاً ، ولما رأى الفتاة الدامية هوى عليها ، أما هى فقد نهضت . وهكذا أنقذها .

ثم تماثلت للشفاء وتزوجت منه .

القبيح والحسناء

كان ياما كان فى قديم الزمان فتاة جميلة إلى أبعد الحدود،

- طوبى لها .

هكذا كانت تقول صاحباتها ويتنهدن .

ولما حان وقت الحب والزواج، اندفعت كل الفتيات إلى هنا أو إلى هناك، إلا تلك الحسناء لم تذهب إلى أى مكان، وإذ بشىء غريب قد وقع، لقد أصابها الغرام "بروجوبا" . وجاءوا إليها بينما هى تبكى .

- ماذ حدث ؟

- لقد وقعت فى الحب .

- فى حب "روجوبا" .

وهذا الرجل الذى وقعت الحسناء فى حبه كان قبيحًا لدرجة أن الحيوانات البرية كانت تهرب من طريقه .

وأيما شخص من الأشخاص يجىء إلى الفتاة فى منزلها لكى يجعلها تعدل عن رأيها تقوم الفتاة بمعانقة قدميه وتقبيل يديه، ويكتظ

الفناء بالشباب أصحاب الطلعات البهية وهى تنظر إليهم كلهم فى شفقه وتوجه لهم الشكر بكلمات منتقاة، والنسوة حول المنزل تبكى وتنتحب وكأنه مأتم، أما الرجال فيشبكون أيديهم إعرابًا عن حزنهم ويقولون :

- لا يوجد جمال فى أى مكان مثل الجمال الموجود لدى فتاتنا هذه، ولا يوجد أيضًا فى أى مكان قبيح مثل ذلك الشخص القبيح !

وفى النهاية نهض البعض لكى يقتلوا "روجوبا" أو يطردوه، ولكن لما سمعت الفتاة بهذا قالت لهم :

- إذا أصبتم "روجوبا" بأى ضرر، فاعلموا أنكم أعداء، وكل ما تفعلونه به سأفعله أنا فى نفسى .

وكان "روجوبا" فى هذه الأثناء صامتًا إلى أن جاء إليه بعض الأشخاص الماكرين والدنيئين وقالوا له :

- هيا إلى حفل الخطوبة لكى تطلب يد هذه الفتاة .

وقاموا بإنهاضه .

وقاموا ظاهريًا بتزيين ملابسهم، وحيث إنهم كانوا ساخرين وطائشين فقد توقفوا على جانب الطريق يعاكسون ويعاندون، ولكن لم يكونوا قد اجتازوا ولا نصف الطريق حتى خرجت الفتاة للقائهم وما إن لمح كل منهما الآخر حتى توقفا، توقفا على النحو الذى صادف فيه أحدهما الآخر، وكاد ذلك الفظ القبيح أن ينهار .

وقالت الحسناء "لروجوبا" :

- من بين كل الرجال أود أن تختارنى أنت .

وغرز "روجوبا" أظافره فى وجهها الأبيض، وبعد ذلك مباشرة عاد إلى صوابه ونظر ما إذا كان قد أصاب جمالها بسوء .

غير أنه لا يمكن إصابة الجمال بسوء .

وسألها "روجوبا" قائلاً :

- هل تحبيننى ؟

وردت عليه الحسناء .

وردًا على ذلك أخذ "روجوبا" يضربها، ثم ابتعد لكى يرى ما إذا كان قد أصاب جمالها بضرر .

بيد أنه لا يمكن إصابة الجمال بضرر .

وسألها :

- هل تحبيننى ؟

وأجابته الحسناء .

وعندئذ صب عليها كل الضرر الذى كان بمقدوره وكل التوبيخ الذى كان يعرفه، ثم ابتعد ثانية ليرى ما إذا كان قد أصاب جمالها بسوء .

ولكن لا يمكن إصابة الجمال بسوء .

وسألها قائلاً :

– هل تحبيننى ؟

وردت عليه الحسناء، وقالت :

– اقتلنى لكى أرى ما إذا كان حبى أقوي من الموت .

وحينذاك أخذ "روجوبا" يلعن .

وأخذت الحسناء حبلاً وربطت "روجوبا" مع نفسها من وسطه حتى لا يهرب ؛ والنهاية السعيدة مناسبة على الدوام لإنهاء الحكاية .

الـوردة

يحكى أنه كانت توجد أيضًا فتاة، ولما كبرت كان يتملكها الإعجاب والدهشة من نفسها، ولسوء الحظ وقع فى حبها شاب رفيع المنصب كان يقدر على الأكثر العدالة والشرف، وكانت الصفتان تناسبانه وتليقان به .

وتزوجا وتمت إقامة حفل زفاف رائع، وتم كل شىء آخر كما ينبغي، ولكن لم تمض فترة طويلة إلا ونشأت بينهما مشاجرات وخلافات، وكانا يتحابان، كانا يتبادلان الحب، وكما كانت تحبه كان يحبها على حد سواء، وكان يحبها وكانت تحبه، والصحيح صحيح .

وذات مرة جاء هذا الشاب، وعند مروره فى حديقته لمح وردة وما أن كاد يقطفها حتى قالت له الوردة :

– فلتقم زوجتك بقطفى !

وتملكت الرجل الدهشة من أن الوردة تتكلم، ولكن لم يكن باستطاعته على نحو ما أن يسألها عن أى شىء، وهرول نحو زوجته وصاح بها وهو لا يزال عند البوابة قائلاً :

- اذهبى إلى الحديقة واقطفى الوردة .

وتحركت الزوجة، ولكنها راجعت نفسها فى منتصف الطريق، وقالت فى نفسها :

- لماذا أقطف له أنا الوردة ؟

وحينما جلسا لتناول الطعام سأل الزوج زوجته بقوله :

- هل قطفت تلك الوردة ؟

- لم أقطفها .

- ولماذا ؟

وكذبت الزوجة قائلة :

- لقد نسيت .

فقال لها الزوج :

- اقطفيها الليلة !

وقالت الزوجة :

- حسنًا .

ولما غربت الشمس وارتفع الظلام على الأرض وقفت الزوجة أمام الوردة، وفقط تشممتها ولمستها بإصبعها، وذهبت على وجه السرعة لمقابلة زوجها .

وقال لها :

– أنت تعرفين أنني أحبك أكثر من أى أحد فى العالم، ولكنك تعرفين أيضًا أننى بقدر ما أحبك بقدر ما أكره كذبتك، هاأنذا أقول لك مرة أخرى، إذا لم تقطفى الوردة فى صباح الغد فسأقتلك . هل ستقومين بقطف الوردة ؟

فقالت الزوجة :

– أجل !

وبمجرد أن دفع الصباح الظلام إلى الأرض هرولت الزوجة إلى تلك الوردة وثانية شمتها ولمستها فحسب، ثم ذهبت للقاء زوجها .

وحينما لمحته انتابها الندم حينذاك ! وركعت عند قدميه، وأخذت تقبله وتتوسل إليه قائلة :

– لا تقتلنى، سأقطف الوردة عند الظهر !

وعفا عنها، وذهبت هى إلى تلك الوردة عند الظهر، وأخذت تنظر إليها وتطيل النظر، وفى النهاية ذهبت للقاء زوجها وهى ترتجف بكل كيانها .

– إننى أثق فى العدالة والشرف أثق فى العدالة والشرف ...
وأخذت تكرر هذا فى نفسها .

إلا أن البائس قتل البائسة واقتلع قلبها من صدرها .

الشيطان في البوسنة

قدم الشيطان إلى البوسنة وأخذ يقطب جبينه في كل الأنحاء .

وهنا ، في البوسنة، كان يوجد رجل، وكان يمتلك كل شيء، ولكن لم يكن بمقدوره على الإطلاق أن يستقر في جلسته . وكلما يجلس على أي نحو كان هناك شيء يؤلمه .

وذهب إلى الشيطان وقال له إن الأمر كذا وكذا ، وماذا تطلب لكي تخلصني من هذا ؟

فأجاب الشيطان قائلاً :

– روحك !

فقال ذلك الرجل :

– خذها !

ولم يكمل الرجل الكلمة بعد حتى أخذ الشيطان روحه، وأعطاه مرهماً .

وأخذ الرجل المرهم وذهب إلى داره، وخلع ملابسه ودهن بالدهان ورقد، لا شىء يؤلمه، وانقلب على بطنه، أيضًا لا شىء يؤلمه، وانقلب على جنبه، لا شىء يؤلمه أيضًا .

وإذ فى الصباح جاء الشيطان ودق على الباب .

- من ؟

- أنا !

- من أنت ؟

- الشيطان .

- ماذا تريد ؟

- روحك .

- ألم أعطها لك بالأمس ؟

- أجل، ولكنها روح لإحدى المتوفيات !

وقال الرجل :

- لقد أعطيتك ما كان عندى .

واستدعى الرجل الخدم لكى يطردوا الشيطان من على بابه .

وكان هنا أيضًا رجل آخر وكان كل ليلة يرتكب أفعالاً بغيضة مع زوجته، يرتكبان الأفعال البغيضة فى الليل، وخلال النهار يتملكهما الاستحياء من ذلك .

وقال الرجل لزوجته :

- لنذهب إلى الشيطان لكى يخلصنا من الاستحياء .

وقالت الزوجة :

- أنا لن أذهب، إذا أردت فاذهب أنت .

فقال :

- أبدًا . لابد أن تذهبى أنت أيضًا !

- لن أذهب !

- لابد أن تذهبى !

وبعد تردد وافقت المرأة .

ووجدا الشيطان وقالا له بسبب مجيئهما، فرد عليهما قائلاً :

- لا شىء أسهل من ذلك ! أولاً أعطنى أنت روحك .

هكذا قال لذلك الرجل، ورد عليه الرجل بطيب خاطر قائلاً :

- خذها !

وسأله الشيطان :

- ماذا آخذ ؟ أين روحك ؟

وراح الشيطان يضحك، ثم التفت إلى تلك المرأة وقال :

– ها هى روحك عند زوجتك !

وأخذت المرأة تقسم قائلة :

– لم أكن أعرف، حقًا ... !

وصاح بهما الشيطان :

– ماذا تنتظرون ؟ مباح لكما الانصراف !

ومنذ ذلك الحين والزوج وزوجته يرتكبان الأفعال البغيضة دون استحياء .

***

وكان هنا أيضًا شخص لم يكن بمقدوره أبدًا أن ينام، فذهب إلى الشيطان وقال له :

– ها هو، خذ روحى بشرط أن أنام !

وأجابه الشيطان قائلاً :

– هنا لا يمكننى أن أساعدك، أما روحك فيمكن أن آخذها هكذا بلا مقابل .

وأخذ منه روحه، هكذا، بلا مقابل .

كيكو وزبيدة

كان ياما كان فى سالف العصر شخص مخبول وكان يسير وهو بهذا الشكل، وكانوا يسمونه كيكو .

وكان البعض يقولون إنه أصابه الجنون وقتذاك حينما توفيت والدته، وقال البعض الآخر إنه فقد عقله آنذاك حينما احترق منزله، وذكر فريق ثالث أنه أصيب باختلال العقل حينما هجرته ذات مرة إحدى الفتيات، وتحدث البعض بأنه يخرف بسبب هذا قليلاً، وبسبب ذاك قليلاً وبسبب ذلك قليلاً، وقال البعض الآخر إنه يرجف نتيجة لأجزاء صغيرة من كل هذه الأسباب، وذكر البعض أن كيكو كان مخبولاً منذ ولادته . وأيًا كان الأمر فإن كيكو كان يخشى على الأكثر الملابس الثرية والحلل الجميلة، حتى إنه حينما يرى أى طفل متأنقٍ فى ملابسه كان كيكو يتحرز منه . وفى حين من الأحيان كانوا يصيبونه بالفزع بهذه الطريقة، فيلبسون أحد الأشخاص ملابس بهية ومزركشة ويدفعونه أمام كيكو على حين غرة، أما هو فيجرى هاربًا ويطلب الغوث .

وكانت توجد هنا فتاة تدعى زبيدة، كانت قد بلغت سن الشباب حديثًا، وهى من أب طيب ومن أم طيبة، ومن بيت صالح أيضًا، وكانت

تشفق على كيكو شفقة خاصة وتهتم به، والأحمق، مثله مثل الحيوان، يذهب إلى المكان الذى لا يطردونه منه وفى المكان الذى يتصرفون فيه معه تصرفًا حسنًا، وهكذا كانت الحال أيضًا مع كيكو، وبالتدريج كان يذهب إلى زبيدة، فيأتى إلى بابها مائة مرة فى اليوم، وأثار هذا ضيق الأب والأم فأخذا يطردان كيكو، ولكن زبيدة لم تكن تسمح بذلك .

وحينما تمضى فى الزقاق ترتدى ملابس مثل خادمة حتى لا يصاب كيكو بالفزع إذا ما التقى بها .

وكانت الأم توبخها بقولها :

– كيف ستسيرين عبر الحى وأنت بهذا الشكل ؟

بيد أن زبيدة لم تبد اكتراثًا .

وجاء أحد الشباب لكى يتحدث معها فقالت له :

– لماذا تأنقت فى ملبسك على هذا النحو، يمكن أن يأتى كيكو مصادفة !

والأمر مثير للسخرية بالنسبة للشاب فضحك، وفى تلك اللحظة جاء كيكو، فدفعت زبيدة الشاب خلف البوابة، وأطل الشاب أما كيكو فقد هرول هاربًا .

وقال لها :

أنت أيضًا مخبولة !

وكانت زبيدة تعطى كيكو كل شىء، تسرق من المنزل وتعطيه له، وبدأ الناس يقولون : زبيدة المجنونة وكيكو المجنون، وبعدها بقليل أخذوا يقولون :

زبيدة المجنونة .

وقام أولئك الموجودون بالسوق بإلباس أحد الأشخاص العاطلين ملابس مبهرة ودفعوه أمام كيكو، أما كيكو فلا يكترث، فلم يعد يهرب من الملابس ذات الزخارف، وقالوا هذا الأمر لزبيدة فتملكها السرور، وحتى ترى مدى صحة هذا تزينت بأجمل زينة وارتدت أجمل الملابس، ولما جاء كيكو لم يعرف ماذا يجب أن يفعل فأخذ يربت بأصابعه الخشنة على شعر زبيدة ويبتسم بفمه الخالى من الأسنان، لقد عاد له صوابه ولا يأتى إلى باب زبيدة إلا إذا كان جائعًا، وفيما بعد تملكه الخجل فاختفى عنها وابتعد لكى لا تعثر عليه ولا تراه .

وعندئذ فقدت زبيدة رشدها .

ليلى وأغاخان

ذات مرة أخذ أغاخان زوجته المفضلة ليلى فى أحضانه وقال لها :

– من كل زوجاتى أنت الأحب إلى نفسى، ماهو هذا الذى سحرتنى به ؟

وأجابت عليه ليلى أولاً قائلة :

– إذا كنت يا صاحبى لا تعرف هذا، فكيف أعرف أنا ذلك .

بيد أن أغاخان لم يكن راضيًا بإجابة زوجتة المفضلة، فاستطردت ليلى قائلة :

– لو قلت إن حبى هو الذى سحرك، أعلم أنك لن تكون راضيًا بالإجابة، لم أقم بمساعدة نفسى بأعمال السحر والأدوية السرية، وهذه أيضًا ليست إجابة، ولو قلت إن السبب هو جمالى فبإمكانك بسهولة أن تسخر منى لأنه يوجد بين حريمك فاتنات يصيب عينى فى بعض الأحيان الألم من جمالهن، لو أن السبب صوتى أو أغنيتى أو مشيتى لكان بمقدورى فى يسر أن أجيب على سؤالك العسير ... لقد قلت فى إحدى

المرات إن عينىً تثيران إعجابك، وفى مرة أخرى قلت إن يدىً تفتنان نفسك، وفى مرة ثالثة قلت إن جسدى يسلب عقلك .

إلا أن أغاخان لم يكن راضيًا بإجابة زوجته المفضلة، فراحت ليلى همسًا وفى استحياء تعدد عيوبها الأمر الذى جعل أغاخان يضحك بصوت عال .

ولكنه حتى فى ذلك الحين لم يكن راضيًا، وفى النهاية أطرقت ليلى برأسها ثم قالت :

– أنت تحبنى حبًا أكثر من كل النساء الأخريات لا لشىء إلا لأننى لم أستسلم لك بكل كيانى .

فصاح أغاخان قائلاً :

– ها ! هذه هى الإجابة الصحيحة !

وأضافت ليلى على ذلك قائلة بصوت خافت :

– ولكن حبى لك كبير جدًا لدرجة أنك لا يمكنك تحمله .

فقال أغاخان :

– وهل تعتقدين أننى سأتنازل ؟!

فقالت ليلى :

- لا لن تتنازل، ولكن هذا لا يبشر بخير .

وشرعت فى البكاء .

ومنذ ذلك الحين اشتعلت فى نفس ليلى غيرة شديدة وأصيب أغاخان بالجنون واحترق فى حبه .

البئر

كان يوجد فى أحد الأماكن بئر عميق، ولكن لم يكن من المعروف ما إذا كان يوجد بداخله ماء، فقاموا بربط أحد الأشخاص بحبل حول وسطه لإنزاله داخل البئر ليرى ما إذا كان يوجد ماء .

وقال هذا الرجل :

– إننى خائف أيها الناس، فمن الممكن بأسفل، فى البئر، أن يقطع التنين رأسى .

فقال له هؤلاء الناس :

– لا تخش شيئًا ؛ إذا لمحت التنين فقم بهز الحبل ونحن سنسحبك .
وهذا ما حدث، فقد أنزلوا هذا الرجل إلى داخل البئر ولما رأوا أن الحبل يهتز شدوا على وجه السرعة ذلك الرجل المربوط بالحبل، وإذ بهم يرون أنه لا رأس له .

وعندئذ قال بعض منهم إن ذلك الرجل لم تكن له رأس ودب بينهما خلاف، وفى النهاية اتفقوا على الذهاب إلى زوجته . وذهبوا إلى زوجته وسألوها :

– بالله عليك، قولى لنا هل كان لزوجك رأس ؟

فأجابت المرأة قائلة :

– طبعًا كانت له رأس لأنه ذهب فى أحد الأيام لكى يضع طربوشه فى القالب !

" قصص أخرى"

كعكة مثل الكرة الأرضية

مكتوب على المجلة "الهندسة المعمارية" ورقم ٢، هذا جميل جداً، الحروف والأرقام مطبوعة بأسفل، وتوجد بأعلى صورة مبنى، فقلت :

– انظروا إلى الجمال .

وقلبت الحروف حتى لا تتم رؤية الرقم والصورة .

وهن : والدة مينا ومينا والقطة .

ووالدة مينا هى والدة ل . و . إ .

ول . و . إ . موجودان الآن فى المدينة، بأسفل، يتمشيان .

وأنا أيضاً كنت فيما مضى أذهب فى الليل، إلى أسفل، إلى المدينة لكى أتمشى، بالطبع مع إ . ول، وكنا نعود فى الليل البهيم فى الوقت الذى لم تكن واقفة فيه فى الشوارع سوى إشارات المرور .

وأنا طالب بكلية الهندسة .

وبعد الدراسة مستهلك .

قلت عندئذ :

- انظروا إلى الجمال .

والتفتت والدة مينا وهى منحنية فوق الموقد ولم تعتدل، واستندت على ركبتها وهى ترتدى سروالاً وبيدها خرقة صفراء ونظرت إلى الصورة بعينين محملقتين .

ومينا أيضًا لها عينان محملقتان .

والشابان ل . وإ، لهما عيون تشبه عينى والدهما فى الصورة الفوتوغرافية المجعدة .

ونظرت والدة مينا إلى المبنى وابتسمت، وكانت تبتسم حتى قبل أن تلتفت، واعتقدت والدة مينا أن هذه ينبغى أن تكون دعابة، وعلى الدوام تقريبًا كانت تعتقد هكذا، وأنا كنت على الدوام تقريبًا أبتسم، رغم أننى لم أكن أعتقد هكذا .

ربما لأن والدة مينا تبلغ من العمر مائة عام تقريبًا .

ويد والدة مينا : (وقد رأيت فى إحدى المرات يدها العارية) عبارة عن جلد أبيض وعروق حول العظام .

مينا ليست نحيفه إلى هذا الحد (ربما لأن عمرها تسعة أعوام) .

والشابان ل . وإ . ليسا نحيفين إلى هذه الدرجة .

وحتى القطة ليست نحيفة بهذا الشكل .

والقطة : بيضاء اللون وعلى ظهرها عدة بقع سوداء على الظهر وبقعة واحدة على الأنف . (والبساط الرمادى الموجود تحت أقدامى وأقدام والدة مينا وتحت ركبتى ومرفق مينا توجد به أيضًا عدة بقع صغيرة ذات حواف مستقيمة)، وترقد القطة ذات البقعة السوداء على أنفها أسفل الموقد على الصحف القديمة .

ولها فروة ناعمة، وتغمض عينيها كثيراً حينما تنظر إلىّ،

أو : حينما تنظر إلى والدة مينا .

أو : حينما تنظر إلى ل .

أو : حينما تنظر إلى إ .

أو : حينما تنظر إلى ر . (وهى المرأة التى تساعد ابنها فى تحميص الفول السودانى)، وأراقب القطة وهى تفعل ذلك فى كثير من الأحيان .

وإذا ما استطالت أربع مرات ونصف، فهذا سيكون هو عرض الحجرة التى أتصفح فيها مجلة الهندسة المعمارية، العدد رقم ٣، وهى الحجرة التى ينبغى فيها تسوية الكعكة فى الفرن، وتكتب فيها مينا الواجب بالحبر، وإذا ما استطالت ثلاث مرات إلى أعلى فيمكن لمس السقف، أو إذا استطالت لمرة واحدة بجانب الحائط فيمكن الوصول إلى ساعة الحائط العمودية التى تعمل بالبندول .

وكانت فى الوقت الحاضر تنظر إلى الصورة وتبتهج لأننى أريتها إياها، بل وتملكها السرور .

أما مينا فقد زحفت حتى أقدامي وقالت من أسفل :

– هيه .

وخطفت المجلة وقربتها لكى ترى بشكل أفضل .

وتملكنى الغضب، والتزمت الصمت .

وقالت والدة مينا :

– يا مينا !

ثم استطردت قائلة :

– اذهبى واكتبى .

وتكلمت مينا قائلة :

– هيا .

ثم أضافت قائلة :

– سأكتب .

وزحفت على ركبتيها ويديها عبر البساط الرمادى لكى تكتب .

وكانت والدة مينا تقف بأعلى منى، أما أنا فكنت أجلس على الأريكة وأتصفح المجلة وأنا مستند على الوسائد المحشوة بالقش :

... غلق حمام سباحة فى زغرب .

... ليس من المتوقع وضع المونة الداخلية للسقف من أجل جمال المنظر والعزل الحرارى الجيد للتصميم المطبق .

... وأيضاً التنفيذ .

... وأكد واضعو التصميم .

لم تكن الحروف (بالنسبة لهم) مهمة وكنا نشاهد الصور .

وجاءت مينا أيضًا لكى تشاهد الصور وكنت أقوم بالتوضيح ولم أكن غاضبا . وسألت مينا بصوت عال قائلة :

- ما هذا ؟

وسألت والدة مينا فى نفسها :

- ما هذا .

- إنه الرسم الهندسى لحمام السباحة .

- ماذا ؟

قلت :

- إنه الرسم الهندسى .

وحاولت أن أوضح، وقمت بالتوضيح، وأخذت تدق ساعة الحائط القديمة التى تعمل بالبندول دقات غير متعجلة :

– تن، تن .

وكنت أقوم بالتوضيح، وأدارت لى القطة ذيلها (عن غير عمد) سامحتها .

وكنت أقوم بالتوضيح، وكانت العلبة دافئة دفئًا لطيفًا ولونها فاتح بشكل مريح وطيبة الرائحة على نحو مستحب (علبة الكعكة طبعًا) .

والحجرة الصغيرة منيرة إنارة مريحة وبها نافذتان ذات شكل مربع وعليهما شبكيتان .

ومن خلال الشبكيتين كانت ترُى المدينة .

والمدينة : هناك، بأسفل، بها الكثير من النجوم المرتجفة والمنازل الكبيرة، وكانت تشبه وجه والدة مينا حينما كانت تحمل الشمعة فى الظلام، وفى الوقت نفسه عبر الجانب الأيسر (بمحاذاة النهر) كانت لها مجموعة من المصابيح التى تطل على الماء .

والشابان ل . وإ، أصحاب العيون التى تشبه عينى أبيهما المتوفى، كانا فى الوقت الحالى يقومان بنزهة .

والابن الصغير للمرأة ر، يقوم ببيع الفول السودانى .

وأنا أيضًا كنت فيما مضى أذهب إلى المدينة لكى أتنزه، ولم أعد الآن أذهب، وكنت كل مساء تقريبًا أذهب مع ل . وإ .

كنا نذهب أولاً عن طريق الأزقة الواسعة فى خطوة واحدة ونحن نضرب بالأحذية على الحصى المستديرة ونلمس بأكتافنا أفاريز المنازل .

وثانيًا : كنا ندخل فى الشوارع الواسعة ونتحرك مع كثير من الأشخاص، وكنا نعود بنفس ماكنا نفعله فى أولاً وثانياً ولكن بالعكس .

وكنت أقوم بالتوضيح، وكان يوجد الكثير من الصور الأخرى، من البلورات، وكانت تعجبنى كلمة بلورات وقلت :

- قل هذه بلورات .

وسألتنى مينا بقولها :

- ماذا ؟

ثم أضافت قائلة :

- ماهى البلورات ؟

وقلت :

- إنها هذه البنايات، المبانى .

ثم أضفت قائلاً :

- بلورات السكر على سبيل المثال .

- آه، الحمقى .

هكذا قالت مينا وضحكت على الفور . وكذلك والدة مينا .

وكررت وقلت مؤكداً :

- أجل !

وسألت مينا قائلة :

- والناس ؟

واستندت والدة مينا بعظام يدها وبالخرقة الصفراء ودفعتنى دفعة خفيفة ثم ضحكت، وفعلت أنا نفس الشيء وقلت :

- الناس ذرات من الدقيق .

وقالت مينا :

- هبه، لك .

وضحكت من مينا .

وعندئذ قالت والدة مينا فى نفسها :

- الكعكة !

واستدارت إلى الموقد وأدخلت يديها وأخرجت كعكة كبيرة مستديرة .

وسكبت مينا الحبر .

وتشرب البساط الرمادى البقعة الزرقاء .

وكان مكتوبًا : يتم عقد مسابقة وهلم جرًا .

ودخلت ر وهي مرتدية جونلة مرقعة وضفائر شعرها منكوشة .

وقالت :

- ما هذا ؟

وأجابت والدة مينا بقولها :

- هاهو .

واستطردت قائلة :

- اتركيني .

وأضافت قائلة :

- لا عليك .

وابتسمت وهي تنظر إلى ر . من أسفل .

وكانت مينا تبكي .

وعندئذ دخل ابن السيدة ر، وكان يضحك بلا انقطاع دون أن يغلق الباب، وقلت له أن يغلقه .

وكانت حقيبته فارغة .

وحينذاك دخل ل، وقال متسائلاً :

- ما هذا ؟

وبعدئذ دخل إ . وسأل نفس السؤال .

ولم تجب الأم عليهما .

وصاح ل، قائلاً إلى مينا :

- لماذا تبكين ؟

وأضاف صائحًا كذلك :

- إذا ضربتك !

كان الأمر مثيراً للإزعاج .

وقلت إننى لست مخطئًا .

وقالت الفتاة الصغيرة .

- أنت مخطئ .

وقالت والدة مينا :

- اسكتى .

وقال ل . :

- وكيف هذا ؟

ولم يقل إ شيئًا .

وكان الابن الصغير للسيدة ر يحملق فىّ .

وخلع ل . معطفه .

وجلس إ . بجانبى .

ببساطة لم ننتبه للأمر .

هكذا وجهت كلامى إلى إ . وكان ينظر ناحية أمه وصحت قائلاً :

– هل تفهم ؟

وانتفض ونظر إلىّ، والتفت الجميع نحوى .

والقطة أيضًا .

– حتى ولو لم تكن موجودة هذه (مجلة الهندسة المعمارية، العدد رقم ٢) . كان سيحدث نفس الشىء .

وصحت مرة أخرى قائلاً :

– أتفهم !

وقال :

– ماذا بك ؟

ونظر مرة أخرى إلى هناك، إلى حيث ينظر الجميع .

وقلت :

- لم ننتبه . وببساطة لم ننتبه .

وتكلم ل . قائلاً :

- أكان لابد أن يحدث هذا .

وأشار إلى البقعة الزرقاء .

وقالت والدة مينا :

- دعك من هذا الآن .

وجميعنا كنا ننظر إلى الكعكة الكبيرة المستديرة بجانب والدة مينا . كانت قد احترقت .

وكان قد احترق السكر الموجود بالكعكة .

وقلت :

- احترقت البلورات .

وقلت مرة أخرى :

- لقد احترقت البلورات .

والتفتوا نحوى .

والقطة أيضًا التفتت إلىّ .

بالسوط على الوجه

تسلقت على الأربع بجانب الحاجز وابتعدت ببطء وأنا أتراجع إلى الخلف على قضيب القطار، وكان الدخان ينبجس انبجاسًا حلزونيًا من عربة القطار، وظهر جيراسيم إيڤانوڤيتش مثل الشبح .

وقبل أن تشتعل النار فى عربة القطار قال :

- لا، هذا لا يمكن على هذا النحو .

وقلت وأنا أجرى فى إثره :

- أنا عائد !

وفى هذه اللحظة بدأت آلة التنبيه تدوى . وصاح قائلاً :

- ابتعد إلى الوراء !

وقلت وأنا أهرع خلفه :

- أنا عائد !

وأضفت قائلاً :

- إنى راحل عنك .

وقال :

- فيما بعد، فيما بعد .

واستطرد قائلاً :

- لا يمكننا التحدث عن هذا الآن .

- حسن، فيما بعد .

وتوقفت، وتهيأ لى أننا مع ذلك لا يمكننا التحدث عن هذا .

وكان جيراسيم إيڤانوڤيتش ينظم رجاله نوى الخوذات البيضاء اللامعة، وتذكرت أننى لست هنا لكى أشاهد الحريق فتخطيت الحاجز وهبطت على الجانب الآخر .

وكنت فى الوقت الحاضر أضع بعناية ساقًا وراء ساق وأنا أقوم بايماءات بيدى وألتوى بجسدى، وهذا ذكرنى بجيراسيم فاعتدلت وتصلبت، ووقفت على القاعدة الخشبية لقضيب القطار وأنا فاقد لتوازنى .

كان الدخان يرتفع من عربة القطار، وكان جيراسيم يلوح وهو يلتفت إلىّ، ولكنى كنت بعيدًا جدًا، وفى الحقيقة، لم أكن أعتقد أنه يريد إيقافى، ورأيته وهو يهبط ممسكًا بالهيكل الحديدى لعربة القطار نصف المحترقة، وتوقف والتفت لكى ينظر للحظة ما إذا كان اللهب ينشب فى أحد الأماكن الأخرى، أو أنهم كانوا يصيحون فى إثره أو أى سبب آخر، وبدأت أتراجع وتهيأ لى أننى سأجرى .

- إلى أين ؟

هكذا صاح بصوت أجش، لم أستطع أن أتذكر على الفور أن صوته سيكون أجشً .

وقلت :

- أنا ذاهب .

وتملكتني الدهشة من جزعه، لم أكن أعرف جيراسيم إيڤانوڤيتش إلا لليوم الثالث فحسب، وربما لأجل هذا السبب .

وحاولت أن أكون واضحًا بقولي :

- أنا ذاهب إلى هناك حيث كنت .

كانت الكلمات تدوى دويًا حادًا، وأثار هذا سخطى .

وقلت ثانية :

- أنا ذاهب ! دعنى !

وشدنى بقوة من فوق مرفقي وتخدرت ذراعى بسرعة، من المرجح أنه ظن أننى أنظر إليه بكراهية، وحركت ذراعى حركة خفيفة وهو تركها، ونظرت إلى وجهه الملوث بالسناج والمبلل، وقبل أن أضحك قال :

- ينبغى ضربك بالسوط على وجهك .

وقال هذا بشكل جاد . وقال :

– أتضحك !

وكنت أضحك، وكرر قائلاً :

– أتضحك ؟

كنت أضحك، ولكن ليس بالكيفية التى يظن أننى أضحك بها .

وقلت :

– لم أعد أضحك .

– ولم أكن أضحك .

ولم يسمعنى، ورفع يده وغطى بها وجهه ثم نظر إلى راحة يده وتراجعت عدة خطوات، وبقى الآن وهو يلتفت، وغسل وجهه ويديه فى الخندق الموجود أسفل الحاجز، وكنت أنظر إليه طوال الوقت بينما كان يفعل هذا، ولكنه لم يتوقف مرة واحدة، وببطء صعد إلى قضبان السكة الحديدية وعندئذ فحسب توقف، ولا أعرف السبب ولكن تملكنى الإعجاب من أنه توقف عندئذ فحسب، وقال فى هدوء وهو يمسح وجهه ببطانة معطفه :

– إذا كنت شعرت بأن الحال عندى لم تكن طيبة ... ؟

لم أقل إننى كنت أشعر بأن الحال لم تكن طيبة، كان بغيضًا على نفسى أن أقول ... وكنا نسير فى صمت، وبعد ذلك جريت وأنا أقول :

– إلى اللقاء .

وأمسك بى من الياقة وأوقفنى .

- إلى أين ؟ لا يمكنك الهروب إلى أى مكان .

وكان يضحك . وقلت :

- اتركنى !

وقال شيئًا، وفى أثناء هذا الوقت قلت سبع عشرة مرة بأن يتركنى ولاحظت أنه يحاول ألا يضحك .

وقال :

- حسنًا، إذا كنت ذاهبًا فاذهب .

وسكن وجهه واستطرد قائلاً :

- ولكنى أنا أيضًا ذاهب معك، لا أريد أن تكذب هناك .

وقلت :

- لن أكذب .

وفكرت فى نفسى : "سأضطر إلى الكذب" .

ووقفنا لفترة من الوقت فى صمت، وبعد ذلك استدار جيراسيم إيڤانوڤيتش وبدأ يتحرك راجعًا .

وقال :

- سأحضر .

وعند مروري بجانب صومعة الغلال صعدت في اتجاه حمامات المنجم مع مراعاة ألا يلاحظني الحارس، وكان هذا هو أقصـــر طريق إلى دار الأيتام، كان الصباح قد انبلج في التو وكان البرج الحديدي يمد ظله عبر حجرة تغيير الملابس إلى العنابر ومنخفضًا إلى أسفل، وسألت النسوة اللاتي كُنَّ يقفن تحت الملاءات البيضاء التـــي كان يتم تجفيفها في أشعة الشمس وتتضخم بشكل غير ملحوظ بصوت خافت قائلة :

– ما هذا الذي يحترق ؟

وكان الأطفال يجلسون وسط التراب .

وفكرت في نفسي : "فليحضر" .

وأصابني صرير الباب الحديدي بقشعريرة في جلدي، وكانت تفوح من المطبخ رائحة الكاكاو، والنوافذ الموجودة بجميع الحجرات مفتوحة ورأيت الغلمان على الأسرة وتحت الأسرة وفي الدواليب المفتوحة وفي الطرقات، ومررت بجانبهم دون أن أرد على تحياتهم، وكان بعض منهم ينظر إليّ بسوء نية، وأعادتني رائحة الطرقات والحجـــرات والفـــناء إلى هذه الدار التي قضيت فيها حياتي .

وتهيأ لي أنني استيقظت من حلمي الذي استمر لفترة طويلة وكان واضـحًا، وعلى باب مكتب المدير كانت مكتوبة كلمة "المدير" ... وكان "يوحيد" قد مسح الحرفين الثاني والأخير .

وقلت :

- لقد عدت .

كان الأمر سيان بالنسبة لى .

وسألنى قائلاً :

- هل عاملك جيراسيم إيڤانوڤيتش معاملة سيئة ؟

فقلت :

- لقد عاملنى معاملة طيبة .

وسألني :

- فمن إذن الذى عاملك معاملة سيئة ؟

فقلت :

- لا أحد .

وقال :

- ينبغى ضربك بالسوط على وجهك !

بل وابتسم .

وقلت :

- غير معروف . لا يعرف أى شىء عنى .

كان الأمر سيان بالنسبة لي، ولكنى حسبت أن هذا سيترك لديه انطباعًا .

وقال :

– أعرف، أعرف، ستعود إلى جيراسيم إيڤانوڤيتش .

والتزمت الصمت ونظرت إلى الصباح، وكانت رائحة الصيف تصل من خلال النافذة المفتوحة التى كانت موجودة فى مستوًى منخفض فوق الحشائش .

وكرر المدير قوله :

– أنت ستعود إلى جيراسيم إيڤانوڤيتش .

كنت أعرف مؤكدًا أننى لن أعود، وكان هو أيضًا يعرف هذا .

وقال :

– ينبغى أن تعود .

وقلت :

– هذا أمر عسير .

وكان "يوحيد" يقف على درجات السلم، وخلفه كانت تضحك رؤوس الغلمان التى كانت تنتظرنى . وقال "يوحيد" :

– وماذا قال العجوز ؟

فقلت وأنا أبتسم :

- لا شيء، لقد قبل عودتى .

وسأل يوحيد بقوله :

- وكيف هربت ؟

فقلت :

- لقد قمت بالهرب بينما كان جيراسيم إيڤانوڤيتش يطفئ عربة القطار التى اشتعلت فيها النيران .

وحتى وقت الظهيرة كنت أطل على الفناء وأتحدث مع ماريا، الغسالة الشابة البدينة وفى بعض الأحيان كنت أساعدها فى المغسلة وكنت أستند على فخذيها وكأن هذا بمحض المصادفة، وفى يوم السبت كانت تترك لى ملابس نظيفة وغير ممزقة ومن ثم فلم أكن مضطراً لأن أنتظر مع الباقين .

وألقيت التحية ونظرت ماريا وقد رفعت شعرها بمفصلها وهى تثنى راحة يدها .

وقالت :

- هل رجعت ؟

فقلت :

- رجعت وفى الحقيقة لم أرجع لأننى لم أكن قد رحلت .

الناس المجهولون

كنت أقف فى صف طويل معوج به ما يزيد على مائة غلام يرتدون ملابس واحدة ورؤوسهم محلوقة بطريقة واحدة، وكنت أنظر إلى المواطنين، واختفى بعض الغلمان بالرغم من أن المدير كان صارمًا .

وكان المواطنون يبتسمون .

وحزت على إعجاب جيراسيم إيڤانوڤيتش، العامل الميكانيكى وعضو جمعية الإطفاء وزوجته، وأخذانى إلى منزلهما الذى كانت تفوح فيه رائحة غير مألوفة، وفى الصباح الباكر من اليوم التالى هربت فى صمت .

وجلست على درجات السلم إلى وقت ما بعد الظهر وكنت أنظر إلى الشارع وأنا أقوم عن طريق الحصى بإبعاد الأطفال الذين كانوا خلف ظهرى يتعلقون على الباب المصنوع من الحديد المطروق، وصرير الأبواب دائمًا ما يجعل جلدى يقشعر .

وقال يوحيد :

– لقد رجعت .

وهو صديقى، ولكنه بالأمس لم ينل إعجاب أحد .

وقلت :

– رجعت، وفى الحقيقة لم أكن قد ذهبت .

فقال يوحيد :

– تعال لكى نتفحص طعام الغذاء .

ونهضت .

وفى يوم الأحد كانوا يغلقون قاعة الطعام ويقومون بتجهيز موائد عليها زهور وكأن ذلك من أجل إقامة حفل، وكان ينبغى أن يدخل جميع الصبيان فى هدوء وبلا ضجيج، ويعتبر هذا الدخول "بهدوء وبلا ضجيج" اختباراً للنبل الإنسانى للمربى الأعرج إيفان لوكوت، ولم ينجح فيه حتى الآن .

– أتقومون بالتلصص ؟

هكذا صاح المربى ولوح بالعصا، وعند كل خطوة كانت ساقه اليسرى تتأرجح فى الهواء بحيث إنها فى اللحظة التالية تتصلب وتمتد على الأرض، ولم نعرف أبداً من أى شىء مصنوعة الساق اليسرى للوكوت .

وقلت :

– فى منزل ذلك الرجل كانت تفوح رائحة غير مألوفة، رائحة طيبة .

– فى كل مكان

– فى جميع الحجرات .

وقال يوحيد :

– ويقول الآخرون أيضاً إن كل منزل له رائحته .

وصاح إيڤان لوكوت وهو يلتفت ويرى أننا نقترب ثانية من النوافذ قائلاً :

– لا يوجد لديكم أى شىء إنسانى .

وقال يوحيد فى همس :

– ماريا تمارس الحب مع سائق عربة الخبز .

– أعرف .

قلت بسرعة وبصوت أعلى مما أردت ولم أكن أعلم أن ماريا تمارس الحب مع سائق عربة الخبز .

وكنا نقترب ونحن نمد أقدامنا إلى أحد الجوانب ونتقهقر إلى الوراء، وكان إيڤان لوكوت يهرول حيناً تجاه إحدى الجماعات، وحيناً تجاه جماعة أخرى، وكان هو نفسه يتحرك فى دائرته، ولم يكن

الاختلاف بيننا إلا فى كوننا نضحك وهو يتملكه الغضب، وهكذا كنا نسد جوعنا .

وصاح لوكوت قائلاً :

- الجميع لهم قطعة متساوية من اللحم .

وأضاف قائلاً :

- الناس فى الشارع ينتظرون .

والتفت وظل بصرى مستمراً على فتاة صغيرة تضع رباطًا ضخماً أبيض اللون على رأسها، ولم أفلح على الإطلاق فى ألا أنظر إلى الرباط الذى كان يبدو لى متزايد الضخامة وأنا يسيطر علىّ نوع من التراخى، وبدأوا يدفعوننى بمناكبهم وقد أحسوا بأننى لم أعد أشترك فى اللعب ولم ألحظ أننى بقيت بمفردى ودون حراك، وكنا نخرج يوم الأحد فى نزهة بالمدينة، أو نذهب إلى دار السينما ونحن نصطف اثنان تلو اثنين وكنا نشاهد أربطة حريرية ذات ألوان على رؤوس الفتيات الصغيرات ذات الوجوه المشرقة اللاتى صففن شعورهن تصفيفًا منسقًا، والآن لم أكن أرى إلا بقعة بيضاء .

وأصابتنى برجفة ضربة خفيفة، تقريباً لمسة فحسب من عصا المربى وصحت قائلاً : "الضرب ممنوع" . وفى الحقيقة، ربما لم أصح .

وقال بصوت مكتوم :

- أجل، لأنه هكذا تتولد الكراهية .

وفى حقيقة الأمر، ربما لم يقل كذلك .

- سيفصلونك من دار الأيتام ولن أكرهك أنا فحسب .

وربما لم أقل هذا على الإطلاق .

وصاح إيڤان لوكوت بصوت عال قائلاً :

- ماذا ؟!! ذهب من هنا .

ونظرت إلى وجهه المرتق وقلت :

- هل أصبت بهذا فى الحرب ؟

- الجميع حصلوا على شىء وخسروا شيئًا .

ومن المرجح أنه قال على هذا النحو .

- لا !

هكذا صحت واستدرت استدارة مفاجئة بحيث كدت أن أقع . وانفجر الغلمان فى الضحك .

- افتح !

هكذا صاح يوحيد بصوت عال وأسرع بالاختباء ورائى، وواصل الآخرون نفس الشىء فى سرور، وتحرك إيڤان على مهل، ولكن أوقفته هجمة الغلمان الصاخبين الجائعين، وتركتهم يحملونى وأنا أفصل ساقى

عن الأرض، وفى الفوضى العامة كنت قد نسيت تمام النسيان المائدة التى كنت حتى وقت قريب أحفظها بإصرار، وانفتح الباب مع إصدار قرقعة واندفع الغلمان، وبقوة كنت أضرب بمنكبى فيما حولى، وكان إيڤان لوكوت يلوح بعصاه عالياً فوق رأسه، وما أن لمحت أقرب إناء حتى ارتميت عليه، وأنزلت يدى على كفين غريبين أكثر سرعة من يدى، ونظراً لوعيى بأن الأمر لا يستحق التشاحن فقد أمسكت بقوة بإناء آخر وأنا أضغط عليه من علٍ . وبعد ذلك جلست .

وكانت الفوضى سائدة على طول الموائد، وتشربت مفارش الموائد بالماء المسكوب من الزهريات، وانتهى طعام الغداء على وجه السرعة لأن كثيرين انصرفوا إلى الخارج بعد أخذهم قطعة اللحم فحسب، وكان يوحيد يتحدث بسرعة ويبحث ببصره عن قطعة منسية أو متروكة، وأشار المربى بيده إلى النساء اللاتى ترتدين المرايل البيضاء إلى الحفل الذى أقمناه، وانفصلت ماريا عن زميلاتها واقتربت منى وقالت :

- المدير يستدعيك .

كانت قد وضعت يدها على رقبتى وتكلمت بصوت خافت، وانحنت وأحسست باللمس اللين السريع لجسدها، وتناولت طعامى فى عجلة لأنه تهيأ لى أننى سأنفجر فى البكاء .

وقلت :

- تتصرفين .

وتوقفت . ولا أعرف سببًا لذلك، ولكني حينما أكون بجانب ماريا تعتريني رغبة في أن أكون فظًا ومبتذلاً .

وأنهيت كلامي قائلاً :

– ... وكأنني تعرضت لمأساة .

وانحنت ثانية وسألت :

– ما هذا الذي تبتلعه ؟

قلت :

– لا شيء، إنها ضفادع !

فقالت :

– لابد أن تذهب على الفور .

وكان يسود شبه ظلام في قاعة الطعام، وبالخارج كان الفناء منيرًا إنارة واضحة، وكانت تدور عجلة بأسفل، في البرج الأسود للمنجم، ويهتز حبل حديدي، ولم أسمع ضجيجًا .

وكانت ماريا تقف عند الباب وانصرفت بعد أن لوحت بيدها، وأسرعت في إثرها خلسة وأنا أرى بعض الأشخاص الذين كانوا يتجولون في المنطقة المحيطة، وكنت أسير على مهل بجوار جدار الثكنة وأنا أجر قدميَّ وأنظر إلى أمامي، وأصخت السمع، ولما وجدت نفسي بجانب المغسلة دخلتها .

وقالت ماريا :

– ماذا بك اليوم ؟

وكانت تلقى فى عجل بالملابس فى أكوام .

فقلت :

– أشعر بالخوف .

فسألت قائلة :

– ألم تذهب إلى المدير ؟

وجلست على أحد الأكوام وأنا أستند بقدمى الحافيتين على الأرض الخرسانية الرطبة .

– وجود المدير يدفعنى إلى الخنوع والطاعة، وهذا يصيبنى بالإرهاق .

فقالت ماريا :

اذهب إنك تعطلنى عن العمل .

فقلت :

– أنا ذاهب ؛ فكونى هادئة يا ماريا الجميلة .

كان للكلمات رنين مضحك بحيث إننى اضطررت إلى أن أنقلب على الملابس، وتكون لدى مشقة فى الكلمات حينما أكون مع ماريا .

وقلت :

- الجو هنا بارد، والهواء بالخارج يرتجف من الحر اللافح .

وصمتت ماريا، وكنت أقف بالقرب من الباب، ولكن كان يتهيأ لي أنني لن أخرج أبداً، إلى حين الموت نفسه .

وقالت ماريا مرة أخرى :

اذهب، من المؤكد أنهم يبحثون عنك .

نظرت إليها في صراحة وبذلت جهداً لكي أجمع في عيني كل الرغبة التي أثارتها في نفسي، وأردت أن ترى ذلك، وجعلني الفناء الخالي والسكون السائد أفكر بوضوح وفي قاحة، بيد أنني أحسست أنني في حاجة إلى يوم كامل من مثل هذا السكون .

وقالت ماريا :

- إنك مثير للضحك .

وكانت في الوقت الحاضر تضحك، واقتربت ودفعتني صوب الباب قائلة :

اذهب .

وقلت بصوت أجش :

- لن أذهب .

وفى ذلك الحين كنت أفضل لو أننى عضضت لسانى .

ونظرت إلىّ بهدوء وسألتنى :

- هل قمت بسرقة شىء ؟

- لم أسرق .

هكذا قلت وأنا أبتسم بالمصادفة، وشعرت بالأسف لأننى لم أسرق شيئًا أبدًا .

ودفعتنى بسهولة إلى الخارج، واجتاحت جسدى موجة من الهواء الساخن، وبعد ذلك شعرت بحرارة الجو، وكنت أغير وقوفى من ساق إلى الساق الأخرى لأن الأرض الخرسانية كانت تلسعنى .

- هيه، يا ماريا .

هكذا ناديت عليها دون أن أعرف ماذا أريد .

وعندئذ قال لوكوت :

- ماذا تفعل هنا ؟

فأجبت وأنا خائف قائلاً :

- لا شىء .

أعتقد أننى لا زلت فى ذلك الحين لا أكرهه .

وقال :

- هيا .

وظللت صامتًا ولا أتحرك .

وقال مرة أخرى وهو يشدني بقوة من تحت إبطى :

- هذا لن يساعدك فى شىء . ستتم معاقبتك . هيا .

وجذبت بكل قوتى ووقعنا نحن الاثنين .

قال :

اخجل، لقد أسقطت المربى .

ولكنه حتى فى ذلك الحين لم يتركنى، وكانت ماريا تقف وتشاهد، وأعتقد أننى فى ذلك الوقت كنت أكره ماريا فحسب، وأردت أن أهرب إلى أبعد ما يكون وبأسرع ما يمكن، وكان وجهه المشوه يرتجف فى كل مرة حينما أجذب ذراعى، ولم أكن أظن أن لوكوت قوى إلى هذا الحد .

وجاء الغلمان جريًا، وتوقفوا وتجمعوا وراء ظهر المربى، ولم يتذكر أحد أن يمسك بى، وأنا نفسى لم يخطر ببالى أنهم بإمكانهم ذلك، ربما تملكتنا حالة من الدهشة .

ولم تأخذ إحدى الجماعات فى الجرى فى إثرى إلا حينما هرولت بجانب المبنى وظهرت فى الفناء الأمامى وانطلقت صوب البوابة، ومن

صيحاتهم كان واضحًا بالنسبة لى أنهم لم يمسكوا بى، لم أكن إلا باعثًا على الصياح والجرى وكان هذا كافيًا بالنسبة لهم .

وبعد دفعى الباب قفزت ثلاث درجات من السلم ووقفت على الأسفلت وقد أصبحت مرنًا بسبب القيظ، والتوت ركبتاى أكثر مما كنت أتوقع وأوشكت أن أقع، وكأنه قد تم إنقاذى وتحركت فى الشارع وأنا أنظر إلى السور الذى تبعثر عليه المطاردون .

وقالوا وكأنهم يرثون لحالى :

- لماذا لا تهرب ؟

كنت لا أزال أتنفس بصعوبة، ولو هبط أحد لما تحركت .

وسألونى بقولهم :

- لمن تترك قطعة الحلوى ؟

وهززت كتفى وتحركت وأنا أنظر بعيدًا أمامى .

وتناثر الضحك على طول السور واختفى عند نهايته .

ونزلت على درجات السلم للشارع المنحدر إلى أن تواريت تمامًا عن النظرات، وجلست ونظرت إلى بعيد بأسفل حيث كان الشارع الصغير ينتهى إلى ممر ضيق، وأصدرت سيارة وميضًا غائمًا ومر رجل بسرعة بجانبها دون صوت، وكانت الأسقف تتقاطع مع مداخن المصانع التى كان الدخان ينبعث منها فى تباطؤ، وفى الهواء الذى كان

يسكن انتظاراً للمطر كانت تصدر دوياً مكتوماً الصالات الحديدية للمصانع .

وراح يوحيد الآن يصعد درجات السلم على خط مستقيم وفى عجلة، وقال وجهه المبلل :

- عرفت على الرغم من ذلك .

وكان ينظر حوله . وسأل قائلاً :

- لماذا نجلس هنا ؟

- لم أعد أتبعكم .

وسأل .

- ماذا حدث ؟

وعندئذ فحسب جلس، وعلى البعد من الشمال كان يصل صوت ضعيف للرعد، ومن العسير تنفس الهواء، وكان لدى انطباع بأننى رجل مستقل قد كفر عن ذنوبه فلم أجب عليه .

وقال دون أن يجتهد فى إخفاء انفعاله :

- لابد أن تجىء ورائى .

وكنا نسير على خط السكة الحديدية الضيق الذى كانوا ينقلون عليه النفايات، ومن الناحية اليمنى كانت توجد تلال النفايات التى كان

يصدر منها هنا وهناك دخان فى حزم رفيعة، وفى أعلى اليسار كان يوجد الخزان، ولكنه لم يكن يُرى .

وقال يوحيد :

– أعتقد أنها هى، انتبه حتى لا تلاحظنا .

وهرولنا وجلسنا القرفصاء عند حفرة عميقة، ورحنا ننتظر .

وقال حينما ظهرا :

– أترى، لقد كنت على صواب، إنها ماريا والشاب الذى يقوم بنقل الخبز .

وعلى بعد عدة خطوات كانت العربات الصغيرة تنزلق انزلاقًا عموديًا إلى منطقة سوداء مقفرة تتناثر فيها برك متلألئة من المياه، وفى السماء كانت تتحرك سحب سميكة قاتمة وبينما كنت أنظر إليها تهيأ لى أننى أسمع هديرها، وكان الضوء لا يزال يشمل المنازل البعيدة للمدينة وتملكنى مرة أخرى انطباع بالسكون، وربما كانت ماريا وصاحبها الشاب أمامنا يشعران بالغبار المائى للأمطار الذى يتبدد فى الجبل أمامها .

وقال يوحيد :

– هيا بنا !

ولففنا حول الكوم الأخير للنفايات وواصلنا السير بين القضبان الحديدية، وكان أمامنا مالا يزيد عن سبعين دعامة خشبية للقضبان، ومد الشاب يده ولمس شعر ماريا ثم التفت .

وكأننا نتصرف وفقًا لاتفاق هرولنا نحو العربات الصغيرة التى كانت تقف على طول القضبان، وزحف يوحيد على الأربع وبعد أن أطل برأسه قال :

انتهى الأمر ... لقد رأى .

وتوقف الشاب وبدون عجلة توجه للقائنا، كنت أعرف أننى لن أقاوم، وتهيأ لى أن وجهه معروف وليس شريرًا على الإطلاق، كان أكبر سنًا مما كنت أظن، وكان يرتدى زيًا جديدًا للعمل كذلك الذى يرتديه العمال الميكانيكيون، وابتسمت وجاءت الضربة مفاجئة ولم أشعر بالألم فى التو، وأحطت رأسى بيدى، وسمعت يوحيد وهو ينادى على ماريا صائحًا بقوله :

– مرحبًا، هيه، مرحبًا .

وأطاحت به ضربة قوية براحة السيد واصطدم بظهره فى العربة الصغيرة .

كنا فى أثناء سقوط الأمطار .

وجاءت ماريا مهرولة وكنا نقف جميعًا الآن وقد أرخينا أيدينا .

وبدا لى يوحيد غير معروف .

وقالت ماريا :

- أنت ثانية .

ونظرت إلى الشـاب، وفى هذه المرة أيضًا لم يوح وجهه بالشر فكبحت جماح نفسى، وتهيأ لى أنه يبكى، إنه يبكى بلا انقطاع .

وصاح :

- إلى أين تهرب ؟

وسار فى إثرى قائلاً :

- إننا لم ننته بعد .

وقلت :

- من الغباء أن نبتل .

وجرينا فى توازٍ إلى أن أصبح هذا غير محتمل بالنسبة لى، وعندئذ توقفت، وكانت ماريا تسير بالخطوة وعاد الشاب، وكان يوحيد يتكلم بابتذال ولفترة طويلة .

لم يكن المطر قد انقطع عن السقوط بعد حينما دخلنا إلى التكنة الخاصة باللعب بكرات البولينج حيث كان يتجمع فى الأغلب عمال المناجم، لم أكن أعرف أين سأقضى الليل، ولكن الضوضاء والناس

الذين كانوا يتحركون في كل النواحي ويقومون بالتدافع غمروني بأمل غير واضح، وقد اختفى يوحيد، ولم تكن بى رغبة لأن أعثر عليه، وإلى وقت متأخر في الليل كنت أضع القناني الخشبية وأعيد الكرات الخشبية .

وقضيت الليل بجانب قاعة اللعب بالكرات الخشبية وأنا أرتجف من البرد وقد تملكني خوف وأنا أنظر إلى التلألؤ الفتان للسماء التي كانت بيضاء تقريبًا من النجوم .

وفي الصباح الباكر دوت لأول مرة صفارات المصانع والمناجم، وقد هبطت إلى حفرة "باربارا" عدة مرات فحسب، وتمنيت أكثر من أي وقت مضى أن أفعل ذلك في هذا الصباح .

وكانت دار الأيتام بجانب الطريق مباشرة، ولم أدخل عن طريق البوابة .

وسأل المدير قائلاً :

– هل أكلت شيئًا ؟

ورفعت رأسي لأنه كان رجلاً طويلاً . وقلت :

– نعم أكلت .

وظلت الكلمة معلقة في الصباح النقي لفترة طويلة .

وقال :

- بقيت على الموائد وجبة إفطار واحدة فحسب .

وقال ثانية :

- أنت تسخر منى، والشجاع هو ذلك الشخص الذى ليس لديه ما يفقده .

وصحت قائلاً :

وأنا ليس لدى ما أفقده، ليس لى أحد وليس لدى شىء .

وقال المدير :

- هيا نأكل شيئًا .

وجلس إلى المائدة .

ودوت الصفارات للمرة الثانية بصوت نفاذ ومهيب، وبالخارج كان يسمع صوت عربة النقل التى تأتى بالخبز، وخرجت النسوة وقد ارتدت مرايل بيضاء نظيفة ووضعت أغطية رأس مضحكة وهن يحملن بسلاسل مصنوعة من أغصان الأشجار، وألقت ماريا التحية، وكان لا يزال النوم فى عينيها، ورأيتها وهى تصعد على سلم الكابينة لكى تضغط على آله التنبيه، وحاول السائق أن يمسك بها ولكنها أفلتت منه، وضحكت النسوة والتفتت، وفى قاعة الطعام، بمحاذاة جميع النوافذ كان خط مستقيم يقطع أحزمة الضوء على شكل نصف دائرة .

وقلت :

- من غير الضرورى أن تبذل جهداً بشأنى .

وأضفت أيضاً بصوت خافت :

- كيف يمكننى أن أعرف أن أبى لم يقتل شقيقك، أو جعل من إيڤان لوكوت شخصاً أكرهه، وحتى اسمى لا أحد يعرفه .

- حتى لو الأمر كذلك .

هكذا قال المدير بعد أن تملكه الصمت لفترة طويلة بقدر ما خرجت النسوة مرة وعدن لكى يأخذن باقى الخبز، وأضاف قائلاً :

- حتى لو الأمر كذلك، لك الحق فى رعايتى .

ونظرت إليه لأول مرة طوال كل هذه الفترة منذ جلوسنا .

وقال :

- ولم أفكر فى أى عقاب .

وأبصرت الوجه فى السطح الساكن للشاى البارد ولم أتحرك حتى لا أفسده، ولما رفعت رأسى ثانية لم يكن المدير جالساً إلى المائدة .

وكان لدى إحساس بأننى نسيت شيئاً وهذا سبب لى ألماً .

النبع

وراء كوماه وإرزنچان فى نز القوس، فى إقليم غنى بالمياه، وكان يوجد أيضًا نبع كانت له قدرة عجيبة على أن يحقق كل أمنية لذلك الشخص الذى يرتوى منه .

وكانت عائشة الكلمون امرأة من "قرس" وكانت تحب رجلاً يدعى بهلول، وهو الرجل الذى استسلمت له بكل كيانها، واستمر الحب بين عائشة وبهلول لفترة طويلة إلى أن تعرف بهلول على خديجة، وهى امرأة أصغر سنًا من عائشة، وقام بهلول بالفرار من "قرس" وهو غارق فى هواه حاملاً معه كل ما استطاع حمله، بل وحمل حتى الحلى التى كانت تخص عائشة .

ولم تستطع عائشة لأيام أن تستقر فى أى مكان، بل كانت تهيم على وجهها دون انقطاع فى كل الجهات وهكذا صادفت النبع وارتوت من مائه وهى لا تفكر إلا فى فكرة وحيدة، وهى أن تقوم خديجة بأسرع ما يمكن بفقء عينى بهلول، وكان الوقت ليلاً وسقطت عائشة من الإرهاق واستغرقت فى نوم قصير متقطع على الحشائش بجانب النبع،

وعلمت فى يوم الغد أن خديجة قد فقأت بالإبر عينى بهلول وأنها نهبته وهربت إلى مدينة أخرى، ويقال إنها هربت حتى إلى مدينة چيمشيد .

إلا أن عائشة لم تكن لديها القوة لأن تبحث عن خديجة بل بحثت عن بهلول وعثرت عليه، واعترفت له بأنها طلبت من الله أن تفقأ خديجة عينيه حتى لا يرى أبداً بعد ذلك أى امرأة أخرى، واقتاده معها، ووافق بهلول لأنه لم يسعه أن يفعل أى شىء آخر، وقادته عائشة إلى ذلك النبع الذى تمنت عنده فى وضوح وحسم أن تحدث له مصيبة، وأتت به إلى الماء وقالت له أن يشرب وأن يتوسل إلى الله بصوت جهورى حتى تسمع هى وبإخلاص بهذه الكلمات : "أنا بهلول أريد أن أحب عائشة حبًا شديداً"، ولكن ما أن تذوق بهلول الماء وشعر بتأثيره العجيب حتى صاح قائلاً :

– أنا بهلول أريد أن يعود إلىّ بصرى، أريد أن يعود إلىّ بصرى ... !

ومن أجل هذا دفعته عائشة وهى تسب وتلعن .

وهكذا لم يلاحظا أنه يقوم بمراقبتهما رجل يرتدى ملابس المسافر وقال :

– لو كنت قد تمنيت ألا تفقد بصرك أبداً قبل أن تتمنى هذه المرأة أن تفقد بصرك لحقق لك هذا الماء أمنيتك ولحدث ذلك .

وقالت عائشة متسائلة :

- أنت تعرف قدرة هذا النبع ؟

فأجاب الغريب قائلاً :

- نعم .

واقترب من النبع وارتوى منه .

ولم تطق عائشة صبراً بل سألته قائلة :

- وماذا تمنيت لو كان بإمكانى أن أعرف ؟

وأجاب المسافر قائلاً :

- لا شىء .

وابتسم، فسألته عائشة فى اندهاش :

- لا شىء ؟ كيف لم تتمن شيئًا ؟

فقال المسافر :

- لا شىء، لقد ارتويت .

ولم يمض زمن طويل ولم تطق الطبيعة النسائية لعائشة صبراً بل حكت لأبيها، للعجوز أبى سعيد، أنها اكتشفت نبعًا سريًا يحقق الأمنيات، وأبو سعيد رغبة منه فى أن يقضى اليوم مع أحد الأشخاص أكثر من تصديقه لابنته طلب من عائشة أن تمضى به معها، وهكذا توجه الثلاثة كلهم إلى النبع : عائشة وصاحبها بهلول الأعمى

وأبو سـعيـد، والدها، ووصلوا إلى الماء، وإذ بهم يجـدون هناك ثانيـة ذلك المسافر، فألقت عليه عـائشة التحيـة ورغم أنها كانت تحب بهلولاً فحسب إلا أنها مع ذلك شعرت بأن المسافر يجذبها بطريقة متميزة وأنها مـعجبة به . وأخفت هذا الأمر . وسألته عن اسمه، وقال المسافر :

– اسمى جعفر سربز وأزعم أننى من سلالة الهاشميين !

– أجئت مرة أخرى لكى تشرب من هذا الماء ؟

ورد جعفر بالإيجاب .

وقالت عائشة :

– جئت بأبى لكى تعود له صحته .

وطأطأت رأسها، وأجاب عليها جعفر قائلاً :

– هذا ليس صحيحاً . لقد أتيت به لكى تتيقنى مرة أخرى هل لهذا النبع حقيقة قدرته .

– أنا أبو سعيد .

هكذا خاطب العجوز جعفر وهكذا تم التعارف بينهما .

ولما تنوق أبو سعيد الماء وطلب أن تعود إليه صحته تحققت أمنيته، وأخذت عائشة وجعفر ينظران كيف يرقص العجوز ويصيح ويغنى، وطلب بهلول أن يرتبط بعائشة بحب شديد، وحينما انتهى ذلك جلس العجوز أيضاً وهو متعب على الأرض، والتفت إلى جعفر وقال له :

- هيا، اشرب أنت أيضاً .

وعندئذ نهض جعفر وارتوى من ماء النبع، وسأله أبو سعيد بقوله :

- وماذا تمنيت ؟

فأجاب جعفر قائلاً :

- لم أتمن شيئًا، لقد ارتويت .

والعجوز مثل الطفل، يفعل ما يخطر على باله، وليست طبيعته بعيدة عن طبيعة النساء، وهكذا فإن أبا سعيد الذى كان يحب ابن أخيه ابن عباس، كشف له عن سر النبع وقال له أن يحاول عن طريق ماء النبع هذا أن يحل معاناته العاطفية، ذلك أن ابن عباس كان مغرمًا أشد الغرام بالحسناء، وهى أجمل فتاة فى بلد قرس، إلا أنها لم تكن تكترث به، وذهب ابن عباس إلى النبع من الطريق الذى حدده له أبو سعيد وارتوى من ماء النبع وهو يقول : "أنا ابن عباس أريد أن تكون الحسناء الجميلة لى أنا فحسب، وأن تحبنى وأن أحبها وأن تكون الحال هكذا إلى الأبد" .

وبالفعل، بعد ثلاثة أيام فحسب اقترب ابن عباس من الحسناء، ونظرت إليه، وتحول شىء ما بداخل نفسها ووقعت فى غرامه بشكل عنيف، وبعد زواجهما كشف ابن عباس لزوجته فى إحدى الليالى الأولى الرخيمة عن القوة السرية للنبع وتشوقت الحسناء لأن تتذوق ماء النبع . وذهب بها ابن عباس وكله سعادة، وارتوت الحسناء العطشانة ارتواءً

كبيراً من الماء الصافى وهى تقول فى نفسها : "ليت أم ابن عباس تموت لأنها تعاملنى معاملة سيئة، وليت منزلنا يبقى لنا نحن الاثنين فحسب" . غير أنها قالت لزوجها إنها تمنت سعادتهما، واقترب ابن عباس بنفسه من النبع وكرر بصوت عال، وهو مشرق الوجه، كلماتها هذه، ولما عادا إلى دارهما وجدا قدرية، والدة بن عباس، راقدة فى الفناء، فى المكان الذى فاجأها فيه الموت .

وبعد ذلك بفترة طويلة عرف جميع سكان بلدة "قرس" بالنبع وتقدمت المدينة تقدماً سريعاً بحيث إنها أصبحت مشهورة شهرة واسعة من أجل تجارتها القوية وحياتها الباهية السعيدة، واشتاق كثير من الناس إلى الإقامة بها وإلى تذوق ولو شىء من حسن حظها، إلا أن أهل البلدة حافظوا بحكمة وغيرة على سر نبعهم وبالفعل وكأن الجميع كانوا أقارب قرابة حميمة يتبادلون بإخلاص الحب والمساعدة، وبعد الموجة الأولى من الخير والبهجة أخذت الأمور تتبدل، وهكذا فإنه بالنسبة لعائشة أصبح فجأة الحب المفرط والإخلاص من جانب بهلول عبئًا يعوقها وذهبت إلى النبع تطلب خلاصًا ورجلاً يعتنى بها، وتسلطت على ابن عباس الغيرة المفرطة تجاه الحسناء الجميلة، وتملك العجوز أبا سعيد القنوط لأنه لم يكتشف النبع فى شبابه، وأدرك جميع السكان الآخرين لبلدة قرس تغير رغباتهم المتحققة، فاندفعوا الآن نحو النبع فى جماعات كبيرة وبدون أية شفقة تجاه أولئك الذين كانوا يسقطون ويبقون فى التراب عرضة للوطء والنسيان، وكان الجميع يتدافعون ويزدردون

فى الوقت الحاضر المياه المتعكرة، وتعجل كثير من الناس الذهاب ثانية إلى النبع دون أن ينتظروا تحقق أمانيهم، وفى فزعهم واضطرابهم لم يعودوا يعرفون حتى ماذا يريدون، واتفقت عائشة وأبو سعيد وابن عباس والحسناء مع بعضهم فى الرأى اتفاقًا قويًا، ومن أحد الأماكن فى الزحام كان بهلول أيضًا يستغيث وعبثًا كان ينادى على حبيبته، ولما ساد الذعر بين أهل بلدة "قرس" إلى درجة كبيرة بحيث إنهم أخذوا يضربون بعضهم البعض ويتشاجرون فيما بينهم، ولما سقطت بجانب النبع أولى الضحايا والقتلى، صعد أحمد خان عزيز، البك الكردى من أرديلان ومفتى بلدة قرس إلى أقرب هضبة، وأمر الجيش بتفريق المحتشدين إلى سفح التل، وبمجرد أن هدأ الجمع الغفير من الناس (لأن هؤلاء لم يعدوا السكان الأوفياء الشرفاء والسعداء لبلدة "قرس"، بل جمع غفير من الأناس القذرين والحقرين) بدأ أحمد عزيز من أرديلان كلمته، وهاجم بصراحة أهل بلدته بسبب أشد التصرفات عدم لباقة فى تاريخ بلدة "قرس"، وبعد ذلك طالب مطالبة حاسمة بعودة النظام والسلام والتقدم .

واستمع الجميع لكلمة أحمد عزيز خان بالاهتمام والاحترام الواجبين، ولكن رجلاً سار خلال الحشد دون عائق ووصل إلى النبع وأطفأ ظمأه فى هدوء . أجل، كان هذا هو جعفر سربز الهاشمى، وحينذاك صاح أحد الأشخاص بأعلى صوته : "ها هو، أحد الأشخاص قد شرب !" وعلى الفور قبض الجنود ذوو الهمة على جعفر واقتادوه

أمام مفتى "قرس" الذى كان قد قطع كلمته، وشعر الناس بسخط بالغ تجاه مرتكب المخالفة الغريب بحيث إن الجنود المسلحين كانوا يشقون طريقهم بمشقة وهم يضربون حولهم بلا هوادة بالطرف الثالم من الرماح، ولما وقفوا أخيرًا أمام المفتى، وجه المفتى سؤالاً إلى الوقح بقوله :

- هل صحيح أنك شربت من ماء النبع ؟

فأجاب جعفر قائلاً :

- صحيح .

- وماذا تمنيت عندذاك ؟

- لم أتمن شيئًا .

وسأل المفتى وهو غير قادر على إخفاء دهشته قائلاً :

- لم تتمن شيئًا ؟!

فقال جعفر بهدوء :

- لا شيء، لقد ارتويت .

وسأل المفتى مرة ثانية قائلاً :

- لم تتمن شيئًا ؟

- لم أتمن شيئًا، ولم أتمن ولا حتى ألا تصيبنى بسوء اليوم .

- ولا حتى هذا ؟

فقال جعفر :

- ولا حتى هذا .

وهبط جعفر من على التل دون أن يوقفه أحد، وراح الناس ينظرون في صمت فى إثره إلى أن اختفى عن ناظريهم .

وفجأة صاح أولئك الأشخاص الذين كانوا الأقرب إلى النبع قائلين : لقد جف النبع تماماً .

الغلطة

بمجرد أن لمحتك، أيها الشاب، شعرت بالحاجة إلى أن أحكـــى لك شيئًا لم أحكه لأحد أبدًا، ربما لأننى - لا تشعر بالإهانة - مســتعد فى الوقت الحاضر لأن أحكى هذا الأمر إلى أى أحد، ولم تعد لهذا الحادث أية أهميـة بالنسبـة لى بالرغم من أننى أخفيتـه فى نفـسى لســنوات طويلة .

وحـتى بلوغـى ســن الأربعـين لم أكــن أحببت امرأة واحدة، كنت مفــرطًا فــى الغــيرة والانتــقــاء، وكنــت أريد أن أعثر عــلى فتـــاة تخصــنى أنا وحدى، وكنت أمضى الوقت فى محال احتساء الشاى أجد فى الأفيون عزاءً وهميًا ونسيانًا خادعًا، ولم أشيد أملاً فى أننى سأتغير فى يوم من الأيام، ولم يكن بمستطاعى أن أرتبط بواحدة لم أكن أحبها، وعلى الرغم من ذلك فقد اعتبرت أننى عائش تمامًا إن لم أكن إنسـانًا خاليًا من العيوب، إذا فهمت ماذا أريد بذلك أن أقول، ربما لن تصدق، ولكنى وقعت فى حب فتاة صغيرة فى الثالثة عشــرة من عمرها، ابنة أحد أصدقائى، لا تفكر أنه كان فى هذا الأمر أى شىء قبيح أو شاذ،

على العكس، الأصح أنه يمكن القول بأنه كان ساذجًا وغير واقعى .
وكانت ألعازر فتاة جميلة وعاقلة وطيبة وبكثير من اليقين يمكن التخمين
بأنها حينما تكبر أيضًا ستحتفظ بكل هذه الصفات وتنميها .

وهكذا فإننى بصفتى صديقًا لحاكم البير، والدها، كنت أذهب كل
يوم تقريبًا إلى منزلهم متكتمًا حبى، وكنت أتأمل بانتباه كل ما تفعله
ألعازر، وأراقبها وأعتنى بها وبتربيتها بإخلاص هائل، وكان والداها
يشكران لى هذا دون أن يخمنا أن كل الطيبة التى كنت أغمرها بها
ليست إلا مجرد أنانية منى .

وكان حاكم البير ابنًا لأحد القضاة، ويكبرنى بعدة سنوات، وهو
معتز غاية الاعتزاز بكرامته لدرجة أنه وهو لا يزال تلميذًا فى الكتاب
ترك تمامًا دراسته لأنه لم يستطع تحمل أن يقوم رجال الدين والمدرسون
باختباره، وقبل أن يتم التعارف بيننا كان يترك فى نفسى تأثيرًا منفردًا
وهذا الانطباع لم يتلاش من نفسى تلاشيًا تامًا أبدًا، وعلى النقيض كان
يكن لى حبًا، ولكن هذا كان بالنسبة له عذابًا يعتنى بإخفائه، بينما كانت
صداقتنا فى الوقت نفسه تعصر صدره وتصيبه بألم، وعلى الرغم من كل
الإخلاص فقد كنت متحفظًا تجاهه إلى حد ما على الدوام، وكانت زوجته
قصيرة القامة نسبيًا، وذات وجه عريض، ولها عينان واسعتان زرقاوان،
تلتزم الصمت وهادئة ومنطوية، وهى واحدة من تلك الشخصيات غير
الملحوظة التى تمنحها الحياة كل شىء وتحمل لها خبرات غير متوقعة،

كانت تعرف عن كل شيء أكثر بكثير مما كان حاكم البير - مثلاً - بمقدوره أن يفترض، ولم تكن تخفض وجهها أمامي .

ولما أكملت ألعازر الخامسة عشرة من عمرها تحققت كل توقعاتي بشأن جمالها، وألححت إلى أبيها بشأن حبي لها إلا أنه عارض معارضة عنيفة وهددني بأنه سيقتلني إذا ما حاولت أي شيء، وقال بحسم :

- إنني أساندك فيما يتعلق بأية امرأة أخرى، ولكن ابنتي ليست لك !

كنت أشك شكًا عميقًا في صداقته، وأجبته بأن الرابطة الوحيدة بيننا طوال كل هذه الفترة لم تكن إلا ابنته، وكنت أعلم أن هذا سيشعره بالإهانة، وعلى الرغم من هذا فلم نتشاجر واستمر كل شيء باقيًا، تقريبًا، كما كان عليه من قبل .

وحينما بقينا لأول مرة ألعازر وأنا بمفردنا حكيت لها كل شيء . ولمدة عام كنا نلتقي خلسة ونتبادل - يمكنني بحرية أن أقول - حبًا طفوليًا إلى أن قررت ذات مرة أن تشتري شيئًا وتهديه لي، لابد أن تعرف - أيها الشاب - أنها كانت غاية في التعفف، وأنها لم تخرج بمفردها إلى أي مكان وأنه طوال كل هذه السنين لم يمسها أحد سواي، لقد أردت أن تكون هذه الهدية غير ملوثة ونقية في كل شيء، ورجوتها ألا تفكر عند الشراء إلا فيَّ، وألا تنظر في الطريق إلى أي رجل

أو شاب، وألا تتحدث مع أحد بأية كلمات زائدة، ووعدتني في سرور أن كل شيء سيكون بالضبط كما طلبت .

وفي يوم الغد حصلت على هدية، وكانت ساعة رملية صغيرة، وأصبحت بالنسبة لي على الفور شيئًا مقدسًا، وعلمت في يوم ما بعد الغد أنه لم يكن أي شيء على النحو الذي اتفقنا عليه .

وفي المساء ذهبت بها إلى الصحراء، بعيدًا عن عيون الناس وبعد ارتمائي على الرمل أخذت حينًا أضربها وأخدشها وحينًا آخر أضرب نفسي وأخدشها، وكنت ألعن وأصرخ أنا فحسب، وكلانا كنا نبكي، ولا أتذكر متى وكيف انصرفت، ولكني أتذكر أنني ظللت لفترة طويلة بمفردي، مابين السماء والأرض .

وفي أثناء تفكيري وبحثي عن سبب لكل ما حدث أدركت أن تعطشي للحب النقي نبع من أقذر الدوافع، وفي الوهلة الأولى أصابني الذهول من هذه المعرفة بالأمر، لأنني كنت على يقين تام بأن رغبتي في أن تكون لي زوجة عفيفة وذات خلق حسن هي رغبة صادقة تمام الصدق، وعلى الرغم من ذلك فإن هذه المعرفة بالأمر حررتني إلى حد كبير من الآلام التي كنت أشعر بها وببساطة أعادتني إلى الحياة، وفي الوقت الحاضر رحت أنظر إلى جميع الأمور على النحو الذي هي عليه وأراها في تجردها، حتى إنني ببعض سوء النية أدركت أن ألعازر، تلك الفتاة التي كنت أحميها من كل شيء قذر وغير لائق، هي في أعماق نفسها فاسقة وسهلة الانقياد دون أن تكون هي بذاتها على وعي بذلك،

ووقعت في غرامها ثانية، وتذكرت أن حاكم البير قد قال لي في إحدى المناسبات إنه سيعتبر حياته غير موفقة إذا لم يقتل أحداً، وفجأة أبصرت في النظرة الحنونة للأم لزوجة حاكم البير جشعًا شرهًا، وكل هذه المعارف كانت عسيرة، ومدمرة تقريبًا، ولكنها بدلاً من أن تقضي عليّ زودتني بالقوة، وتهيأ لي أنني، مثل طائر العنقاء، انبعثت من الرماد الخاص بي .

وأردت أن أبدأ كل شيء من جديد، ولكني كنت أعلم أن العازر لن تستجيب لندائي وأنني فحسب سأزيد من ابتعادها عن نفسها إذا ما اقتربت منها ووجهت إليها ولو كلمة واحدة، وتذكرت أنها كانت معتادة على أن تؤكد كل إحساس لها وتجربة بحيث تكررهما . وكنت أتردد على تلك الأماكن التي كنا نلتقي فيها فيما سلف وأنتظر، ولم أكن غير صبور أو غير سعيد، ولم يعد الوقت موجوداً بالنسبة لي، ووقفت عند نفس ذلك المكان الذي قبلتني فيه لأول مرة، واقتربت وهي مترددة بيد أنها كانت هادئة وتتملكها رباطة جأش، وابتعدت قليلاً حتى لا تخدشني، وتوقعت أنها ستحاول مرة أخرى، ولم يخب ظني وابتعدت، ولكن لم يكن ابتعادي فظًا ولا مثيراً للإهانة مثلما كان في المرة الأولى، وابتسمت في احتقار تقريبًا ثم انصرفت، وحينما التقينا في المرة التالية أرادت مرة أخرى أن تخدشني، ولكني في هذه المرة أيضًا لم أسمح لها بذلك، وفيما بعد توالت أمور لا أعرف كيف أعبر عنها بالكلمات، إنها أمور لا يمكنني ببساطة قولها، ولا يسعك إلا أن تصدقني .

وخلال فترة وجيزة أحبنى كثير من أولئك الذين حتى لم يلاحظونى إلى عهد قريب، وتقدمت تقدمًا رائعًا الأعمال التجارية فى التوابل التى بدأت فى العمل بها، وحتى وجهى أيضًا اكتسب الملامح التى كنت على الدوام أتمناها، وكانت ألعازر تعرف وتشعر بأننى أحبها، ولكنها لم تستطع أبدًا أن توضح لنفسها كيف أنجح فى مقاومتها، ولم يكن بمقدورها أن تفهم كل هذه التغيرات السريعة غير المعقولة فى حياتى، إلا أن تركيزى كان هائلاً لدرجة أننى فى المساء، حينما يجىء وقت الراحة، لم يكن بإمكانى النوم، وعند استرخائى كنت مرة أخرى أتحول إلى مخلوق متألم ومحبط، ويمكننى القول بصراحة بأننى كنت خلال النهار أسعد إنسان، وفى المساء أكثر الناس شقاءً فى العالم، وعلى الرغم من ذلك فقد أصبحت حياتى تقريبًا عنيفة إلى حد كبير لدرجة أننى لم أكن على الإطلاق فى حاجة إلى النوم لأيام .

وكانت ألعازر تتعثر وتسقط أكثر فأكثر ولم تمر فترة طويلة حتى بدأ والدها يشكو من المسلك المشين لابنته، وحينما اعتقد الجميع تقريبًا أن الفتاة قد انهارت أخلاقيًا قدمت لها العون، وفى الوقت نفسه ودون وعى تقريبًا وبطريقة لا أستطيع أيضًا على الإطلاق أن أصفها لك بالكلمات، حفزت أباها كذلك لأن يكون على طبيعته الحقيقية، وكان البائس يتردد بين الحب الذى يشعر به تجاهى وبين الكراهية التى لم يجد لها سببًا واضحًا له مايبرره، وربما سيبدو لك هذا عجيبًا، ولكنى بحصولى على سعادتى الكاملة لم تعد بى رغبة فى العيش .

وجلست وكتبت بأحسن طريقة كنت أعرفها وأقدر عليها كل هذا الذى حكيته لك مع تحديد مكان ويوم ولحظة وطريقة مصرعى، وأوضحت بأكثر ما استطعت من وضوح أن الشخص الذى سيقتلنى ليس مسئولاً على الإطلاق عن مصرعى .

وأتذكر جيداً حاكم البير فى اللحظة التى كان ينبغى أن يوجه إلىّ فيها الضربة الأخيرة القاتلة، لقد كان سعيداً ومضطرباً من الانفعال، وبدا له تافهًا العقاب الذى كان ينتظره فى مقابل ذلك الذى كان يشعر به فى ذلك الحين، وفى اللحظة الأخيرة وفى مواجهة الموت أدركت أننى ارتكبت غلطة واحدة، لقد قمت بالفرار، وهاأنذا ميت فى الحقيقة منذ سنوات، ومن العجيب أن التفكير فى هذه الغلطة التى ارتكبتها، التفكير فيها من الخارج وفى الظاهر، هو الأمر الوحيد الذى يبقينى حيًا .

وأنت تتساءل ما هى الغلطة ؟

وأنا، أيها الشاب، لا أستطيع أن أقول لك هذا، ولا يمكننى أن أقوله لك لأننى ربما يكون بمقدورى أن أصيبك بالتعاسة .

الفتيات يتناولن طعام العشاء عند هيبا

كنا نشعر بالجوع بينما لم نكن قد جلسنا بعد فى القطار ذى المقاعد الخشبية العادية، وفى انشغالنا بالنظر إلى الناس انشغلنا أيضاً بأنهم كانوا يراقبوننا لم نستطع على الفور أن نتذكر أنهم ينتظرون توقعًا لأن يكونوا هم أنفسهم محط الأنظار، وكنا نبحث فى الوجوه الغريبة عن نظرة تبين أننا نثير الإعجاب، وكان الجميع ينهضون بسرعة ويطرقون عيونهم بحيث إنه كان من العسير ملاحظة هذا، ونسينا أننا نختفى على عجل وأنه لا أحد يتذكرنا، ومن ثم فبمقدورنا أن نتحرك فى حرية، ودخلنا ووقفنا .

قامت هيبا توباك من بلدة "ز" بدعوتنا لتناول طعام العشاء وأرادت بذلك أن ترد كرم الضيافة الذى قدمناه لها فى بلدة "ج" .

كنا نشاهد الحقول المنداة بالمياه، وننظر إلى هناك على البعد إلى النهر الهادر كيف قلب جنوع الأشجار المقتلعة من جذورها، وإلى التلال التى على شكل سلسلة متواصلة ترتبط ببعضها، تل يرتبط بما قبل بداية التل الثانى بقليل، والتل الثانى يرتبط بما قبل نهاية التل الثالث بقليل .

وبالصدفة توقف القطار قبيل المحطة وقالت لنا هيبا أن نهبط، ونزلنا على الأرض الرخوة والباردة وكنا ننظر ونحن نجلس القرفصاء إلى الرءوس البادية من النوافذ التى كانت تبتعد . ومرة أخرى فكرنا فى الطعام، ولكن استولى علينا الخجل، ولم يحدث هذا طبعًا لهيبا،،،، وقالت لنا أن نسرع لأن المطر سيبدأ فى السقوط، ونحن قلنا إنه لن يسقط بعد وأننا لسنا جائعات إلى هذا الحد، ولكن بعد ذلك بلحظة قلنا إن الجوع مع ذلك يصيبنا بالألم، ومن ثم سنذهب إلى أحد الأماكن ببلدة أخرى ونتناول الطعام هناك، وسقطت قطرة مطر على يد هيبا وأرتنا إياها وابتسمنا نحن دون أن نصدق، ووقفنا ونظرنا إلى السماء فى انتظار المطر، وكانت السماء مضيئة، ولكنها لم تبدد الظلام السائد على الأرض، وصدمتنا القطرات فى وجوهنا وهرولنا هربًا منها، وفى أثناء جرينا قلنا لهيبا إننا لن نذهب عندها وضحكنا، وقمنا بالجرى بسرعة كبيرة بحيث إننا لم نستطع أن نختبئ تحت سقف غريب، وبينما كانت أقدامنا تصدر دويًا على الجسر الخشبى وجدنا أنفسنا أمام منزل عائلة توياك، وكان المطر يتساقط، وصمتنا، وحتى هيبا لم تقل شيئًا وإنما كانت تتنفس بصعوبة، وبعد ذلك بقليل قالت فجأة أن نخلع الأحذية وأن ندخل، وهو ما أجبنا عليه بأننا لن نفعل، وأسرعت هى بجانب درجات السلم، ولم تظهر إلا بعد مرور فترة طويلة وهى تمضغ شيئًا، وسألناها عما تمضغ فأجابت أنها مندهشة من توقفنا وبدأت بنفسها، وهى فى

حالة غضب، فى خلع الحذاء لإحدى الضيفات . ورغم أنها رأت أن هذه تنتظر حتى تقوم هى بحل رباط حذائها حتى النهاية نهضت هيبا توباك على وجه السرعة واختفت ثانية بعد أن جذبت هذه الفتاة من كمها .

واتضح لنا الآن أن هيبا لن تبتهج بأننا سنأكل على مائدتها ولكن كان هناك بالخارج قدر كبير من المياه، وهى تتدفق فى جداول حول المنزل إلى نهر صغير، أما نحن فقد كنا جائعات لدرجة أننا دخلنا فى عجلة ونحن نخفى سوء النية .

وجلست هيبا إلى المائدة وهى تأكل لحماً، وكنا ننظر إلى حماة هيبا ونبتسم لها فى لطف، وقالت العجوز بحيوية، وهى فى كل لحظة تقطع كلامها بخفض حاسم للرأس، إنه ليس بمقدورها النهوض لأنها منذ عدة أيام ترقد فى السرير وتنظر من النافذة، ونحن أيضاً ألقينا نظرة وقلنا إنها كانت، بلا شك، ستصاب بالجنون لو لم يكن بمستطاعها النظر إلى الخارج، وأكدت العجوز على كلامنا بابتسامة وواصلت على وجه السرعة كلامها، وبالرغم من أننا حاولنا متابعة حديثها فلم ننجح فى الإحاطة بالمعنى، ولم نلحظ متى توقفت . وقالت هيبا توباك أن نجلس وأنها ستحضر لنا الطعام على الفور . وجلسنا، ولكن ظللنا لفترة طويلة ننظم جلوسنا حول المائدة مع مراعاة ألا ندير ظهورنا للعجوز والدة توباك، وفى هذه الأثناء أسقطنا قطعة خبز، ونظراً لأنها لاحظت على وجوهنا الحياء والارتباك فلم تعر هيبا هذا الأمر انتباهاً، ولم يكن هناك داع لأن

تنتزع منا بإيماءة أو كلمة تعبيراً عن اعتذارنا، وخلال وضعها للأطباق على المائدة حطمت طبقًا ورأينا أن الفزع تملكها وحينما لاحظنا ما حدث ظننا أن هذا بسببنا وأردنا أن ننصرف . والآن كان الأوان قد فات على الرغم من أن العجوز اتهمتنا بالمسئولية عن الطبق المكسور، ومع ذلك بقينا جالسات، واجتهدنا فى ألا نقوم بأية حركة، إلا أن هيبا أصبحت عديمة الصبر وسرعان ما حدست، بخوف، مشاعرنا . ونحن أخفينا فى هدوء خجلنا، وتصرفت هيبا بحذر حتى تستخرجه من نفوسنا، ولكنها لم تفعل ذلك لفترة طويلة لأنها أخذت تصيح بأن الطعام قد برد تقريباً، ولدى سماعه لهذا الصياح دخل زوجها بايرو توباك، ونظر بحدة إلى الموجودين فى الحجرة، واستغرق هذا فترة طويلة بحيث إن النهر الصغير غمر الشارع كله، أما نحن، فنظراً لانشغالنا بحرجنا لم نعرف ما هى المدة التى تفرج فيها زوج هيبا على الأشياء بعد ذلك .

وقال بصوت عال :

- تناولوا الطعام .

وجلس إلى المائدة مسنداً صدره على مسند الكرسى، وقال إن هذا الوضع مريح وإنه غير مفهوم بالنسبة له أن كل الناس يجلسون وظهورهم مستندة على المسند، ووافقنا على كلامه، ونظر إلينا لفترة طويلة، ثم أخذ طبقًا وأكل كل ما هو موجود به . وظننا أن شيئًا كهذا يبعث السرور فى نفس هيبا توباك . وقالت لزوجها إننا نشعر بالضيق

لأننا حضرنا وأن الدليل الواضح على ذلك هو الطعام الذى لم يمسه أحد، ولما أضافت شيئًا آخر توقعنا أنه سيقلل شعورنا بالضيق فى منزل غريب، وخاصة لأن زوجها بايرو خرج أيضًا توًا فى صمت، وهذا لم يغير من ثبوط همتنا فقلنا لها ألا تهيننا، وهوت على الكرسى وهى متأكده تقريبًا أننا لا نأكل لأننا نعرف أن هذا لا يسرها، وبعد أن رأينا هذا تملّكتنا الفرحة، ولكننا بسرعان ما أشفقنا عليها، وظنت هى أننا رغم ذلك لم نكتشف نفاقها، وفيما بعد كانت تتحرك فى حيوية وبهجة وهى تراقب باحتراس كلماتها وحركاتها وتعرض علينا تناول الطعام .

ورفضنا واستخدمنا كلمات معينة لكى نبين لها أن كل شىء معروف بالنسبة لنا، وأصابها الانزعاج الآن وهى تدافع عن نفسها، ونهضنا أيضًا وتحدثنا بحيث إننا أثرنا ضجة، ولكن كان فى كلماتنا غضب ومرارة صادقان .

وصحنا قائلات :

- افتحى لنا الباب .

ولكنها لم ترغب فى فتحه وقالت فى صرامة أن نجلس ونأكل وبعد ذلك فحسب يمكننا الانصراف، والكلمات التى قالتها أضاءت وجهها وكانت راضية عن نفسها، وجلسنا والتهمنا كل ما كان موجوداً فى الصحاف .

وجلست هيبا توياك بعناية على الكرسى واستقرت فى جلستها مثل زوجها أيضًا ولكنها نظرت بحدة أقل، وأكلنا دون أن نعيرها انتباهًا .

وصاحت العجوز بصوت أجش قائلة :

- فيضان .

وأتى مهرولاً بايرو توياك أيضًا وصاح بأن المنزل محاط بالماء ولكنه كان يصيح دون أن يرفع حاجبيه، ونظرًا لأننا أكلنا كثيرًا فلم يكن مزاجنا منحرفًا، إلا أن الصياح أصابنا بالخجل وراح بايرو أيضًا ينظر إلى الأطباق واستمر يتفوه بألفاظ غاية فى عدم اللياقة وغير لطيفة بالنسبة للأذن، بيد أن هيبا بعد أن أنهى زوجها كلامه، اقتربت منه وقالت له فى وجهه إنه ليس رجلاً شريفًا، ثم نظرت إلينا والتفتت ثانية إليه وقالت إنه لا ينبغى أن يتلفظ بكلمات سوقية لأننا ضيوفها، وقدمنا لها الشكر فى برود .

وأرادت هيبا توياك أن تقول أن ننصرف الآن، إلا أنها رأت أننا نجلس بلا حراك فلم تجرؤ على قول ذلك، وبسرعة وفى خوف قالت إننا نخدع أنفسنا إذا ظننا أن زيارتنا لم تبعث السرور فى نفسها، وصحنا كلنا بصوت جهورى وفى آن واحد وعلا الضجيج مرة أخرى لأننا كنا مضطرات لأن نفعل شيئًا لكى نبدد الضيق من نفوسنا .

وكانت العجوز تنتحب وتقول إن المياه ستدمر المنزل، والنهر الصغير يصدر هديراً، وكانت تسمع أصواتاً بالخارج، وصاح بايرو توياك بأشد ما استطاع لكي نصمت والتزمنا الهدوء، وقالت هيبا مرة ثانية إنها تعرف أننا نشعر بالضيق، وكلاماً كهذا بهذا المعنى، وصرخت العجوز والدة توياك بأن المياه تحطم المنزل، ومن حسن حظنا لم يصب المنزل بانهيار كامل، بل انهار جزء منه فحسب، ولم يتم سماع طرقعة عالية .

وأخذت العجوز تستغيث وطلبت أن تنقلها، وهوت الأشياء في النهر وسبحت معه بسرعة، وكان من المضحك رؤية صورة وهي تتأرجح على الماء لأن الصورة كانت معلقة على الجدار ولم تتأرجح أبداً، وصاح توياك قائلاً :

- انهضوا !

ولكننا لم نتحرك، وبدأت هيبا توياك في التو بتوجيه الكلام لنا بصوت باك، وأدهشتنا هذه النبرة، وعلى الرغم من ذلك قلنا إنها بصوتها الباكي تبين أن خجلنا لم يكن بلا أساس، وعبر الجزء المنهار من الحجرة شاهدنا دون اكتراث جمهوراً من الناس كان متجمعاً ويلوح في انفعال بالمشاعل الموقدة، ولابد أنهم كانوا يروننا بوضوح لأن المنزل كان بالضبط منشطراً إلى نصفين، وكان الضوء بالسقف ما زال منيراً، وكانوا يحركون أيديهم وهم يلتفتون تجاهنا إلا أنه لم يكن من الممكن سماع أصواتهم، وحينما فطنا إلى أن كل هؤلاء الناس يشاهدوننا

ويتفرجون علينا وكأننا على خشبة المسرح جلسنا فى غطرسة حتى لا يلاحظوا خجلنا، ومن المؤكد أن هيبا لم تكن مسرورة لأننا لم نسامحها فأخذت تصيح بأننا جاحدات، وكنا نضحك باستمرار حتى يعتقد أولئك الناس هناك بأننا نشعر بالارتياح تمامًا، ولاحظت خبثنا فأخذت تصيح بصوت أعلى وهاجمتنا هجومًا عنيفًا، ولكننا ضحكنا بصوت أشد علواً بسبب ذهولها، وربّتنا على كتفها ولاطفناها، الأمر الذى كان ينبغى أن يبدو كأننا نوافقها على كلامها وأننا معجبات بقصتها . ولكنها اقتربت من حافة المنزل المنهار، من الواضح بهدف أن تجلب العار علينا، وبدأت وهى ترفع يديها تصيح بصوت أعلى من صوت النهر موجهة كلامها إلى الناس . ولم يكن بمقدورنا أن نسمعها حتى لو أصخنا السمع بشدة .

وفى البداية هدأ المحتشدون من الناس، وبعد ذلك أخذوا يصدرون ضجيجًا وهم يشيرون بأيديهم إلى الجسر الذى أطاحت به المياه، واقتربنا من زوجة توباك التى كانت تصيح بلا انقطاع بأنها دعتنا إلى منزلها وكانت ودودة ونحن الآن نوجه إليها الإهانات، وواصلنا التظاهر بأن كل هذا مضحك بالنسبة لنا، بل وانبطحت إحدى الفتيات على الأرض من شدة الضحك، إلا أن هيبا توباك كانت تقوم بدفعنا، ونحن على وعى بأن الناس يرون ويراقبون كل هذا، عدنا إلى المائدة وجلستا بلا مبالاة، واستولى علينا الخجل بشدة، وكلما أطالت هيبا فى كلامها سيطر الغضب أكثر فأكثر على الناس، ولاحظنا هذا فدعوناها لأن

تحضر لأنه منذ الآن لن يكون بيننا خبث، ونظرت إلينا فى صرامة، وتمتمنا فى تصالح بقولنا :

- هيا، هيا .

وألقى أحد الأشخاص من المحتشدين من تلك الناحية، لعله يعطى إحدى الإشارات، أما هيبا فبعد أن نظرت إلى تلك الناحية توقفت قليلاً ثم ذهبت إلى سرير حماتها ورفعتها فى حضنها، وشكرتها العجوز، ولعدم رغبتنا فى أن تتميز هيبا فحسب نهضنا بسرعة ورغبنا فى تقديم المساعدة ولكنها أوقفتنا قائلة مع ابتسامة محزنة بأنه لا يلزم، وتملكنا الهدوء ونحن راضيات عن أنفسنا ونجتهد فى ألا ننظر عبر النهر، ولكننا مع ذلك اضطررنا إلى النظر لأنه من تلك الناحية تزايد إلقاء الطين والحجارة، ونظرنا وكأننا قد التفتنا بالصدفة .

وعادت زوجة توياك بالعجوز وهى تتنفس بمشقة، وقد أثار هذا سرورنا دون أن نعرف السبب، وقمنا بمساعدتها فى أن تضعها ثانية على السرير ونظراً لأنها كانت ترتعش فقد قمنا بلفها جيداً، ودخل بايروتاباك فى عجلة، وحمل العجوز مرة أخرى وهو يقول لزوجته إنه لم يكن ينبغى إعادتها .

ورأينا أن هيبا أيضًا تستعد للخروج، ولكى نسبقها صحنا قائلات :

- لقد حان الوقت الآن لكى ننصرف نحن أيضًا .

وهرولنا وخرجنا كلنا قبلها قائلات :

- إلى اللقاء .

وانهالت على الحجرة مجموعة من مختلف الأشياء، والتفتت هيبا توياك حول نفسها متظاهرة بأنها تبحث عن شىء، وحينما نبهناها إلى أنها ينبغى أن ترد على تحيتنا قالت عندئذ : "أوه ..." وردت التحية .

وهرعنا ونحن نحمل الأحذية فى أيدينا لكى نلحق بقطار المساء المتجه إلى بلدة "ج" . كنا مبتلات ولكننا لم نكن نشعر بالبرد لأننا تناولنا طعام عشاء وفير .

التحفة

عثرت هيكا توباك على تحفة فنية وهى تقلب الكتب القديمة، ونادراً ما كان شاميل وأفراد عائلة توباك يقومون بزيارتها وذلك لأنه لابد من خلع الحذاء عند باب الفناء والسير باحتراس من حجر إلى حجر آخر حتى لا يتم المشى على الزهور الصغيرة المتنوعة .

وكانت مسجلة على الكتب، وكلها تحمل أغلفة جلدية سوداء، علامات غريبة، وكانت تخص الجد توباك، بيد أنه معلوم أنه لم يقرأها أبداً، وحينما استفسر عنها شاميل المتعلم قالت الأرملة إنها ليست عندها، وكانت تحفظها مع الأشياء الباقية، محجوبة عن النظرات، وكانت تحبها لا لأنها كانت غامضة ولا على أنها ذكرى، بل لأن الكتب كان يمكن ترتيبها بنظام، وقد جاء جميع أفراد عائلتى شاميل وتوباك إلى الأرملة بعد معرفتهم بأنه تم اكتشاف تحفة فنية، وكان بعضهم يمشى بخطوات بطيئة، أما عابد شاميل فقد كان يسير بسرعة، ولم تكف الجميع الأحجار التى كان لا يمكن الوقوف إلا عليها فى الفناء، ولذا وقف البعض عند البوابة وهم يطلون، وفك عابد شاميل، المدرس النبيل،

اللوحة القماشية وتفحصها لفترة طويلة وقال إنه ليس لها قيمة فنية وذلك خلال تأرجحه لكى يحافظ على توازنه ولا يطأ الحشائش الحساسة، وأسرع بالانصراف حاملاً الصورة وهو يتقافز من حجر إلى حجر ويستند على أيدى وأكتاف أولئك الذين كان يمر بجانبهم، وكانوا ينظرون فى إثره وهم يمدون فحسب أجسادهم، أما سيقانهم فاستمروا فى جعلها بارزة إلى الأمام أو إلى أحد الجوانب، وصاح به نو الفقار شاميل بأن يترك رغم ذلك التحفة الفنية، أما عابد فقد أبدى بوجهه أنه متحير ومندهش ودس الصورة بازدراء فى صدر بايرو توباك، الأقرب إليه .

وقال نو الفقار آه لا ينبغى تصديق المدرس، ربما تملكه الأمل فى أن الباقين سيتنازلون عن هذا الذى عثرت عليه هيكا، وبعدئذ يبيع بمفرده خلسة الشىء الثمين، لأنه ببساطة جاء إلى هنا مهرولاً، ثم نظر لفترة طويلة وأراد أن يخفيها وكأنه يحملها مصادفة، ومضت الصورة من يد إلى يد، وتأكد أفراد عائلتى شاميل وتوباك مرة أخرى أنها فعلاً تحفة فنية، وبما أن الجميع تملكتهم الحيوية فقد خشيت الأرملة أن يبدأوا فى طيشهم فى التحرك بحرية، وهذا ما حدث بالفعل حينما قال نو الفقار، وهو ثمل قليلاً، إن العجوز توباك قد وعده بهذه اللوحة وهو لا يزال طفلاً، ولكنها ضاعت .

وسأل نو الفقار هيكا بقوله :

– أين وجدت هذه ؟

فأجابت قائلة :

– على السطح .

وقالت وهى تتوسل إليهم بصوت كالفحيح بأن يذهبوا ويناقشوا هناك موضوع من تخصه التحفة الفنية، وقام أفراد عائلة توباك بالتنبيه على أكنوبة ذى الفقار لأنه خلال حياة العجوز توباك لم تكن هناك علاقات قرابة بين عائلتى شاميل وتوباك .

– التركة تخصنا . أنتم فاشلون . وستبددون هذه أيضًا .

– معلوم من الذى دمر من .

– كان من الأفضل ألا نلتقى وألا نرى بعضنا أبدًا .

– اللصوص يستخدمون الأكاذيب على الدوام .

هكذا كانوا يتبادلون قذف هذه الإهانات بعضهم للبعض الآخر دون أن يرفعوا عيونهم ولا أصواتهم .

وطافت اللوحة القماشية عدة مرات فى دائرة، ولكن لم يشأ أحد أن يحتفظ بها، وخشيت الأرملة فى الوقت الحالى أن ينصرفوا، لأنها كانت تعرف أنهم فى طريقهم إلى البوابة لن يبدوا اهتمامًا بزهورها وبأحجارها المغسولة النقية، وفى هدوء ظاهرى قاموا بالمشى على هذا الجزء من الفناء، وهم لا يرتجفون من الرعد فكيف يتأثرون بصياح الأرملة، وراحت الأرملة تجتث تلك الزهور التى تم وطؤها وتلك التى لم

يتم مسها وهى تبكى وتلعن، ومنعها أفراد عائلتى توياك وشـــاميل، وهم متزاحمون عند البوابة من القضـــــاء على كل الزهور، لأن تلك الزهور التى داسوا عليها ستنبت مباشرة مع سقوط أول مـــطر، ولعنت هيكا توياك اليوم الذى اكتشفت فيه التحفة، وهى لا تجد من يسرى عنها .

وحيث إنهم فى بلدة "ج" لم يكن لديهم رجل أكثر تعلمًا يمكن أن يأتمنوه على السر، وخوفًا من استيلاء السلطات على التذكار فقد سافروا إلى المدينـة للبحث عن شاميل المتعلم، إنه سيبيع بسهولة التحفة، إذا أراد فحسب، وحتى لو لم تكن ذات قيمة فنية كبيرة، وشاميل بحكمته سيقنع بسهولة مدير المتحف الذى يعمل به، وودعهم عابد بكلمات جارحة قائلاً :

– أيتها الرؤوس المخبولة، تعرضون أنفسكم للاتفاق دون جدوى .

ونظراً لأنهم لم يتفقوا بشأن الشخص الذى سيحمل الصورة فقد تحركوا جميعًا ودفع كل شخص منهم نفقات سفره من جيبه .

كان المتحف ضخمًا، ولذا ففى البداية لم يصدقوا أن شاميل موجود هنـا، لابد أن يكون متعلمًا تعلمًا عاليًا للغاية من أجل هذا المكان، ردهة بهية بأعمدة ضخمة، ونوافذ عالية نصف مستديرة، ووراءها حديقة بها حوض للأسماك، وكل شىء مألوف وفخم، ووبطء اقترب شخص يرتدى زيًا به أشرطة ذهبية بطول البنطلون من

الجماعة التى كانت تهمس وقال لأفرادها أن يشتروا تذاكر للدخول، وفي عجلة أخذ أفراد عائلتى شاميل وتوياك ينقبون بأصابعهم فى ثيابهم الرثة، وكان نو الفقار أول من تشجع ووضع الدينار الفضى على الطاولة، وتزاحم الباقون لكى يروا، وتبين أنه بإمكان الجميع التفرج على المتحف بهذا الدينار .

ودعاهم الشخص الذى يرتدى زيًا لكى يأتوا وراءه، ومضى وهو يكلم نفسه، وتابعوه إلى أن اختفى فى الصالة الكبيرة التى كان يطلق عليها "شواهد القبور" كلمة غير معروفة، وسرعان ما عاد الشخص الذى يرتدى زيًا غير مألوف وسأل قائلاً :

- هل ستأتون ؟

وقالوا إنهم لن يأتوا .

- فلماذا جئتم إذن ؟

وتقدم نو الفقار خطوة ومد للرجل اللوحة القماشية المطوية .

وقال هذا الشخص :

- آه، تريدون أن تروا ما إذا كان للصورة قيمة تاريخية .

وخوفًا من أن يخدعهم الغريب تبعوه فى خطواته على الرغم من أنه كان فى كل لحظة على وجه السرعة :

- ابقوا هنا .

ولما قال الرجل الذى يرتدى الزى بعد ذلك بقليل : "قال الأستاذ إن الصورة من رسم أحد الهواة وليس لها قيمة"، وقفوا لفترة طويلة فى حيرة هل ينصرفون أم يعرضون اللوحة الأثرية مرة أخرى ويطلبون التقييم والرأى .

وقال أحدهم :

- كان ينبغى أولاً السؤال عن شاميل وسؤاله النصح، كل هؤلاء أشخاص غرباء وحاقدون .

وسأل نو الفقار عما إذا كان شاميل يعمل فى المتحف، ونبهه هذا الرجل الذى يرتدى زيًا بقوله :

- الأستاذ !

وأنهى قوله بشكل قاطع قائلاً :

- الأستاذ شاميل يعمل فى المتحف .

وبعد أن خطا عدة خطوات التفت وهو يمر قائلاً :

- الأستاذ يأتى فى حوالى العاشرة .

وخلال انتظاره لقريبه كان نو الفقار من حين لآخر يوقف الأشخاص البدناء الذين يرتدون قبعات على رؤوسهم ويفك فى خلسة اللوحة، وبعض الأشخاص بعد إلقائهم نظرة سطحية ولا حتى يردون، وتأكد أفراد عائلتى شاميل وتوياك أخيراً أن عابد المدرس ببلدة "ج"

وأحد أفراد عائلتهم رجل حسن النية وأمين، ولم يعد أحد يهتم بمكان الصورة وبمن يحتفظ بها، وراح الموظفون يطلون من الأبواب ويقتربون منهم، ونظراً لأنهم فى الوقت الحالى سيكونون غير فطنين إذا ما أنكروا القيمة الفنية للصورة فقد أخذوا يقنعون أفراد عائلتى شاميل وتوباك بأنه بمقدورهم بيع الصورة بمبلغ كبير، بمبلغ كبير للغاية يكفى الجميع إلى نهاية العمر، إلا أن ذو الفقار لاحظ أن الموظفين يبتسمون فى سخرية، وأبصر الباقين أيضًا أنهم يعتبرونهم أضحوكة وفضيحة، فقالوا وهم يقلدون فى غير مهارة كلام الأشخاص الغرباء : "نحن نعرف أن الصورة لا تستحق اهتمامًا كبيراً" .

وخشية من أن يصل الخبر عن جهلهم وغبائهم إلى أذنى شامل المتعلم وبذلك يتسببون فى ضرر له ولأنفسهم أيضًا، وفى تظاهر بالسرور نقلوا الصورة إلى الحديقة حاملين إياها مثلما يتم حمل الفأر الميت من ذيله، وقام موظفوا المتحف بتشكيل دائرة، أما ذو الفقار فقد قرّب عود الكبريت المشتعل من خرقة ممزقة قديمة فانبجس منها الدخان فجأة .

وقال أحد الأشخاص متنهداً :

- خسارة، صورة ثمينة للغاية .

وابتسم أفراد عائلة شاميل لكى يعرفوا القائل بأنهم قد فهموا المزحة .

وبالضبط فى الساعة العاشرة حضر الأستاذ، وكانت الخرقة قد لفظت أنفاسها، وتفرق الموظفون وهم ينحنون انحناءة عميقة، وقال شاميل وهو يدخل إلى الحديقة :

- أنتم طلبتمونى ؟ .

ونظر أفراد عائلتى شاميل وتوباك إلى قريبهم البعيد المجهول الذى كان يرفع كل لحظة النظارة بإصبعه الأوسط، ودعاهم ببرود إلى حجرته الرحيبة وهو يطرح دون انقطاع أسئلة لم يكن ينتظر أجوبة عليها، وكان يقول لأقاربه وهو يقلب الأوراق على المكتب ودون أن ينظر فيها، إنه من الجميل قيامهم بزيارته لأنهم يذكرونه بطفولته البعيدة، وسرد فى حزن التفاصيل، وكان أفراد عائلتى شاميل وتوباك يوافقونه وهم يسعدون إذا ما ذكر الأستاذ أحد أجزاء الأملاك، وكانوا يهتفون بصوت خافت وكأنهم يرددون أغنية دينية قائلين :

- كل شىء على هذا النحو، لم يتغير أى شىء .

وسأل قائلاً :

- هل يمكننى أن أساعدكم فى شىء ؟

ولكنه استطرد على الفور قائلاً :

- ذات مرة بحثت فى بلدة "ج" عن الكتب التى كانت تخص العجوز توباك، وكلها كتب ذات أغلفة جلدية سوداء .

وهنا توقف قليلاً ولأول مرة نظر إلى زائريه، وقاموا بهز أكتافهم وهم ينظرون بعضهم إلى بعض .

– يبدو أنكم أضعتموها فى مكان غير معروف، ينبغى البحث عنها، إنها كتب ذات قيمة، موضوعة في أحد الأماكن على السقف، والفئران تقرضها ولن تفيدكم بأى شىء، أما أنا فأرحب بها . عند عودتكم إلى بلدة "ج" وإذا ما قلبتم فى الصناديق القديمة ابحثوا، وهذا سيكون أسعد شيء بالنسبة لى، ابحثوا عن قطعة من القماش الرث القديم، سترون، من المرجح أن الألوان قد أصبحت قاتمة، ولكن ستعرفون الشكل العام، أعتقد أن الصورة تمثل العجوز ... والآن أودعكم، العمل ... تعرفون ... هكذا، الصورة رسمها جد العجوز توباك، من المؤكد أنه ليس لها قيمة، ولكن سيان، أجمع التذكارات العائلية، وأنتم لستم فى حاجة لها ... إذا عثرتم عليها، سأعطى ذلك الشخص الذى يأتينى بها، أعلنوا هذا، سأعطيه ألف دينار فضى .

أفراد عائلة توباك تحت الحصار

كانت لودا تتجول وتدمدم، وقام أفراد أسرة توباك بالاختباء وقد أحنوا ظهورهم، وكانوا ينتظرون أن يتم التعود على عدم وجودهم حتى يمكنهم الذهاب إلى النهر والاستجمام وهم ينظرون إلى المياه .

ولم يسمعوا النداء من الشارع وهم لا يفكرون إلا فى هذا الأمر، واعتدلت العجوز والدة توباك فى عجلة بقدر ما سمح لها ظهرها المريض وبعد ذلك تعثرت فى ذهابها لكى ترى من الذى يصيح، وكانوا يراقبونها فى قلق وهم يزحزحون ضيقهم، وأرادوا أن يقولوا كيف ينبغى أن تظل باقية بلا حراك، ولكنهم نهضوا هم أنفسهم واصطدموا ببعضهم فأطلقوا العنان لصمت طويل، وكان الغلمان يضربون بأقدامهم على الأرض، وصاحت هيبا فى سرور حينما لمحت المرأة ودعتها إلى الدخول، وأخذت من يديها اللفة، وكان الجميع يتحدثون فى وقت واحد، ويقاطعون بعضهم بعضًا وهم فى حالة انشراح، وكان الانشراح مفاجئًا واستمر لفترة وجيزة، ولما بدأت أفواههم تنبسط بجهد وليس من نفسها كما كانت فى البداية، دخلت لودا، ودسوا لها فى يدها خرقتها القديمة وتفاحة

وأبعدوها إلى الخارج، وطلبت الضيفة الطيبة أن تبقى لودا وأنها لا تسبب ضيقًا، إلا أن أفراد عائلة توباك تجنبوا الرد فى برود، وقالوا وهم يضحكون إنهم يريدون الذهاب إلى النهر .

وقالت المرأة أن يذهبوا، وقاموا بالتحرك بالرغم من أن العجوز كانت تخشى أن الضيفة متعبة، وكان الطريق قفرًا وحارًا، ورأوا لودا وهى تتعثر وتلوح بيدها على البعد بأسفل، ثم تختبئ فى البوابة الخاصة بجدار الكنيسة وهى تغمض عينيها لأن الشمس كانت محرقة .

وعلى وجه السرعة تأقلمت المرأة مع اللعبة واعتذرت بابتسامة، وأطل أفراد عائلة توباك وسرعان ما كان بجانبهم الوجه المعجرم المترهل للودا، وكانت تدمدم دمدمة متقطعة وتملكتها السعادة لأنها لحقت بهم، وحينما أمسكوا بها مرة أخرى من تحت إبطها وأعادوها إلى الخلف لم تعترض، ربما كانت منهكة، وناشدت هيبا المرأة أن تسامحهم وأنهم سيعودون على وجه السرعة، وقالت المرأة إن هذا ليس شيئًا ولتبق لكى تحرس الأشياء التى كانوا قد أتوا بها، ونظر أفراد عائلة توباك إلى الضيف الشاهد بكراهية، وكأن المرأة الطيبة خمنت فكرتهم فأسرعت وراءهم وهى تجر السلال، إلا أن أفراد عائلة توباك قالوا لها أن تعود . ففعلت المرأة هذا فى عجلة .

وسرعان ما اضطروا إلى جر لودا، أما هى فقد استرخت فى كسل وهى ترفع ساقيها وتقهقه فى استمتاع، ودفعوها إلى الحجرة المظلمة

وتركوها ترقد، وشعروا للحظة بالحسد، فقد كان الجو فى الحجرة بارداً ولطيفًا .

وقالت هيبا للأطفال أن يركضوا، وبقيت هى نفسها ممسكة بمقبض الباب في يدها فى انتظار أن تنهض أخت زوجها وتحاول الخروج، وتحرك ببطء المقبض النحاسى الأصفر فى يدها فأحكمت هيبا أصابعها بشدة وهى تضغط أكثر وتقاوم مقاومة أقل، ثم أمرتها بصوت لارنين له قائلة :

– ارقدى ! اذهبى للرقود !

وانتظرت قليلاً ثم ابتعدت واسترقت السمع، وتركت المنزل مفتوحًا لأنهم لم يجسروا على إغلاقه بالمفتاح على لودا، وكانت تعرف أن تجلس لساعات فى هدوء، وبعدئذ تتجول لفترة طويلة دون الذهاب بتاتًا لأبعد من الباب .

وتفوهت الضيفة ببعض الكلمات عن الفتاة المتروكة بالمنزل، إلا أن الكلمات لم تمس أفراد عائلة توباك، ربما فكروا فى المتعة التى يمنحها لهم الجلوس بجانب الماء، وربما لأنهم توقعوا أن المرأة ستقول شيئًا كهذا .

وساروا بمحاذاة النهر، ولم يحاول أحد أن يبدأ الحديث إلى أن مشوا بجانب الشاطئ، وكانت هيبا توباك تهتف لكى يتم لفت النظر قائلة :

- الطاحونة، السحابة، الغابة، جزيرة صغيرة من الرمال وسط الحشائش .

وبعد خروجهم من الدغل الذى كانت أغصان شجيراته تضرب الوجه، توقفوا فى الرمال التى كانت تطل منها الأجساد المدفونة للسابحين، ووجه أحد الأشخاص التحية إلى أفراد عائلة توباك، ونظروا فى ذلك الاتجاه، غير أن عيونهم لم تتوقف عند أى وجه على الرغم من أن أولئك الذين التفتوا ظنوا أنه قد تمت رؤيتهم، وشيعوهم بضحك جهورى لم يكتشف أحد باعثه، وخاصة النساء، وخلع أفراد عائلة توباك أحذيتهم فى هدوء، ونفضوا منها الرمل، ووقفوا بأقدامهم الساخنة على الحشائش اللينة الباردة، وعادوا لأنهم سمعوا أنه يتم النطق باسم لودا توباك، ورأوها كيف تقف وسط حشد هائج عار من الناس، وتقدم بايرو توباك نحو الدائرة وجلس السابحون دون أن يتوقفوا عن الضحك، وكانت لودا تدير ظهرها لأخيها وتبتسم فى كل مرة حينما يحرك هؤلاء الرجال أكتافهم وكأنهم سيقومون بالقفز، وذلك بعد أن تتراجع خطوة وهى تقطع القهقهة، وجذب بايرو أخته، وذهبوا بعيداً بجانب النهر وجلسوا على الأرض، وبعدئذ نهضوا وانتقلوا من مكانهم بحثًا عن مكان أفضل وظل ظليل، وتذكروا أنهم لم يتصرفوا تجاه لودا بفظاظة حينما عثرت عليهم، وبدأوا يتصرفون تجاهها بصرامة أولئك الذين كانوا أول من اعتقد هذا، ودافع عنها أولئك الذين ظنوا نفس هذا الأمر بعد ذلك بلحظة قائلين إنه من الإثم ضرب غير العاقلة .

كان الغلمان يجمعون الأغصان الجافة لكى يشعلوا النار ويقوموا بشواء السمكة، ودفعت هيبا زوجة أخيها لكى ترقد على ظهرها وتنام، إلا أنها عارضت وهى تتابع ما سيفعله الآخرون، وكانت تخشى أن يتركوها مرة أخرى .

وسرعان ما خلدت إلى النوم .

وتملك الضيفة الاندهاش وأخذت تساعد أهل البيت بنشاط فى كل شىء، وكان أفراد عائلة توباك يتصرفون بلا اكتراث، وراضين، وكأن كل ما أبهج المرأة ملكًا لهم، ومن المؤكد أنهم كانوا سيشعرون بالمرارة لو أن أحدًا آخر ظهر بالقرب منهم، واستيقظت لودا وحملقت باشتهاء فى السمكة المقلية وحبات التفاح الكبيرة، وكبت أفراد عائلة توباك غضبهم لأنه كان حقيقيًا، وتهيأ لهم أنهم يصمتون منذ فترة طويلة وبدلاً من أن يشعروا بالخوف نظروا ببرود إلى الضيفة، إلا أن العجوز عرضت فى عجلة السمكة على المرأة التى قلبتها بحركات لم تفصح عن إحساس بالإهانة، وشعر أفراد عائلة توباك بالحبور، وكانت لودا تجلس منعزلة فى جانب ولم يلتفتوا إليها ولكنها كانت حاضرة حضورًا أشد قوة، وكانت تنتظر أن يتم تقديم الطعام لها، وكان أفراد عائلة توباك يعتقدون أنهم يمكن أن يقدموا لها لو أنها مدت يدها بنفسها، وكانت تخشى أن تفعل ذلك، ولم يكن بمقدورهم إجبار أنفسهم على المضغ ببطء وكانوا يستمتعون فى خبث بقلق لودا الذى كان يقترب من الذعر، ويذيبون عذابهم فى عذابها .

كانت الضيفة تجلس بلا حراك وتنظر فى خوف، ولكن أفراد عائلة توباك تملكهم الخوف أيضًا لأن الإشارات فى نفس لودا كانت واضحة . ومدت يدها حينذاك وأخذت تفاحة والتهمتها، ونظرًا لأن الوجوه التى راقبتها هى بعد ذلك ظلت غير مكترثة فقد اقتربت الفتاة تمامًا، وفى الوقت نفسه توقف الباقون عن الأكل، ونهضت المرأة الطيبة على وجه السرعة وتراجعت عدة خطوات ثم توقفت مديرة ظهرها لأفراد عائلة توباك، دون فهم لمعنى تصرف ضيفتهم أسرعت هيبا لمقابلتها، ولكن وكأنها نسيت أن تمشى بساقها إلى الأمام وتخطو خطوة فسقطت بدون جلبة تقريبًا، وقالت فى هدوء وهى راقدة أن يروا ماذا حدث للمرأة، "ربما تشعر بوعكة"، وأنها لا تستطيع فى الوقت الحالى أن تمشى وكأن ساقيها مصابتان بالشلل، وألقى الصبيان، وهم ينظرون إلى المرأة الضيفة، بالمسئولية على الخالة المجنونة وخطفوا الطعام منها، وألقوا بكل شىء فى لفة وبعد أن ربطوا أطرافها بشدة رموا كل شىء فى النهر وهم يديرون رؤوسهم فى اشمئزاز، وكانت لودا تبصق فى اللقمة قبل أن تأكل، وجلس الأولاد على الرمل، ولكن تهيأ لهم أنهم ليسوا على مسافة بعيدة بدرجة كافية من الخالة المجنونة ذات الرائحة الكريهة، ونهضوا ولكنهم لم يتمكنوا من الهرولة والهرب بل طفوا فوق الماء، وتملكهم الجزع، ولكن حينما رأوا الأب والأم التى كانت لا تزال راقدة شملهم الهدوء، ولم يلاحظوا على وجهيهما أى لوم، ومد كل منهم يده إلى الآخر فى مهارة وسهولة، وبعد نسيانهم لودا التى كانوا يهربون منها أرادوا أن

يتحرروا تمامًا وينفذوا حركات، وسألتهم هيبا عما إذا كانوا قد اصطدموا، وقالوا : "لا"، ولكنهم قالوا أيضًا إن خالتهم ببصقها دفعت الضيفة إلى الانصراف وأن خالتهم بغيضة بالنسبة لهم، واعتدلوا فى وقفتهم مرة أخرى ولوحوا فى غضب ولكن لم يكن بمقدورهم الانصراف، واقتربت الضيفة وعلى هذا النحو أصابها بالقلق طفو الأولاد على الماء وهم يكادون يلمسون أغصان شجرة البندق، فمدت يديها لكى تجذبهم، وقالت ألا ينبغى أن يكونوا غاضبين من لودا .

وخشية أن يلاحظ الناس نصف العارين الذين كانوا يختلسون النظر من الدغل أن الضيفة تعرضت لمكروه وسط عائلتهم، أسرع بايرو بالنهوض والذهاب وراء الصخرة وكأن تشتتهم حدث بمحض الصدفة، ولكنه رأى وقد تملكه العار أنه يحوم بمفرده وأنه كالمسحور لا يستطيع الذهاب إلى أى مكان بسبب أخته المعتوهة، وانتابه الخجل ومد يديه على وجه السرعة صوب الأرض، وتهيأ له أنه ظل فى وضع مضحك لفترة طويلة بحيث إن هذا لا يمكن أن يظل مستورًا، واعتدل على عجل وجلس فى خوف متوقعًا قهقهة ساخرة، إلا أن الناس الذين جاءوا للاستحمام خرجوا من وراء أشجار الصفصاف وكأنهم لم يروا شيئًا، وتظاهروا بأنهم يمرون مصادفة، ولكنهم على الرغم من ذلك كانوا ينظرون بإصرار إلى ضيفة عائلة توباك، وأحست المرأة الطيبة بالضيق وطلبت أن يرحلوا عن هذا المكان ويجدوا مكانًا آخر، مستترا، وقبلت

هيبا الاقتراح فى شغف وهمست بأن يتركوا لودا بمفردها قائلة : "لن يمسها أحد" . والتفتت إلى آخر مستحم ونهضت صوب المرأة وهى تنظر إليها، وكانت تريد أن ترى وجهها عن قرب وناشدتها بعينيها ألا تأخذ على محمل السوء المسلك القبيح لأخت زوجها، وجمعت الضيفة الأبسطة والأشياء، ونظرًا لأنه لم يجرؤ أحد من أفراد عائلة توباك على التزحزح من مكانه خشية أن يتعرض مرة أخرى للطيران فقد كانت تتعجلهم وهرولت من الأولاد صوب هيبا، ومن هيبا نحو بايرو، ولرؤيتهم الضيق الذى شغل بال المرأة بدلاً من أن تجلس فى هدوء تملك أفراد عائلة توباك الحزن بسبب قدرهم، وهو أن تتبعهم لودا فى كل خطوة وأنها عن غير قصد تجعل حياتهم شاقة، وذهبت المرأة عدوًا ثم عادت، وتهيأ لهيبا أنها تشعر بالإهانة فلوحت على وجه السرعة بساقيها ويديها حتى لا تغفل عن السحر، واستولى عليها عجز مرير لأنهم ارتفعوا عاليًا فوق الأغصان إلى درجة أنه لم يعد بمستطاعهم رؤية وجهها، وكانوا يرون كيف أنها تصغر باستمرار، وحرك الغلمان أطرافهم بحدة وقد تملكهم اليأس لعدم مقدرتهم القيام بحركة واحدة، وهم على استعداد للبكاء فى الوقت الحالى، وكانوا قد نسوا أن الطيران إلى وقت غير بعيد كان لطيفًا للغاية، وظل توباك ساكنًا وكان يتابع ببصره زوجته وهى تزداد حجمًا حينًا، وحينًا آخر أمه وهى - من عجب الأمر - تتحرك بحرية وتلهو كطفلة بسيرها السهل، ولكن لم يكن بإمكانها أن تطير، ولاحظ الابن فى عينيها الحسد والشغف .

وقالت هيبا وأنفاسها تتلاحق إنها رأت أن المستحمين يشيرون بأيديهم تجاهها، وخشى أفراد عائلة توباك من الفضيحة، فقالوا ألا يحاول أحد أن يخطو مرة أخرى وناشدوا الضيفة أن تجلس بجانبهم وكأن شيئًا لا يحدث، وصدرت فرقعة من الدغل وظهر فجأة الناس العراة من جميع النواحى، وتوقفوا دون أن يجرؤوا على الاقتراب أكثر، وكان أفراد عائلة توباك يجلسون فى غير اكتراث فى الظاهر، ونظراً لأن الناس كانوا لا يزالون يتقافزون أمام بايرو والآخرين فقد قام أفراد عائلة توباك - قسراً فى المقام الأول - بتصغير حجم دائرتهم وهم يرتعدون ويتم دفعهم بمعرفة المحتشدين المحبين للاستطلاع الذين أرادوا أن يروا الأعجوبة، وحتى لا يبدو أمراً مضحكًا أنهم جاءوا هرولة دونما داع فقد توجهوا صوب لودا، وسرعان ما أخذوا جميعهم يصيحون على لودا وهم يعاكسونها وفقًا لاتفاق صامت وكأنها الوسيلة الوحيدة لتبرير مجيئهم، وحققت لودا أملهم وهى تتحدث بأسلوب خارج عن الأدب وتبين جسدها .

وجذبت العجوز ابنها وهى تهمس بفحيح بأن يفرق المحتشدين . وقالت إن الأخ لا ينبغى أن يسمح بتوبيخ أخته مهما كانت، وأبدى أفراد عائلة توباك قلقهم، ولم يحدث أبدًا أن مثل هذا العدد الغفير من الناس هاجم فتاة مختلة العقل لكى تُسلِّيه .

وخشى بايرو حقًا أن يظن الناس أن الأمر سيان بالنسبة لهم بأن يتعرض فرد من أفراد الأسرة للسخرية، ولكن خوفًا من الاندفاع مرة أخرى لم يجرؤ على القيام بأى شىء، وكانت العجوز فى الوقت الحاضر تتحرك حركة عسيرة، وطلبت بصوت مكتوم بأن يتم الانصراف إلى المنزل، وأراد الصبيان أن يختبروا خطر الأب وحاولوا خلسة السير، واكتشفوا أنه بإمكانهم المشى وكأن الأب قام بعمل من أعمال السحر فقد تمشوا بجانبه لكى يدرك فشله .

وجمعوا الأبسطة على وجه السرعة، وأرادوا إخفاء لودا بأسرع ما يمكن فأخذوا يدفعونها فى ظهرها، وأخفت الضيفة بصرها وهى تطأطئ رأسها بشدة إلى أسفل، ولما تقدموا لمسافة بعيدة بجانب النهر واعتقدوا أنه لا يتبعهم أحد من الناس برزت أمامهم مجموعة من المستحمين، وفى تردد سمحوا لأفراد عائلة توباك بالمرور، ولما التفتوا سرعان ما رأوا خيالاتهم بجانب المياه التى كانت تتلألأ تحت الشمس فى ظل وفراغ .

وفى منزل عائلة توباك لم يكن هناك أحد على الإطلاق، ودخلوا ولمسوا الأشياء المعروفة وقد تملكتهم السعادة لأنها حافظت على أشكالها القريبة والقديمة، وبعد هدوئهم تصرفوا بعناية فائقة تجاه الضيفة الطيبة، ولم يذكر أحد النزهة بجانب النهر، وتعجبت المرأة من ذلك ولكنها التزمت الصمت هى أيضًا .

وإلى حين وقت المساء لم تعد متأكدة ما إذا كان قد حدث في الواقع أن أفراد عائلة توياك قد طاروا، ولاحظت أنهم يتحركون في تفوق وغموض وأنهم يساندون بعضهم البعض في كل شيء، وكأنهم يقولون إن التنازلات التي يقوم بها البعض تجاه الآخرين هي دليل واضح على الاستخفاف بنقاط الضعف البشرية الدنيئة والمألوفة .

وبعد عدة أسابيع حكت العجوز والدة توياك المنام الذي حدث لها فيه أنها تطير .

الضيف

هذا الذى حدث للأفاق واللص تشوتشر هو فهم خاطئ من جانب الناس، وإنه لكذب أن نو الفقار شاميل وزوجته ارتكبا خطأً .

"لقد تصرفنا تجاهه فى بشاشة زوجى نو الفقار وأنا، زوجته الثانية ولذا فأنا الأصغر سنًا، ولكن الآخرين أيضًا الذين رأوه كانوا يتصرفون نحوه فى ود، بل وقفزوا من فوق السور وأسرعوا بين الموائد والناس فى بلدة "ز" يتملكهم الذهول . وشعر الجميع بالارتياح لأنه بمقدورهم أن يبينوا إخلاصهم تجاه اللص والأفاق تشوتشر شاميل، شقيق زوجى، مع التضحية بالاستحياء لأنهم يتصرفون بشكل غير مألوف فى مكان غريب، ولم يلتفتوا إلا حينما تصوروا أن ضيوف هذه الحديقة قد توقفوا عن النظر إليهم ... لقد كان تشوشر، اللص والعاطل، محل نظر على الدوام .

هكذا حكت صافا فيما بعد، نصف الحكاية بصوت جهورى ونصفها فى نفسها، وكان نو الفقار يضحك وهو مستلقٍ على الكرسى المجدول، وكان يلتفت فى كثير من الأحيان تجاه الموائد الأخرى وكأنه يقول بعينيه إنه ينبغى النظر إلى هذا الرجل الغريب الذى يجلس بجانبه

ويحتسى شراب الدوم . وبعد ذلك قام أولئك القادمون بجذب تشوتشر فى بهجة ودعوه لكى يذهب معهم، أما هو فقد كان يجلس متجهمًا، ورغم أنهم أنهضوه تقريبًا من على الكرسى فقد كان هادئ النفس، وفى النهاية سقط تحت المائدة على الحصى، وانقلب الكرسى، وارتعشت الوجنتان المستطيلتان المنتفختان لذى الفقار ثم توقفتا، وتفتحت ثنايا التجاعيد الصغيرة حول العينين وعاد إليه نظره، وقال إن شقيقه سيبقى معه لأنه رآه منذ قليل بالمصادفة وقاده إلى هذا المقهى متأبطًا ذراعه، وكان تشوتشر موجوداً ببلدة "ج" ويعيش بها، أما الآن فهو يراه لأول مرة بعد فترة طويلة، وكان يتحدث وهو يكاد يشعر بالإهانة ويتملكه العجب من أنه لم يكن بإمكانهم على الإطلاق تصور أنه يصطحب تشوتشر معه، وبعد ذلك ذهب أولئك لتشجيع فريقهم المحلى، أما ذو الفقار فقد قال إنه سيأتى فيما بعد وأنه لا زال يوجد متسع من الوقت، وضحك فجأة كما توقف عن الضحك بشكل مفاجئ، وكان الناس فى الحديقة ينهضون وينصرفون على مهل، وذو الفقار يتابع ببصره كل شيء وفى كل مرة عند مرور ضيف بجانبه كان يهدئ من ضحكه، وكان يلتفت وينظر كم عدد الناس الباقين، ويعبر فى صمت عن عدم رضائه، وكأن الجميع يشتركون فى لعبة طريفة، وبمجرد البدء فيها يتركونها فى هدوء، وكانت صافا تجلس فى غير اكتراث على الكرسى الأخضر .

وكانت الحديقة خالية وتتميز بحيوية ألوان الطاولات، وبعيداً في الخلف، بجانب المكان المفصول بالزجاج، كان يقف أحد الرجال مرتدياً ملابس بيضاء ويدخن وشخص ثمل يتبول عند الشجرة الضخمة المسنة الموجودة بجانبهما، وكانت تصل من الملعب في موجات صيحات التشجيع "هووو ..." وفي الشارع يهرول عدة مشجعين، وكان ذو الفقار شاميل يقلدهم، ورغم أن ضحكه كان جهورياً فإنه يتوقف بلا رنين فوق المائدة ويفقد بريقه بسرعة، وكان يذكر لتشوتشر ألاعيبه ويجبره على أن يحكيها بنفسه، ولم يعيرا صافا انتباهاً، ورداً على كل صيحة تشجيع تصل من الملعب كان ذو الفقار يصيح قائلاً : "هدف ..." وهو يمسك على الفور باللص من فوق ركبته ويضغط عليه بشدة، وقال المتشرد والمجرم :

- لقد سرقتك أنت أيضاً في إحدى الفرص .

وهنأه بجدية وأعرب عن أسفه لأنه هو نفسه لا يمتلك مثل هذه القدرات، وطلب لأخيه مشروباً، وشكره هذا وفي كل مرة حينما يضعون أمامه الكأس يخاطبه قائلاً : "حضرتك" وطوال الوقت بعد ذلك قائلاً : "أنت" .

وسرعان ما أصبحا ثملين، وامتلأت الحديقة دون أن يلاحظ ذلك .

وخسر الفريق من بلدة "ج" المباراة، فالأشخاص الأوائل الذين أتوا إلى الطاولات كانوا يصيحون بالنتيجة بصوت عال، وأحاطوا بتشوتشر

شاميل مرة أخرى، ورداً على التعليقات الساخرة بسبب الهزيمة عددوا الفرص غير المستغلة والحكم السيىء، وبالرغم من ذلك فلم يعرب كثيرون عن استيائهم وكأن هزيمتهم كانت تسلية لهم، وكان بعض اللاعبين يقف وينظر إلى الفتيات اللاتى كانت تمر، ويتحرك فى الشارع كثير من الناس مرتدين حلل يوم الأحد، ذات الألوان الزرقاء الغامقة والخضراء والصفراء والرمادية والبيضاء، وكان الصبيان يهرولون حول الأوتوبيسات التى كانت فارغة، ويكتبون بأصابعهم على الطبقة الرقيقة من الغبار نتيجة المباراة وكلمات السباب، ورداً على التحفيزات الجهورية لأخيه بأن يظل على ابتهاجه كان اللص يهز جسده فحسب، (وقدم له الباقون ببعض الاحترام مشروبات ملونة وشربوا نخبه) .

واختفت الابتسامة من وجه ذى الفقار واقترح فى حذر على اللص أن يأتى ضيفًا إلى بلدة "ج"، وتقبل الباقون هذا الأمر باستحسان . ونظر تشوتشر شزراً إلى وجوههم لأنه كان يخشى من الخداع .

وأعطى السائق الموجود فى الأوتوبيس الأخضر الغامق إشارة التحرك، وكانوا يتعجلون فيما بين الموائد لاحتلال أماكنهم والنظرات تتابعهم، وازداد الاحتشاد والصياح حول الأوتوبيس، وبدأ التشاحن عند المائدة حيث كان يجلس اللص، وفى هذه المرة رفعوه من على الكرسى فى خوف وفى مرتين أو ثلاثة تراجعوا عن ذلك، وفى النهاية حينما نهض بالفعل دفعوه فى مرتين أو ثلاثة تراجعوا عن ذلك، وفى النهاية حينما

نهض بالفعل دفعوه فى استعجال نحو باب الخروج، وتوقف اللص فتراجع الناس من بلدة "ج" والابتسامات متجمدة على شفاههم، ودخل أحد الأشخاص فى عجلة إلى الأوتوبيس الأحمر وهو شاعر بالإهانة، ولكنه عاد على وجه السرعة قائلاً للص إنه وجد له مكانًا . ومال تشوتشر على أخيه وتحدث له همسًا، أما الباقون فقد أمالوا رؤوسهم فى فضول، وضحك ذو الفقار بصوت عال وأدار رأسه، وعندئذ قال إن الناس فى بلدة "ج" نسوا هذا الأمر وأنه لا ينبغى منحه معانى صعبة، ودفعت الجامعة المحتال بحماس، وتحرك الأوتوبيس على مهل، وتدافع الباقون فى فرح، وساعدوا ذا الفقار، الشخصية البارزة، على الصعود، وبينما كان يقف بقدمه على سلم الأوتوبيس ويمسك بيده لم تصدر عنه قهقهةللخطة، وحينما أحس بأنه محشور بين الأجساد صاح بصوت أجش وكأنه يمزح قائلاً : "أين شاميل ؟ ورد المتشرد بأنه هنا وكان صوته مبتهجًا، وضحك الجميع، وكان الأوتوبيس الأخضر الشفاف من الداخل، يصدر تغيرًا فى الشوارع التى كانت قد أضيئت، وتابع كثير من الناس ببصرهم الرحيل وكانوا بشكل غير مفهوم يفغرون أفواههم ويرفعون أيديهم .

وأفسح الجميع مكانًا لتشوتشر، أما هو فقد غير مكانه عدة مرات، وكانوا يصدرون ضجيجًا وهم محتشدون حول اللص، ودخل الأوتوبيس فى الظلام، وروى ذو الفقار للرجل الذى كان يقود السيارة أن أخاه سيىء الأخلاق وأنه كان يعيش فى بلدة "ج" ويسرق منذ نعومة أظفاره،

ويعد ارتكابه لإحدى السرقات تم طرده بحيث إنه لم يره لفترة طويلة، وكان من المعتقد أنه فى النمسا، ولم يجرؤ نو الفقار على أن يخبط على ظهر السائق حتى لا يسقطوا فى المصرف المائى، وكان السائق يوافق على الكلام برأسه .

وقال اللص إنهم لن يقبلوه بسرور، وفى إطار هذا المضمون كان يتحدث بلا انقطاع لأنهم كانوا يوافقون على كلامه، وهكذا فقد كان الناس من بلدة "ج" وهم يحيطون بتشوتشر ويمكسون بالمقابض البيضاء، وينظرون إليه ويشربون ويغنون، وسرعان ما تملكهم التعب، وكانت أفواههم جافة لأنهم أفرغوا الزجاجات، فجلسوا على المقاعد وهم يعتذرون اعتذارات طويلة ومفصلة، وكانت سلمى النحيفة تقف فى البداية، وبعد ذلك جلست بجانب اللص الذى حدثها بعينيه بأنه يشتهيها، ولمس ساقيها خلسة وهو يثرثر .

وحل الهدوء، وانتفض اللص ونظر حوله، وسأل عما إذا كانوا قد اقتربوا، وأجابت سلمى بالإيجاب وقال المحتال : "آه، هكذا"، ونظر بكراهية إلى جميع الصامتين الذين كانوا فى الوقت الحالى يرتجون على مقاعدهم .

ونهض بيوس م. الذى دفع اليوم لسلمى ثمن طعام الغداء، لأنه كان يجلس بجانبها مباشرة، والتفت اللص ونظر حوله، وبعد ذلك بقليل نهضت سلمى أيضًا وابتعدت وهى تتمايل بتنورتها الفارغة، "وأيقظت زوجى بكوعى وأنا أنظر عبر رأس أخيه ودفعته، فتزحزحنا والتصقنا،

وكـان الجـمـيع أيضـًـا ينهـضــون فى هدوء من أمــاكنهم ويذهبـون إلى الجزءين الأمامى والخلفى من الأوتوبيس تاركين دائرة فارغة من المقاعد بجانب البعض الآخر متظاهرين بأن الوضع مريح بالنسبة لنا والتزمنا الصمت ولم نعر تشوتشر انتباهًا، وحتى حينما قفز وهرول إلى الأمام وإلى الخلف وهو يترنح ويصيح لم يتكلم أحد، وظل هكذا لفترة طويلة فى اضطراب بل وحتى خبط برأسه فى القضيب المعدنى، وبعدئذ هدأ وبقى متصلبًا فى وضع ساكن، وكنا نشعر بالضيق بل وحتى تملكنا الحزن، وكنا نفكر فى قلق كيف سنخرج حينما نصل إلى بلدة "ج" وتبين أن خوفنا له مبرراته حينما وقف الأوتوبيس وساد الصمت" .

كان الوقت متأخرًا، ولا يوجد أحد فى أى مكان، والمنازل ساكنة ومألوفة جيدًا، الأوتوبيس الذى وصل من قبل كان يقف منحرفًا فى الشارع ويرى ما بداخله .

واستمر اللص باقيًا كالمتحجر ولم يتحرك، ببطء فتح الباب أحد الأشخاص من المجموعة التى كانت موجودة فى الجزء الأمامى من الأوتوبيس، وكنا نحن نقف فى الخلف ونحاول خلسة فتح بابنا، ولكنه لم يستجب، ولم نجسر على المرور بجانب المتشرد الذى كان الآن ينظف بنطلونه براحة يده فى هدوء، ومن المرجح أنه كان يشعر بالخجل لأنه ظل هكذا فى نفس الوضع لفترة طويلة، والتفت حينًا إلى الأمام، وأحيانًا إلى الخلف، وكان ينظر ما هى المجموعة التى ستنزل إلى الخارج، وقال بيوس م. الذى كان يقف أمام باب الخروج عندنا إلى أولئك

الواقفين بالخارج مجتهداً فى أن يكون رنين صوته طبيعياً : "افتح ... "
وخرجنا جميعًا فى عجلة ووقفنا بالقرب من نوافذ الغرف المعتمة التى كانت تطل على الشارع .

وكان تشوتشو يخطو ببطء وهو يجر ساقيه وينظر إلى النوافذ المظلمة التى كانت تتلألأ فيها الرؤوس بشكل غائم، وبعد ذلك اختفى وهو يلتفت فى تعجل، وكانت خلف النوافذ تنغلق فى تمهل على طول جانبى المنازل .

"واستيقظ ذو الفقار مبكراً، واحتسى القهوة فى صمت وذهب إلى العمل، زوجى ذو الفقار غريب الأطوار قليلاً، ولكن تعودت على ذلك . إنه يبتسم فى يوم الأحد فحسب ... " .

الهاجس

كان ثملاً ويلوح بيديه، ولم يوافق أحد موافقة صادقة على يأسه وكلماته، وأيدوه لكى يخففوا من غضبه، وهو - ضياء - كان يــقول : "آه، آه"، ويربت على طفله وهو يبكى ويقبله ويقدم له حلويات المطاعم، وذهب لكى ينام واستيقظ مبكرًا وقال وهو يترنح نفس الكلام الذى قاله بالأمس فأصاب زوجته بالدهشة، وكرر بأنه يتنبأ بشر سيُلم بأفراد عائلة شاميل القريبين والبعيدين أيضًا، وكان يتحدث بصوت أجش ولفترة طويلة بحيث إنه لم يكن مشابهًا لنفسه ولذا فلم يصدقوه، وكان يصيح لأنه لم يلحظ بعد أنهم ينصتون لكلامه وكأنه أكاذيب، وقام باستدعاء جميع أفراد عائلة شاميل الذين يعيشون فى بلدة "ج"، وجاءوا وقد تملكهم الخوف من الخبر المتعلق بإصابة ضياء بالجنون وواسوه فى ألمه قائلين فى عدم اكتراث : "حسن ..." وعندئذ حكى لهم فى هــدوء، وسألوه بقولهم : "كيف ؟ " . ولم يعرف كيف يرد عليهم فقال أن يأتوا فى إثره .

وأجابوا عليه خشية الفضيحة وألسنة الشر بقولهم :

- فقط بهدوء .

وكان ضياء شاميل غير راضٍ لأنه سيشرح هاجسه لهانا وعابد فحسب، وذلك لأن الباقين لم يأتوا .

وفى قاعة الاطلاع حدق بسرعة فى اللوحات الرخامية المزركشة للموائد، وكانت هانا البدينة وعابد شاميل يسيران بحرية وهدوء، ولم يكن يوجد أحد بالمكان، (وكانت موجودة فى الوسط منضدة البلياردو، وكانت الأرضية خشنة، وهنا وهناك تالفة وسوداء وتعلوها طبقة دهنية، وفى الخلف يوجد رف عليه أوانٍ نحاسية لامعة للقهوة والشاى، ومعلقة على الجدران صور فوتوغرافية مكفهرة للأعضاء البارزين لقاعة الاطلاع، وتقع الثلاث نوافذ الأولى فى ظلال عريشة شجرة العنب البرى) .

وكان ضياء يلمع براحة يده اللوحة الحجرية ويبحث وهو مطأطئ الرأس إلى أسفل فى الزخارف غير المألوفة عن أشكال الطيور والزهور والأشخاص ويتحدث همساً ولكن هانا وعابد لم يفهما وخرجا، وأغشت الشمس بصرهما، وهكذا بدأ أفراد عائلة شاميل يحدسون الشر الذى سيحدث لهم، وتحدث ضياء والخوف يسيطر عليه - وقد أغفل عمله اليومى - قائلاً :

- إذا ما اندفعت سيارة وهددتنى بالموت سأقفز عليها وبهذه الطريقة أحافظ على حياتى .

واكتشف جميع أفراد عائلة شاميل أنهم هم أنفسهم لديهم نفس الهاجس وضحكوا، أما زوج هانا فلم يبتهج، فقد هرول فى عصبية من غرفة إلى غرفة وقام بتقليب الأمتعة، ثم نادى لكى يدخل الجميع، ودخلوا بطريقة غير ملائمة وفى بشاشة إلى الحجرة المعتمة التى تسودها الفوضى، ولم يتوقعوا أن ضياء شاميل فى هذه المرة أيضًا سيكشف لهم عن شىء مثير للعجب، عانقته هانا حينما طلب من الجميع أن يرقدوا وبعد أن ارتمت على الأرض قامت بتنفيذ حركة جنسية ولذا أدار الجميع رؤوسهم، وقال ضياء أن يغمضوا عيونهم وسيرون فى جفون العيون كيف أن البقع المضيئة تتحول إلى أشياء وعلامات غير مألوفة، إلا أن أحدًا لم ير شيئًا وخرجوا وقد تملكهم الخجل .

وفى يوم الغد جاءت نافا والآخرون مهرولين، أما عابد شاميل فقد أتى فى هدوء، وقالو إنه ظهرت أمام أعينهم صور، ولم يستطيعوا أن يعرفوا إيقاف مسارها ولا التنبؤ بها .

وقال ضياء شاميل :

– أجل، كانت الضوضاء مسيطرة بالأمس، وهذا الأمر يحتاج إلى الهدوء والليل .

أما الناس فى بلدة "ج" فقد أخذوا يراقبون فى ارتياب السير المضطرب لأفراد عائلة شاميل .

وفى الخريف من نفس العام هلت الهواجس، ولم يشعروا بالخوف إلا فيما بعد .

وذات صباح، مع أول هبوب للتيارات الشديدة البرودة الخاصة بضباب الخريف، التى بددت الهواء الراكد لأنفاس الليل، انهارات قوى نافا وانتاب جسدها خمود بسبب الهاجس القوى، ولم تواتيها أية فكرة وهى تمشى حافية على الحشائش الرطبة والباردة وكانت تسير وهى فى ذهول وكأنها فى المنام تسقط فى هوة، وكانت تحجب خوفها حتى لا تنفجر لأنها شعرت بأنه ضخم، وبأقصى جهد قربت التفاحة الباردة من أسنانها وجلبت لها ثمرة التفاح الصفاء بعد لحظة، إلا أن وجود الناس الذين كانوا يمرون فى حيرة تحت شجرة الفاكهة وهم يقدرون ثمارها، أيقظ بداخلها الضعف المتوغل، وخفت وطأة قيود الوحدة التى كانت حتى ذلك الحين تسيطر على الألم، واستدارت وهى مفتوحة الفم لكى تلقى بالقطعة المقضومة، وصاحت هانا وسألتها قائلة :

– ماذ بك ؟

واقتربت نافا ببطء وهى ترتعش وفتحت فمها وهى تبتلع الهواء مثل السمكة الفضية الكبيرة التى قفزت إلى الموت فى التو، وهرع عابد شاميل وأمسك بها، وهبطت النساء اللاتى كُنَّ قد تسلّقن لكى تسقط الثمار، وسألت المرأة المريضة عما بها، فأجابت بصعوبة وفجأة وبسرعة أيضًا قائلة :

- أتنبأ بوقوع شر .

وبالرغم من أن نانا صرخت قائلة "لا" حينما تلفظ بايرو توياك في غير ثقة وبصوت خافت بالهاجس الخاص به، فقد أنصتوا إليه بانتباه . وقالت لها هانا في صرامة .

- اسكتي .

وكانوا ينتظرون في سكون تام أن يتكلم، أما هو فلم يكن ماهرًا فتمتم تمتمة غامضة، وبعد ذلك نهض في عجلة وهو يلاحظ قلقهم وسار خطوات رائيًا أن مقدمة حذائه تقف على الدوام عند نقطة في الأمام سجلتها العيون، وفعل الباقون نفس الشيء وأدركوا، وقد فقدوا رغبتهم في الحياة، أنهم تركوا الثمار تتعفن .

ولم تتحقق هواجسهم مع سقوط أول ثلج، وكانوا ينتظرون دون حراك خوفًا من أن يضخموا المصيبة بغفلتهم .

ونظرًا لازدياد بأسهم وعدم مجيء المصيبة ذاتها، ربما لكي تستجمع قوتها وتكون الضربة أقوى، فإن أفراد عائلة شاميل قرروا أن يستبقوها وذلك لكي يعيشوا في هدوء بعد ذلك .

فقاموا بارتكاب مصيبة في حق أنفسهم .

وقالوا في اجتماع كبير إنه من قبيل الشر قتل إنسان، ولن يجرؤوا على قتل شخص غريب وذلك لأن رجال الشرطة سيكتشفون الأمر .

وفى أثناء تفكيرهم تذكروا أن نافا لم توضح هاجسها وأن الآخرين لم يكن لديهم مثل هذا الهاجس، والهاجس المتعلق بنافا كان خاصًا بها .

لقد كانت نافا فخورة وخجلة لأن جميع العيون ترقبها بكثير من الانتباه والتربص، ولكنها لم تقل شيئًا . وكانوا ينظرون إليها فى جزع إلى حين وفاتها، وقد حدثت الوفاة فى نفس الصباح، وكأنها إنسانة غير معروفة وكانوا يقومون لها بخدمات بسيطة، وأهدت لها هانا شاميل نفسها بحركة غير لبقة محرمة حريرية مطرزة بالذهب، ولم تجرؤ نافا على أخذ الهدية قائلة إنها لن تعرف أن تستخدم مثل هذا الشىء الجميل، ثم رقدت وانتظرت .

وارتمى عابد شاميل على ركبتيه وتوسل وهو ينتحب بألا يتم ارتكاب مثل هذا الإثم، ولكنه كان عاجزًا وذلك لأن الباقين أخذوا القدر فى أيديهم لكى يتغلبوا على الهاجس . وقال حينذاك : اقتلونى أنا، وأنهضوه، وقدموا له كوبًا من الماء لكى يشرب .

وراح أفراد عائلة شاميل ينظرون إلى يدى هانا القاسيتين، إلا أنها أبعدت عن نفسها فى حنق النظرات التى تفرض عليها القيام بالقتل، وتقبل نصفهم رفضها بخبث .

ونهض ضياء شاميل فى عناء شديد، وتابعت هانا حركاته فى اندهاش، واقترب من نافا ومد يديه وأراد ثلاث مرات أن يقتلها، ولكنه لم

يستطع . ولم تبد نافا أية إشارات على المقاومة، وقال ضياء شاميل وهو منهك إنه لا يجد داخل نفسه أى شعور يساعده على القيام بهذا .

وخطر ببالهم أمر وعصبوا له عينيه، وبعد ذلك خرجوا كلهم تقريباً وانتظروا . ووضعوا فى طريقه كتكوتًا وقطة، ودفع أحد الأشخاص شاميل فى ظهره وقام هو فى حذر بأول خطوة وهو يمد يديه، وسحق بقدمه، دون أن يرى، الكتكوت وأحس بالتقزز واليأس، وقفز وبقدمه الأخرى وقف على القطة وسرت بجسده صرخة وخوف، وانقبضت أصابعه لإحساسه بالرقبة الدافئة اللينة، وهنا انتابه السكون .

وهكذا حدث لأفراد عائلة شاميل الشر الذى تنبأوا به .

وأقاموا لنافا قبراً تحت الطبقة الرقيقة من الثلج، وبعد ذلك شهد الناس فى بلدة "ج" حزنهم الكبير، وقبيل نهاية الشتاء عادوا إلى أعمالهم المألوفة، ولكن ليس لفترة طويلة .

واعترف نو الفقار شاميل، بعد التقائه مصادفة بأخيه عابد، أن الخوف من وقوع شر راح يثير القلق مرة أخرى فى نومه وحياته . وقال المدرس الطيب :

- آه، ياربى !

وضغط بشدة على يده ونظر بإصرار بعينين حافلتين بالحزن، وانصرف وهو يهز رأسه ولم يخرج لمدة يومين .

وأثار ذو الفقار قلق الآخرين أيضًا فاعترفوا بحسن نية وبصراحة أن الخوف يتزايد ثانية بأنفسهم، وتهيأ لهم أن القتل ليس شرًا كبيرًا، وموت نفس واحدة ليس مصيبة كبيرة فى مواجهة مثل هذا الهاجس الهائل الموجود لديهم، واقترحوا أن يرتكبوا جريمة أخرى لكى يعاقبوا أنفسهم بأنفسهم فقد يتخلصون من خوفهم ويواصلون حياتهم كما كانت، وصاح أحد الأشخاص قائلاً :

– ليست هناك مصيبة أعظم من العيش بدون مأوى فلنشعل النار فى بضع منازل من منازلنا .

وأصدروا ضجيجًا وتشاجروا، ولم يتمكنوا من الاتفاق بشأن المنزل الذى ينبغى إشعال النار فيه أولاً، وصاحوا بأن يتم إشعال النار فى جميع منازل أفراد عائلة شاميل، وبعدئذ يبقون بالشارع ويهلكون من البرد، ولكن مثل هذه النيران الهائلة ستثير الشك فى نفوس الناس، إذن فليتم إشعال النار فى منزلين فحسب، وعلى هذا النحو ستصبح مصيبة حينما تعيش عائلتان عيشة مشتركة، وضحك الصغار سنًا، فليتم إحراق منزل واحد فحسب، هكذا قال الكبار سنًا، ومنزل من، منزل ذو الفقار شاميل، ونهض ذو الفقار وقال إن هذا ليس عدلاً لأن لديه أكبر عدد من الأولاد من زوجتيه الأولى والثانية وكذلك العجوز عمر، وكان يتحدث ببطء وهو يرفع يده بشكل غير محدد، وحاجباه مرفوعان إلى أعلى وعيناه شاحبتان وجاحظتان .

وأشعلوا النار فى منزل عابد شاميل، المدرس الذى كان يعيش بمفرده، وارتفعت النار بسرعة وعاليًا . وأذابت الثلج وأدفأت الليل الشتوى البارد، ولم يكن المدرس موجودًا فى الاجتماع، وحينما أبلغوه بأنه من أجل صالح الجميع ينبغى أن يضحى بمنزله صاح فى سرور، كما أكدوا، قائلاً :

- ليكن، ليكن، أشعلوا النار .

ولم يرغب بنفسه فى إنقاذ أى شىء من الحاجيات، سوى الكتب المقدسة .

ورأى الناس الذين جذبت النيران انتباهم أن أفراد عائلة شاميل يراقبون فى هدوء النار الملتهمة، وراح جيرانهم يصيحون وهم يهرولون بصفائح الماء والثلج قائلين :

- تحركوا أيها الرجال .

وعند الفجر كان المنزل حطامًا محترقًا . وذهب أفراد عائلة شاميل إلى النوم، وتعجب سكان بلدة "ج" من المسلك الهادئ لأفراد عائلة شاميل بالرغم من المصيبة الفادحة التى ألمت بهم .

وكان منزل عابد شاميل مؤمنًا عليه وتم صرف النقود له، واستولى الخوف مرة أخرى على أفراد عائلة شاميل من الحيرة أمام القدرة، ولكى يتخلصوا من الكابوس فقد قاموا بارتكاب شر آخر .

فقد تملكهم السكون لفترة معينة بعد المصيبة، ولكن نظراً لأن الجريمة أصبحت باهتة فى ذاكرتهم أو لأنه تم تعويض الضرر فقد أصبح الهاجس قوياً وتهيأ لهم أن الحادث الذى ارتكبوه بأنفسهم لا يناسب قوة الهاجس، وانتقل هذا الإحساس من جيل إلى جيل .

المترجم فى سطور

جمال الدين سيد محمد

- من مواليد القاهرة فى عام ١٩٤٢ .

- تخرج فى كلية الألسن - جامعة عين شمس عام ١٩٦٣ (قسم اللغة الصربوكرواتيه) .

- حصل على درجة الماجستير فى عام ١٩٧٦ .

- حصل على الدكتوراه فى عام ١٩٧٩ من كلية اللغات بجامعة بلغراد .

- من أشهر مولفاته : الأدب اليوغسلافى المعاصر ، مقدونية بين الماضى والحاضر ، مصر وعدم الانحياز ، البوسنة والهرسك .

- نشر عديداً من الأبحاث فى مجال آداب شعوب الجمهوريات اليوغسلافية السابقة والدراسات المقارنة بالعديد من المجلات فى العالم العربى .

- عضو اتحاد كتاب جمهورية مصر العربية .

من أشهر ترجماته:

- اللعبة الخطرة لبرانيسلاف نوشيتش ، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ، القاهرة فى ١٩٦٩ .

- حرم معالى الوزير لبرانيسلاف نوشيتش المسرح الكوميدى ، القاهرة فى ١٩٧٠ .

- مختارات من الشعر المقدونى ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة فى ١٩٨٤ .

- الآنسة لإيڤو أندرتيش ، دار الهلال ، القاهرة فى ١٩٨٥ .

- أبو الهول - قصائد فى حب مصر لترايان بتروفسكى ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة فى ١٩٨٦ .

- صيد الديك البرى ، قصص سلوفيتية ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة فى ١٩٨٧ .

- الجسر له عيون ، شعر لعائشة زاهير وڤيتش ، هيئة الكتاب ، القاهرة فى ١٩٨٨ .

- الحياة المديرة للملك أوزوالد والمؤامرة لڤليمير لوكتيش ، المسرح العالمى ، الكويت فى ١٩٨٨ .

- العدد رقم واحد لماتو لوفراك ، روايات الهلال ، فى ١٩٨٩ .

- طريق الهامى إلى الموت لرشاد قاضيتش ، دار الصباح ، القاهرة فى ١٩٩٢ .

- العائلة الحزينة ، فى عرض البحر لبرانيسلاف نوشيتش ، المسرح العالمى ، الكويت فى ١٩٩٧ .

- مختارات من الشعر المصرى ، سكوبلى فى ١٩٨٤ .

- حكايات من مصر ، لوبليانا فى ١٩٨٦ .

- العطش الأكبر لأحمد سويلم ، بسرايبڤو فى ١٩٩٠ .

المؤلف فى سطور

نجاد إبريشيموڤيتش

من أبرز كُتَّاب القصة بالبوسنة والهرسك ، وهو مولود فى مدينة سراييڤو فى العشرين من أكتوبر عام ١٩٤٠ ، وتخرج فى كلية الآداب بسراييڤو عام ١٩٧٧.

لقد عمل لفترة مدرسًا لتاريخ الفن فى بلدة جوار چدة ، وأقام لفترة فى باريس ، وهو عضو اتحاد أدباء البوسنة والهرسك منذ عام ١٩٦٤، وتولى منصب رئيس اتحاد الأدباء عام ١٩٩٣، وعمل رئيسًا لتحرير مجلة "جيفوت".

وله العديد من المؤلفات منها :-

- الشقى ، رواية.
- الحى والميت ، مجموعة قصصية.
- مسرحيات فى عام ١٩٨٨.

التصحيح اللغوى : **علا طعمة**
الإشراف الفنى : **حسن كامل**